أنيس منصور

قل لي يا أستاذ

دار الشروق

قل لي يا أستاذ

الطبعـة الأولـى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الطبعـة الثانيـة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

الطبعـة الثالثـة
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة . ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب ٣٣ البانوراما - تليفون . ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس . ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت . ص.ب ٨٠٦٤ - هاتف . ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس . ٨١٧٧٦٥ (٠١)

كلمة أولى

نعم . . سأقول وأقول ما يخطر على البال وما لا يخطر . . وبمناسبة ومن غير مناسبة . وأكثر كلامنا من غير مناسبة واضحة . . مثلاً أنت جالس وأمام التلفزيون وتشرب قهوة وفجأة يخطر لك أن تطلب فلاناً في التليفون فأنت لم تسأل عنه منذ وقت طويل . . وفجأة يرن جرس التليفون ويكون فلاناً هو المتحدث . كيف فكرت وفكر هو في نفس الوقت ؟!

أنت نائم في فراشك نوماً عميقاً وفجأة تضع يدك على جانب من الخد وتقول : آه . . ويزداد الألم وتذهب لطبيب الأسنان فلا يجد شيئاً في أسنانك وإنما يندهش الطبيب وهو يقول : أسنانك لؤلؤ !!

وفي اليوم التالي تجيء مكالمة من واشنطن ويكون المتكلم ابنك أو أخاك يقول لك : أنه بالأمس قد خلع ضرساً مسوساً . وتحسبها بالساعة فتجد أنه في اللحظة التي خلع ضرسه في اميركا أحسست أنت بالوجع !!

* * *

وسوف تجيء عبارات مكثفة التركيب . لا خوف . فسوف أشرحها بسرعة مثلاً : أن كل شجرة يقطعونها في البرازيل سوف تؤدي إلى غرق مصر ؟

أن لها معنى . والمعنى صحيح . أسمع يا سيدي : الكرة الأرضية ملفوفة في طبقة عرضها أربعون كيلو متراً من ثاني أكسيد الكربون . هذا الغاز يجيء من المصانع الضخمة ومن إحراق الغابات في البرازيل وفي أواسط إفريقيا .

هذا الغاز يسمح بدخول أشعة الشمس . ولكنه لا يسمح بخروج الحرارة . . والحرارة تدخل وتلتف حول الأرض ولا تخرج منها . . وترتفع الحرارة وترتفع . وسوف يؤدي هذا الإرتفاع إلى ذوبان الجليد في القطبين الشمالي والجنوبي . وهذا الذوبان سوف يرفع مستوى سطح البحر . . وسوف تغرق عشرات الألوف من الجزر في المحيط الهادي . وكان أول من طلب النجدة في العالم هو الرئيس مأمون عبد القيوم رئيس دولة المالديف . وقد حذرنا العالم المصري الكبير د . مصطفى طلبه رئيس الجهاز التنفيذي لحماية البيئة من غرق الوجه البحري لمصر وأنه سوف يكون الضحية الأولى قبل نهاية هذا القرن . . فلا بد من إيقاف إحراق الغابات بدفع الملايين لهذه الدول التي تحتاج إلى الوقود من الخشب !

* * *

وسوف أكون سريع العبارة . ولن أطيل عليك . وأن كان ذلك صعباً . ولكن سأحاول . وكان الأديب الروسي تولستوي يقول : أن الفلسفة الواضحة هي التي يستطيع صاحبها أن

يشرحها في عشر دقائق ـ أي عشرين صفحة من هذا الكتاب !

وليس أسهل من الأسئلة . وليس أصعب من الإجابة عليها . سؤال مثلاً : كم عدد الرمال على شاطىء البحر ؟

هناك نكتة تقول : أن كلاماً دار بين جحا وأصدقائه . واحد قال : أيهما أكثر عدداً : النجوم في السماء أو الشعر في ذيل حمار جحا ؟

قال جحا : النجوم في السماء طبعاً !!
وقال آخرون : بل الشعر في ذيل حمارك !
فقال واحد عاقل : إذن النبدأ في عد النجوم والشعر !
فما أصعب ذلك !

أن البشرية احتاجت ألوف السنين حتى يصل العالم الرياضي الكبير اينشتين إلى هذا السطر الذي بمقتضاه انفجرت القنبلة الذرية :
الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء !

وليس أقصر من هذا السطر ، وليس أصعب من تفسيره . . قليلون في الدنيا من لديهم القدرة على إثبات صحة ذلك !

ثم أن الذي لا يسأل لا يعرف . .
وكان أستاذنا العظيم أرسطو يقول : أن الدهشة هي بداية المعرفة . .

أي الذي لا يندهش لا يسأل . . والذي لا يسأل لا يعرف . والذي لا يعرف لا يتقدم . والذي لا يتقدم يتأخر !

والفيلسوف العظيم سقراط كان يطلب إلى تلامذته أن يسألوه وألا يتوقفوا عن التساؤل . . وكان سقراط يقول : أنني أستعير أسلوب أمي في توليد المعاني ــ وكانت أمه مولده . . وكان هو يولد المعاني من عقول الشباب . .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول : لقاء الرجال تلقيح للعقول !

وفي إحدى المرات لاحظ سقراط أن واحداً من تلامذته لا يسأل ولا يتكلم فصرخ فيه : تكلم حتى أراك ! !

أي تكلم حتى أعرفك . . وحتى أرى رأيك ورؤيتك !

ويقال أن الإمام الشافعي كان يجلس في الجامع والتف حوله تلامذته . . كلهم يسألون . . وكان يجيب . . ألا واحداً . ظل صامتاً . طول الوقت . . وفي كل مرة يحاول الإمام الشافعي أن يريح رجله التي اتكأ عليها فيتحرج من هذا الرجل الوقور الذي ينظر إليه ولا يسأل . وأخيراً تكلم الرجل الوقور . وكان كلامه سخيفاً . فقال الشافعي : لقد آن للشافعي أن يمد رجله !

فالرجل الوقور عندما تكلم ، رآه الإمام الشافعي سخيفاً ــ ولم يكن يعرف ذلك !

وسوف أكون واضحاً . والوضوح أعز آمالي ــ فقد حققت ذلك في ١٣٠ كتاباً من تأليفي . وفي ثلاثين مسرحية من ترجمتي عن الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية . . وسوف أظل كذلك . فأنا تخرجت في قسم الفلسفة ثم قمت بتدريس الفلسفة عشرين عاماً في الجامعة . وكان هدفي أن اكون واضحاً

عند أقل الناس تخصصاً . ولذلك فمحاضراتي كوكتيل من الأدب وعلم النفس والفكاهة والأغاني والنوادر . . والذي يقلبها فمن الصعب أن يعرف أن كانت هذه المحتاضرات لطلبة الدراسات العربية أو الفرنسية أو الفلسفية أو النفسية أو الاجتماعية أو لطلبة المدارس الثانوية . . لسهولة العبارة ومحاولاتي المستمرة ، دون ملل ، أن أكون واضحاً .

وفي أول عهدي بالصحافة كتبت مقالاً . أعجب به الأستاذ عباس العقاد وقال لي وللذين حضروا صالونه الأدبي : أعجبني أسلوب الأستاذ أنيس !

وحزنت في ذلك اليوم حزناً عميقاً . فالعقاد قد أعجبه أسلوبي ؟! وأنا لا يعجبني أسلوب العقاد ! فهو صعب شاق . وعدت إلى البيت أعيد كتابة هذا المقال ثلاثين مرة حتى جردته تماماً من المصطلحات والتراكيب الفلسفية . . ومنذ ذلك اليوم من أربعين عاماً وأنا لا أكتب إلا سهلاً واضحاً . . أو أنني أحاول ذلك !

قصة أخرى : كنت ألقي قصيدة من نظمي في ذكرى المولد النبوي . وكان بين الحاضرين الشيخ حسن البنا المشرف العام للأخوان المسلمين وبعد أن القيتها سألني في أبوة : وأنت يا ولدي ماذا تدرس ؟ فقلت له متحمساً : طالب في قسم الفلسفة يا أستاذ . . فقال : هذا واضح . . ولكن لا تنس يا ولدي أن هؤلاء الناس بسطاء . . اناس اعتادوا على أن يسبحوا في القنوات الصغيرة الضحلة ، فلا ترغمهم على السباحة في المحيط !

وفهمت المعنى . وتوقفت عن نظم الشعر !

* * *

والحق مع القارىء . . مع المستمع . . مع المشاهد . . يجب أن يفهم دون وجع دماغ !

وفي الشعر العربي القديم أن الشاعر أبا تمام قال شعراً لم يفهمه الناس فقيل له : ولماذا لا تقول ما يفهمه الناس ؟

وكان رده : ولماذا لا يفهم الناس ما أقول !

وليس الحق مع الشاعر العظيم . . الحق مع الناس . . مع الزبون . . مع المستهلك ــ هذه قاعدة اقتصادية معروفة !

وعندما أصدر الفيلسوف الألماني شوبنهور واحداً من كتبه الرائعة ، كان يمر كل يوم على المكتبة يسأل : كم عدد النسخ التي بيعت ؟ فيقال له : ولا نسخة !

وفي أحد الأيام ذهب إلى المكتبة يسأل . فلم يجد إلا نسخة واحدة قد بيعت . . وأن الذي اشتراها هو أحد أساتذة الفلسفة . . فذهب إليه يشكره . ولكن الأستاذ قال له : ان الكتاب صعب شاق عسير الفهم !

فغضب الفيلسوف وقال : لماذا إذاً راح واحد يقلب في كتابي وسمع صوت حمار ينهق ، لماذا يكون هذا صوت المؤلف دائماً وليس صوت القارىء !

والحق مع القارىء وليس مع الفيلسوف . . فما اجتمع مؤلف وقارىء إلا كان الحمار بينهما . . هذا الحمار قد يتمسك به المؤلف حتى آخر سطر . . أو يطرده القارىء من أول سطر !

ولكن هذا الخوف عند الكاتب أو عند القارىء يجب أن يتبدد بسرعة . وتصبح شفتا الكاتب عند أذني القارىء ، يهمس ولا يصرخ .. محاولاً قدر استطاعته ألا يكون مملاً ــ فالناس يزهقون بسرعة !

* * *

وكل الموضوعات التي تتعلق بالإنسان ومشاعر الإنسان ليست دقيقة ولا واضحة تماماً . فلا توجد حقيقة إنسانية سهلة وبسيطة مثل ٢ + ٢ = ٤ .. وإنما نحن نعبر عن كل المعاني الإنسانية بالتقريب .. لأنه من الصعب أن نلقي القبض على المعاني وأن نسجنها في الكلمات .. وإذا فعلنا فكثيراً ما هربت .. فنعود إليها نتحايل عليها وندور حولها لعلنا نرى جديداً .. وهكذا إلى الأبد !

والفيلسوف الألماني العظيم هيدجر يقول : ركعت وسجدت عند قدمي معشوقتي .. ورفعت رأسي انتظر أن تجود عليّ بكلمة .. وانتظرت طويلاً طويلاً .. ولكن معشوقتي لم تقل إلا قليلاً !

أما هذه المعشوقة فهي : الحقيقة !

القليل همست به ، والباقي يجب أن نجتهد نحن في معرفته !

الحب مثلاً : يملأ نصف كتب الأدب في كل العصور .. مئات ألوف من الأبيات في كل اللغات . فما هو؟ كيف هو؟ لماذا هو؟ اية فائدة منه ؟

يقول الشاعر القديم في تعريف الحب :

يقول إناس لو وصفت لنا الهوى
فواللّه ما أدري الهوى كيف يوصف !

يقول شوقي أمير الشعراء موضحاً ذلك :

(يقول إناس لو وصف لنا الهوى
لعل الذي لم يعرف الحب يعرف
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته
فواللّه ما أدري الهوى كيف يوصف !).

يقول أبو نواس أيضاً في مرض الحب :

يا ويح قومي أبلى بين أعينهم
على الفراش ولا يدرون ما دائي !

يقول أمير الشعراء شوقي موضحاً هذا المعنى :

(يا ويح قومي أبلى بين أعينهم
ويدرج الموت في جسمي وأعضائي
وينظرون لجسم لا حراك به
على الفراش ولا يدرون ما دائي)

وقال شاعر قديم ــ ويقال عمر بن الخطاب أيضاً :

إن النساء شياطين خلقن لنا
نعوذ باللّه من شر الشياطين !

وقالت شاعرة رداً على ذلك :

أن النساء رياحين خلقن لنا
وكلنا يشتهي شم الرياحين !

وقال شاعر ثالث :

إن النساء شياطين خلقن لنا
أعوذ بالله من كيد الشياطين
فهن أصل البليات التي ظهرت
بين البرية في الدنيا وفي الدين !

.. وما لا نهاية له من الاختلاف والخلاف في الرأي والرؤية والنظرة والنظرية .. وهذه عبقرية الإنسان وصعوبة رؤية وإحتواء المعاني ..

والشاعر القديم يقول :

لو كنت أشرح ما ألقاه من حرق
ومن سقام ومن وجد ومن قلق
لم يبق في الأرض قرطاس ولا قلم
ولا مداد ولا شيء من الورق !

بل سوف يبقى الكثير جداً من كل شيء ..

وتاريخ الفكر الإنساني ، هو تاريخ المحاولة والخطأ واللف والدوران والنفاذ إلى أعماق المعاني .. ثم معاودة كل ذلك من جديد .. كأن أحداً لم يحاول من قبل !

وغير ذلك من ألوف المعاني والنوادر والقصص في التاريخ والأدب والفلسفة ..

ولكن الكاتب يحاول ويحاول .. ويكفيه شرفاً أن يفعل ذلك ..

وهناك نوعان من الأدباء أو الشعراء أو المفكرين :

واحد يمشي أمامك ويتكلم . .
وواحد يمشي وراءك ويتكلم . .
ولا أعرف أين سأكون . .

وإنما سأحاول أن أكون أقرب إلى أذنيك إلى عينيك ا
عقلك . . وأن اقطع هذه المسافة التي بيننا في أسرع وقت وبأ
جهد . . ولن أمل أبداً أن أكون واضحاً !

* * *

وأخيراً أتمنى أن يكون لقولي ومقالي عندك بعض هذا الذ
يقوله شاعر قديم :

ورد الكتاب فلا عدمت أنا ملا
كتبت به حتى تضوع طيباً
فكأن موسى قد أعيد لأمه
أو ثوب يوسف قد أتى يعقوبا . . .

بل أقل من ذلك يرضيني . ولك الشكر !

ليس بالأحضان وحدها !

عندما رأيت مدينة البندقية لأول مرة ، لم أجد ما أقوله سوى ما غناه محمد عبد الوهاب للشاعر علي محمود طه , . . لا كنت قد رأيت بوضوح تلك القنوات تلتف حول البيوت . . أو البيوت عائمة على وجه الماء . . ولا رأيت ذلك الجندول الأسود الذهبي . . ولا الجميلات في ظلال الجسور ولا العناق ولا القبلات ولا الموسيقى . . وإنما وجدتني أغني بأعلى صوتي كأنني أصرخ من الألم . . أو كأن شيطان الشعر هو الذي يغني :

أين من عيني هاتيك المجالي
يا عروس البحر يا حلم الخيال
رقص الجندول كالنجم الرضيّ
فأشدُ يا ملاح بالصوت الشجي
وترنم بالنشيد الوثني
هذه الليلة حلُم العبقري
أين يا فينيسا تلك المجالي
أين من عيني يا مهد الجمال

موكب الغيد وعيد الكرنفال
يا عروس البحر، يا حلم الخيال

ولا أعرف ما الذي جرى لي وجرى عليّ .. لقد تحولت إلى زورق سائح .. إلى موجة تتعلق بالزورق .. إلى ظلال بيت على وجه الماء ينتشر على الجميع ..

ولم يمض وقت طويل حتى رأيت الماء أخضر اللون آسناً متعفناً . والبيوت رطبة مظلمة تكاد تنهار .. ومنها وإليها تقفز الفئران .. وليس البحر بهذا الحنان .. ولا البيوت عاشقة للماء . وإنما هي خائفة من الماء .. ونحن خائفون من الماء على الناس ، وهذا الجمال الفريد !

وعندما رأيت الملوك والرؤساء ، في الدار البيضاء وجدتني أنشد : بالأحضان بالأحضان يا بلادنا يا حلوة بالأحضان .. ومصر التي في خاطري .. ومصر ومصر أمنا .. ويا حبيبتي يا مصر .. ومن الخليج الهادر إلى المحيط الثائر .. وكلنا في الهم شرق .. وإذا انزكمت القاهرة عطست بغداد وسعلت الدار البيضاء ودعت لنا بالشفاء الرياض ..

وتعانقنا جميعاً .. وتمنينا ذلك كأننا مليون عربي وألف مليون مسلم .. وأن نذوب جميعاً في عناق في قبلة واحدة عاطفية .. بالأحضان إلى آخر الأغنية التي كان يترنم بها عبد الحليم حافظ أحد أبطال الوحدة العاطفية بين المصريين والعرب ..

لولا أن الأحضان لا تحل مشكلة .. فنحن العرب أكثر الناس عناقاً وقبلات ..

وكان الأعداء قديماً يتعانقون لكي يتأكد كل واحد منهم أن الآخر لا يخفي في ملابسه سلاحاً . .

وكان الأعداء ينازلون بعضهم البعض واحداً واحداً . . قائداً قائداً . . ملكاً ملكاً . . وبدلاً من أن يموت ألوف الناس ، فإن هؤلاء الألوف يكتفون بما يحدث لقادتهم !

ولكن القادة الأعداء لا يخفون سلاحهم في ملابسهم . وإنما في أماكن أخرى .

ثم إن الملوك والرؤساء والأمراء لا أعداء . .

ولكن كم من أجسام تجاورت ، وقلوب تباعدت . . كم من قلوب تقاربت وعقول تباعدت !!

ووحدة عبد الحليم حافظ هي وحدة الذوق والألم . . وحدة الطرب والحظ . . ولكن الطرب ليس إلا بعض الوقت . . أما بقية الوقت فهو طعام وشراب وبيع وشراء وفلوس وسلطة وجيوش ومؤامرات . . وخوف وقلق . .

ونحن نفهم الوحدة خطأ . . نفهمها على أننا نتفق في كل شيء ولا نختلف . أو يجب ألا نختلف . . مع أن شاعرنا شوقي قال على لسان الشاعر ابن ذريح في مسرحية «مجنون ليلى» :

ما الذي أضحك مني
الظبيات العامرية
ألأني أنا شيعي
وليلى أموية ؟
اختلاف الرأي لا

فلا بد من الخلاف والاختلاف . . فالله لم يخلق شيئين متطابقين . . لا الناس ولا الوجوه ولا العينين في الوجه الواحد . . ولا الفراشات بين الأشجار ولا الأشجار ولا أوراق الشجرة الواحدة . .

ونحن العرب نقول : من ليس منا فهو علينا ــ خطأ وألف خطأ . فمن الممكن أن يكون أي إنسان منك . . من نسلك ومن دمك . . وهو أشد الناس خلافاً معك وكرهاً لك وتآمراً عليك . . فأول قاتل في التاريخ هو قابيل الذي قتل أخاه هابيل . . والله سبحانه وتعالى لم يجعل للرسول أخاً ولا ولداً وإنما جعل له ابن عم وجعل له البنات . . فليس الأبناء والإخوة ولا الأولاد الذكور هم أفضل الذين منا . .

ومن الممكن أن يكون لك عدو ، وهو أقرب الناس إليك . .

قال تعالى : ﴿ **من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فأحذروهم** ﴾ . . .

والعبارة التي تقول : لا صداقة دائمة ولا عداوة دائمة ، وإنما مصالح دائمة ــ صحيحة تماماً !

والرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي قال : أحبب حبيبك حباً ما ، فقد يصبح عدوك يوما ما ، وابغض عدوك بغضا ما ، فقد يكون حبيبك يوما ما .

فالحب لا يدوم ، والكراهية لا تدوم . . ومن الحب تتولد الكراهية . . ومن الكراهية يتخلق الحب . .

ومعاوية هو أحكم السياسيين عندما قال : لو كانت بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . . إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها . .

فلا بد أن تبقى شعرة . . جسر رفيع للعبور . . ممر . . خط تليفوني . . خيط يهدي إليك الناس ، ويهديك إليهم . . إذا اختلفت لا تقطع ، وإذا قطعت فبعض الوقت . . وأعظم درس لنا ما بين أمريكا وروسيا . . فالذي بينهما حروب معلنة وحروب معلومات سرية . . كل يوم يضبطون إناساً يتجسسون . . ولكن لم يؤد ذلك إلى القطيعة . . أبداً . . لأن حرب المعلومات يجب أن تستمر . . أن يعرف كل واحد ما عند الآخر . . وتبقى السفارات والمفاوضات . . فهم يتقاسمون الأرض والفضاء والكواكب الأخرى . .

وكذلك أمريكا والصين . . والصين وروسيا . . واليابان احتلتها أمريكا وضربتها بالقنابل الذرية ولا تزال تحتلها هي وألمانيا . . ويحرم عليهما إنشاء الجيوش . . ولكن ألمانيا هي عملاق الغرب واليابان عملاق الشرق . . وأعظم منافسين للغرب والشرق معاً . . ولذلك لا بد من الاتفاق مع الأعداء . . ألوف المعاهدات . . بيع وشراء . . وخوف . . وعقود واتفاقيات . . ومنافسات عنيفة في كل مكان . . ولا بد من الاتفاق حتى لا تتحول المنافسات في الأسواق إلى حروب تقضي على المصانع والمصالح . . واليابان احتلت معظم

الدول الآسيوية ودمرتها . . ولكن عادت اليابان إلى مساعدتها وأقرضتها لكي تقف على أرجلها وتشتري منها . . فهي ساعدتها من أجل أن تتحول من عدو إلى زبون . . ولكن هذه الدول التي ساعدتها اليبان وقفت كالشياطين تنافس اليابان وتهددها في كل مكان : كوريا الجنوبية وهونج كونج وسنغافورة وتايوان وتايلاند . .

وأمريكا التي سحقت اليابان هي الآن في حالة من الرعب والفزع من تغلغل الصناعات اليابانية وتهديدها للمصانع الأمريكية .

والنكتة الأمريكية تقول إن الرئيس بوش غلبه النوم ثلاث سنوات . . ولما صحا سأل نائبه : هه . . كيف الحال ؟ هل عندنا بطالة ؟

فقال نائبه : ولا واحد بلا عمل ! .

فعاد يسأله : وهل عندنا غلاء ؟

فأجابه : انتهى الغلاء . .

ثم سأله أخيراً : وكم سعر الرغيف الآن ؟

فأجابه نائبه : ٣٠ يناً ! !

* * *

ونحن العرب ننظر إلى ماضينا على أنه مثل جلد النمر . . فكل الخطوط والبقع لا يمكن غسلها بالماء والصابون ـ فما كان كان . انتهى !

فقط يجب أن نستفيد من أخطائنا . وأن نعمل جاهدين على ألا نكرر الماضي . وألا نضيّع الوقت في البكاء على الدم المسفوك

والدمع المسفوح . . وعلى ليلى العامرية . . يقول شاعرنا القديم :

أمر على الديار ديار ليلى
أقبّل ذا الجدارا وذا الجدارا
وما حب الديار ملكن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا !

فلنهدم الجدار القديم . . ولنترحم على ليلى وبثينة وجميلة . . فالأمهات يلدن كل يوم ألف ليلى ومليون جميلة . . ولتسكن ليلى في شقة صغيرة ولتحدد نسلها لكي تتمكن كل دولة من ربط ميزانيتها على عدد محدود من النسل ! .

لقد ظلت الحروب الصليبية مئات السنين . . وانتهت الحروب وانتصر المسلمون . . وانكفأ الأوروبيون على العلم والفكر والفن . . فأبدعوا وتقدموا . . ولم يعد أحد يحارب أحداً لأنه مسيحي . . انتهت حروب الهلال والصليب . . وذهبنا إلى بلادهم وجاءوا ،، واشترينا وباعوا ، وتعلمنا منهم وعلمناهم قبل ذلك . واستفدنا وأفادوا . .

والأمريكان احتلوا ألمانيا واليابان ، بعد هزيمة بشعة . . وتحالف المنتصر والمهزوم خوفاً من المهزوم . .

وجاء الفرنسيون فاحتلوا مصر وسوريا ولبنان وتونس والجزائر والمغرب . . وذهبوا وبقي إعجابنا بهم . ولغتهم على ألسنة الجميع . .

وجاء الإنجليز واحتلوا مصر سبعين عاماً واحتلوا العراق

والأردن والخليج والسودان . وذهبوا وبقيت لغتهم على ألسنتنا وثقافتهم في أدمغتنا . . وأجمل ما نرى في لندن وأروع : الكتب والمسارح . . ومحلات ماركس واسبنسر اللذان ساعدا على قيام دولة إسرائيل . . وينسى الناس ذلك وهم في نشوة الحياة في لندن ولا يفكرون فيمن البائع ومن أين جاءت هذه المصنوعات . .

وإيطاليا احتلت ليبيا والصومال وأثيوبيا . . والليبيون في مطار روما أكثر منهم في مطار القاهرة . . وفي الصومال يتكلمون الإيطالية . . وأذكر أنني كنت في مهمة سياسية مع د . بطرس غالي وأقمنا في قصر الضيافة في موجديشيو . . وكان السفرجية يقدمون لي الطعام والشراب وينبهونني إلى انقطاع الماء والكهرباء . . ولا يفعلون ذلك مع د. بطرس غالي. فقلت لهم أنه هو الوزير . . ولكن لأنني أتكلم الإيطالية وهو لا يعرفها ، أصبحت موضع الاهتمام ، لأن الإيطالية هي موضع الاحترام العظيم عند شعب الصومال ! .

انتهت الحروب وانتهت ويلاتها . . ويجب أن نعيش اليوم وليس الأمس . . ثم لا ننسى ما حدث ، ونعمل جاهدين على ألا يقع مرة أخرى !

وهناك ثلاثة أنواع من الوحدة :

وحدة الآه يا عين . .
ووحدة الزبدة . .
ووحدة المدافع . .

وحدة الآه يا ليل يا عين هي التي حققها وحده منفرداً محمد

عبد الوهاب وأم كلثوم . . وحدة الصوت الجميل والأداء الجميل البديع المعاني . . فنحن جميعاً دون أن ندري نقول : آه يا ست . . اللّه يا أستاذ . . يا سلام يا حليم . .

دون أن يفكر أحد فيمن يكون هذا الذي يجلس إلى جواره أو أمامه أو خلفه . . وفي الأربعينات والخمسينات كانت تجيء الطائرات مشحونة بأبناء الخليج والرافدين لسماع أم كلثوم . .
إنه استفتاء عربي حر على اختيار أم كلثوم ملكة على القلوب . .

* * *

وهناك وحدة المدافع : حلف شمال الأطلنطي وحلف وارسو وحلف بغداد وحلف جنوب شرقي آسيا . . حلف الخائفين يجتمعون معاً ، ويتسلحون معاً ، ويستعدون لهجوم من حلف آخر . . إنها أحلاف الحرب حتى لا تقع حرب . . وكذلك محاولة الوحدة بين مصر وسوريا والعراق واليمن والسودان وليبيا . .

وهذه الأحلاف لم تعد نموذجية . . وإنما يجب أن يعاد النظر فيها . . وقد أعيد النظر عشرات المرات . . وتحققت هذه الكتل المدرعة من الصواريخ عابرة القارات . . ومن الرءوس النووية . . ومن الأقمار القاتلة . . وبقيت أقمار التجسس حول الأرض . .

وسوف تبقى وحدة الزبدة . . وحدة الرغيف والمصنوعات بين كل الدول . . وحتى لا تؤدي المنافسة بين الدول إلى بوار

هذه السلع ، اتفقت الدول الأوروبية على فتح الحدود لتدخل وتخرج كل السلع . . مع انضباط تام لكمياتها وأسعارها . . حتى لا تنخفض الأسعار وحتى لا ترتفع . . وحتى لا تؤدي المنافسة بين الدول الأوروبية إلى خرابها واكتساح اليابان وأمريكا لكل الأسواق . .

وليس بين الدول الأوروبية دولتان تتكلمان لغة واحدة . . الخلافات اللغوية والسياسية والعرقية شديدة جداً . . ولكن من أجل البقاء لا بد من استخدام العقل . . أي العلم . فكان الاتفاق على تصريف البضائع وعلى سعر العملات . . حتى لا تتحول وحدة الزبدة إلى وحدة مدافع . . وحتى لا تؤدي المدافع إلى خراب لا تنفع معه وحدة الآه يا ليل يا عين . .

الفاتيكان : لأول مرّة !

لو أنك لم تر في حياتك إلا ورقة بجنيه وفجأة وجدت نفسك أمام خزائن البنك الأهلي وفلوس من كل لون ومن كل بلد . . ثم إن أحداً لا يفسر لك هذا الذي ترى . .

لو أنك لم تر في حياتك إلا الأرانب ووجدت نفسك في حديقة الحيوانات بلا أقفاص . . لو أنك لم تر في حياتك إلا الأراجوز ثم وجدت نفسك في هوليود . .

لو أنك لم تر في حياتك إلا الست أم إبراهيم بائعة الفجل على ناصية شارعكم ، وفجأة وجدت نفسك على مائدة مارلين مونرو . . وهي التي أعدت لك الطعام وتضعه في فمك . قل لي باللّه كيف يكون شعورك وماذا تقول وكيف تستطيع أن تقول ؟!

هكذا كان حالي : فأنا ريفي خرج من المنصورة وأقام في القاهرة ولم ير من الدنيا كلها إلا المكتبة أو الطريق إليها . . حتى الطريق لم أكن أراه ، . فاللّه قد ابتلاني بمرض السرحان ، فلا أرى ولا أسمع إلا قليلاً . . أما بقية الوعي فهو تحت جلدي ولا يظهر إلا عند الضرورة . . فأنا خرجت من المنصورة الصغيرة

إلى القاهرة الواسعة التي جعلتها أنا ضيقة جداً . . وفجأة وجدتني في روما ، وفي روما كل شيء له حكاية . . الميادين والشوارع والتماثيل والنواصي . . كل شيء يتكلم . . دوشة التاريخ وضوضاء الحياة وحيرة العقل والقلب . فلا تعرف إن كنت تسمع بعينك أو ترى بأذنك . . أو كنت أنت الذي تتكلم أو أن أحداً غيرك احتل لسانك ، أو أنت على لسانه .

هنا كان . . وهنا من الممكن أن يكون . وكل شيء ممكن . . ولا نهاية لما هو ممكن بين الناس .

لقد أتسعت الدنيا مرة واحدة وامتلأت بكل شيء جميل . . وكل جميل يغني ويرقص ويصلي . . فوراء كل فتاة جميلة وأمامها واحد من رجال الدين الكاثوليكي . . ولا تدري من الذي يمشي وراء من ؟ . . هل الدين يلاحق الجمال ويصادره ؟ أو هل الجمال يمشي وراء الدين ويهتدي به ويتوب إليه ؟ . . ويمضي وقت طويل قبل أن أعرف أن الجمال والفن والفصاحة والخلود هو الذي يفوح من كل شيء . من كل أحد . كيف ؟ لا أعرف .

من أين لي بألف عين وألف أذن وألف عقل وألف ألف قلب ! !

(١)

هنا وراء هذه الطوبة وقف الأمبراطور الروماني نيرون ينفخ في الصفارة . . ويطلب إلى الشعراء أن يقول كل واحد أسخف بيت يستحق عليه الشنق . فيقول ويشنقه الامبراطور !

ولما فرغ الامبراطور من الشعراء راح يغني سعيداً بأنه خلص روما من أجمل الكذابين وأكذب عشاق الجمال . . وهنا

أيضاً نظر نيرون إلى السماء . . وسأل إن كان من الممكن الصعود إلى السماء . أو كان من الممكن أن يأتي بالملائكة فينفذ فيهم حكم الإعدام لأنهم بلا عمل !

(٢)

وهنا يقال إن القديس بطرس أمير الرسل قد حاول الهرب من طغيان نيرون الذي قرر القضاء على المسيحيين جميعاً . . وهنا وعلى هذا المنحدر رأى القديس بطرس هالة من النور ، ومن هذه الهالة خرج السيد المسيح عليه السلام فسأله القديس بطرس : (qvo Vadis Donine) (دومني كوفاديس) ؟

ومعناها : سيدي ، أين تذهب ؟

فرد عليه السيد المسيح : إلى روما ليصلبوني !

وأحس القديس بطرس أن السيد المسيح يريده أن يعود إلى روما لأنه سوف يموت مصلوباً . وصلبوه وجعلوا رأسه إلى تحت وساقيه إلى فوق ــ كما كانت رغبته !

وفي هذا المكان وبعد ١٦ قرناً أقاموا كنيسة القديسة ماريا دلابيانته وجعلوا اسمها كنيسة «كوفاديس» .

وفي هذا المكان توهم كثير من المؤمنين أن المسيح قد ظهر لهم وأنه طلب إليهم أن يعودوا إلى روما وأن يشنقوا أنفسهم . . فشنق كثيرون أنفسهم تنفيذاً لأمر المسيح عليه السلام ؟!

وكثير من المحبين الفاشلين والعشاق الضالين علقوا أنفسهم من أشجار ومن أعمدة النور لأنهم لا يعرفون إلى أين يذهبون . . ولا ماذا يفعلون إن هم ذهبوا .

ويقال إن القديس بطرس هو الذي أنشأ كنيسة القديس بطرس في مدينة الفاتيكان . . ويقال بل إنه كان أول رئيس لها .

وقد ظهر القديس بطرس لكثير من المؤمنين يحدثهم عن كيف اقيمت هذه الكنيسة . . فهناك حكايات ومعجزات لا أول لها ولا آخر !

(٣)

وفي مدينة الفاتيكان توجد كنيسة القديس بطرس التي هي بمثابة كعبة الديانات الكاثوليكية وإلى جوارها يعيش البابا رأس الكنيسة . . وهذه هي أصغر مدينة في العالم وأقواها أثراً . . فالبابا يحكم ألوف ملايين الكاثوليك في العالم . . الأسوار عالية . . وليست لها أبواب . . إنها مدينة اللّه . . أو مدينة للّه . . وهي كالسماء بلا أبواب . . أو أبوابها مفتوحة وكأنها بلا أبواب . . وسكانها الف من القساوسة والموظفين والحرس السويسري . أما أمراء الكنيسة فعددهم ١٣٠ كردينالاً . . أربعون منهم إيطاليون . . وهم يختالون بمسحوهم الأرجوانية وصلبانهم الذهبية . ومن هؤلاء الكرادلة يختارون بابا الفاتيكان . . ومن هذه النافذة العالية ومن المدخنة التي فوقها يخرج الدخان . . والدخان معناه أن الكرادلة قد اختاروا وأحرقوا أوراق الاقتراع السري . وإلى هذه المدخنة والنافذة تتطلع ألوف ملايين العيون ترقب من سيكون ظل المسيح على الأرض . . من يكون خليفة أمير الرسل : القديس بطرس . .

ذهبت وزاحمت وتطلعت ورأيت بقعة حمراء بيضاء . .

قطعة سحاب . لها ذراعان ورأس حمراء . . وحولي أمواج من الصراخ والدموع : لقد اختاروا البابا يوحنا الثالث والعشرين !

إنه الرجل «المعصوم من الخطأ» ـ أي الرجل الذي لا يخطىء . فإذا أخطأ فالخطأ قانون ـ هذا هو الرجل الوحيد في هذه الدنيا الذي قد نزهه المؤمنون عن الوقوع في الخطأ .

هل هو نصف إله . . ظل المسيح على الأرض . . خليفة أمير الرسل ـ نعم كل ذلك . . إنه الإنسان المقدس واهب البركة لكل المسيحيين .

(٤)

ذهبت اتفرج على مباركة البابا يوحنا الثالث والعشرين لعدد من خريجي المعاهد الدينية . ثم «رسم» بعض القساوسة كرادلة . . وهو أعظم الاحتفالات الدينية . . وكان لا بد أن أضع طاقية على رأسي احتراماً للكنيسة . . الرجال فعلوا مثلي والسيدات غطين رءوسهن أيضاً . . وانتشرت قشعريرة من الهمس والدعاء ، وجاء البابا على محفة فرعونية . . إنه أحمر اللون وملابسه فضية . . كأنه يسبح في سماء الكنيسة . . أو كأنه يرفرف بأجنحة لا نراها . . وراح يحيي الناس يمينا وشمالا . . والسعداء هم الذين رأوا عينيه ورآهم بعينه . . وامتدت يده الكريمة إلى الطاقية فوق رأسي وأخذها ووضعها فوق رأسه ثم أعادها إلى رأسي . . مجرد صدفة ـ أنا أقول صدفة والناس حولي يقولون : معجزة البركة . . تمام الرضا . . دعاء الوالدين . . وتحرك البابا كأنه في زورق يمشي على رءوس الناس . . أو كأنه

محمول على رموش الناس . . خفيفاً بلا صوت . . وإن كان له مليون صدى . . والقى كلمة بالإيطالية واللاتينية والإنجليزية والفرنسية واليونانية ولغات أخرى لا أعرفها . . وكلما تحدث لغة صرخ أهلها ورفعوا أيديهم . . أما النساء فباكيات . . كأنهن قررن غسل الأرض الرخامية الوردية بدموعهن .

وانتهى البابا من الصلاة ومن مباركة القساوسة الصغار والكرادلة وعاد إلى خارج الكنيسة . . وانطلق الناس وراءه . . وفجأة تزاحم الناس ووجدتني على الأرض . . لقد خطفوا الطاقية من فوق دماغي ومزقوها . . والسعيد من حصل على فتفوتة منها ـ فتفوتة بركة . . ولم أكن أعرف ذلك . ولم يقل لي أحد معنى هذه البركة ولا فداحة الخسارة التي ضاعت مني .

بل أنني عندما عدت إلى مصر بالباخرة ورويت هذه الحكاية الغريبة هاجمني النساء يقبلن رأسي ـ أي يتلمسن ما تبقى عليها من البركة المقدسة !

(٥)

فعلى جبل الفاتيكان أقيمت هذه المدينة الصغيرة الساحرة ـ نصف مساحة طابا المصرية . وقلب هذه المدينة هو كنيستها الرائعة . وإذا كانت كل قطعة حجر في روما لها حكاية فإن كل خط وكل قطعة زجاج لها حكاية تاريخية وفنية . . أما القبة السداسية (سستينا) التي رسمها الفنان العظيم ميكلونجلو فهي مظلمة مرتفعة ومساحتها عشرة آلاف قدم مربعة . . وكان يرسمها بالألوان المائية على جبس مبلل . . ولذلك يجب أن يعمل بسرعة . . فارتفعت السلالم والسقايل ونام على ظهره حتى

تصلبت عروق رقبته . . يرسم كل القصص التي جاءت في الكتاب المقدس . . فرسم ٣٤٣ شخصية : قصة خلق آدم وحواء والطوفان والخطيئة الأولى . . أنها أعظم عمل فني في التاريخ . . وهذه القصة هي أروع ما أبدع فنان في كل العصور . وكان ميكلونجلو يعمل ليلاً نهاراً . . ينسى أن ينام وأن يأكل . . ويطرد كل يوم واحداً من مساعديه . . حتى لم يبق إلا خادم يعد له الطعام .

أما البابا يوليوس فكان يتعجل ميكلونجلو . . وذهب لزيارته ورأى القبة لم تكتمل . فقال : هذا يكفي . . لقد بلغت القمة . . أنزل !

ونزل ميكلونجلو وهو لم يكمل هذا العمل الرائع . ولكن البابا خاف أن يموت دون أن يتم هذا العمل الجبار .

ثم نحت ميكلونجلو تمثالاً للنبي موسى عليه السلام . . تحفة بارزة فذة . ولما أكمل ميكلونجلو هذا التمثال نظر إليه وهو يقول ويعني ما يقول : الآن تستطيع أن تتكلم !

وأروع ما في القبة السداسية تلك اللمسة العبقرية : كيف خلق اللّه الإنسان ؟

فأنت ترى في الله من ناحية ـ سبحانه وتعالى ـ على هيئة إنسان وقد مد ذراعه ومن أصابع واحدة من يده خرج آبونا آدم . . إنه خرج من التراب والضباب . . إنه خرج من المادة التي لا شكل لها ولا لون ولا طعم ولا عقل ولا قلب . . والكون كله من أوله لآخره قد اتخذ أشكاله ومعانيه وألوانه وموازينه من مجرد «لمسة»

واحدة من أصبع اللّه ـ والقرآن الكريم يقول : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن . . فيكون !﴾ .

أما هذه المسافة الصغيرة جداً بين أصبع آدم وأصبع اللّه . . هذه المليمترات فقد استغرقت ملايين السنين . . الوف ملايين السنين حتى تحولت المادة التي لا عقل لها ولا حياة إلى ملايين ملايين الكائنات الصغيرة والكبيرة التي لها حياة وغريزة وعقل وقلب وقدرة على فهم كل ذلك وإبداع ما لم يكن من قبل !

سألتني سيلفانا المرشدة السياحية : بروتستانت ؟

قلت : لا . .

ـ إذن ؟

ـ مسلم .

ويبهرك هذا الذي تراه ؟

ـ تبهرني المعاني العميقة والتعبير عنها في بلاغة ساحرة . . إن الذي أراه وأسمعه يبهر أي إنسان من أي دين ويبهر من لا دين له أيضاً .

ـ ولكن رأيتك تفعل نفس الشيء أمام النافورات والتماثيل في الشوارع !

ـ طبعاً . . إنه نفس الجمال والبلاغة والبراعة ـ أنني أحني رأسي لهؤلاء الفنانين العظماء الذين تركوا لنا هذا السحر على الحجر !

(٦)

لم يجاملني الأطباء وإنما قالوا بمنتهى الصراحة : أنت مريض أو سوف تصاب بالجنون !

إنها حكاية . لا أعرف كيف بدأت . ولا كيف أنتهت . فبعد أن ترددت على الفاتيكان عشرين مرة . كل مرة أسمع شيئاً جديداً . ذهبت احدى المرات مع البروتستانت ومرة مع الكاثوليك ومرة مع الأرثوذكس ومرة مع صديق العمر فضيلة الشيخ ضياء الدين محمد بدر . . حكايات وقصص وإجتهادات وخرافات ومعجزات ومعجزات مضادة . . وإذا أسندت رأسي إلى الحائط سمعت همس اللوحات وإذا أسندت ظهري إلى التماثيل سرت قشعريرة الإبداع في جسمي . . وإذا تمنيت أن ألقي بنفسي في نافورة إيسادرة . . أو نافورة الطرق الثلاثة (تريفي) التي أدرت لها ظهري والقيت في مائها بعملة معدنية ، فالأساطير تقول أنني سوف أعود إليها ـ فعدت إليها بعد ذلك ثلاثين مرة !

وعند ملتقى شارع ناسيوناله وشارع دل كورسو وفي ميدان البندقية . . رأيت أختي غير الشقيقة التي ماتت شابة صغيرة . . واللّه ما تمنيت من كل موتاي أن تعيش واحدة إلا هذه الأخت . . سمراء خمرية جميلة طويلة لا أنسى عينيها وشعرها وصوتها وخفتها . . ولا أعرف لماذا هي وحدها . . كانت وحدها . . لماذا لم أكن قادراً على رؤيتها عندما أريد . ولا أزال أذكر . وكيف تسللت من فراش عند الفجر وذهبت إلى بيتها . . وغلبني النوم أمام بابها . . وضربتني أمي ضرباً موجعاً . ولم

أفهم ما هو الخطأ . . أليست أختي ؟ فلماذا إذن ؟

لم تقل أمي شيئاً . وكنت التقي بها سراً . ونجلس متجاورين . حتى تلف ذراعها حولي وأنا أبكي وهي أيضاً .

ولا أعرف لماذا نحن نبكي ؟ ولكن أحداً لم يقل لنا شيئاً . إن الناس ينظرون ويقولون : يا ناس أخوها . . يا ناس أخته !

وباعدت بيننا الدنيا . . وسمعت أنها ماتت ــ والله لم تمت في وجداني لحظة واحدة . . حتى هذه اللحظة فإنني أرى وجهها الجميل على الورق ــ والله على ما أقول شهيد ــ وأنا أترك القلم الآن ، كما أفعل في كل مرة وأقرأ على روحها الفاتحة . . هل ماتت في الرابعة عشرة من عمرها . . في الخامسة عشرة لا أعرف . . والله لم تمت ولن تموت إلا معي ؟ هل هو الحنان ؟ أول حنان في حياتي ــ هل هو افتقاد الحنان والحب والصدق . . هل الشعور بالعطف عليها . . ما الذي جمع بيني وبينها ما الذي ربطنا هكذا ولماذا ؟ .

وعندما دخلت الفاتيكان وجدت أختي . . والله وجدتها . . بنفس فستانها . . لونها . . صوتها . . ذراعها الذي التف حولي . . وابتسامتها . . وسحبتني من أمام إحدى السيارات . . وقد أحسست دفء ذراعها . . وأنفاسها القريبة من عنقي . . من خدي . . هل هذه دموع في عينها . أما تزال تبكي .

قلت : أختي !

قالت : صلاح !

فقد كان هذا هو إسمي في ذلك الوقت .

قلت : نعم . . كيف أنت هنا ؟

لم ترد . . قلت : أرجوك عندي كلام كثير أريد أن أقوله وأن أسمعك . . قولي لي بسرعة كيف ؟

ولم أجدها . .

دعني أصف لك الهيئة التي كنت عليها . . الزحام شديد . . أحاول أن أجد لي مكاناً بين المشاة . . وبين السيارات . فالسيارات هنا لا تحترم المشاة ولا علامات الطريق . . واستوقفتني فرملة صارخة وزعيق وشتائم من داخل إحدى السيارات . فقد خطوت خطأ . . وقد أدى هذا الصراخ والفرامل إلى أن أحسست بالموت . . فانتقلت في لحظة إلى العالم الآخر حيث أختي . . وفي هذه اللحظة أحسست بها ووجدتها . . فكانت معي . . أو كنت معها . . لا أعرف ولا عندي تفسير لما حدث . . . ومهما قال الطب والعلم فمن المؤكد أنني رأيت وأحسست ولمست وأنا على يقين من ذلك . كيف ؟ فهذا ما لا أعرف ! ولكن من اليقين أنه حدث . . وأن جسمي ظل يرتجف أياماً .

وحاولت بعد ذلك أن أستعيد الذي حدث . ولم أستطع !

(٧)

وفجأة وجدت أمامي صديقي وأستاذي الأب قنواتي ــ شفاه اللّه ــ مشرق الوجه في غاية الصحة والعافية .

سألني : مالك !

قلت : أريد شراء موسي حلاقة جيلت الأبيض الجديد . .

قال : آه . . أنا أعرف مكاناً يبيع لك أرخص .

وظل الأب قنواتي يتحدث عن أخبار روما والكنيسة والفلسفة وجمعية «إخوان الصفاء وخلان الوفاء» التي يرأسها مع د . محمد محمود خضيري وآخرون . . وطال الطريق وإنحرفنا يميناً وشمالاً . . وطال الطريق والمدينة متعة . . ولكني متعب ومرهق . . دماغي يضج بكثير من المعاني وأريد تفسيراً لما حدث لأول مرة في حياتي . . والأب قنواتي يحكي ويشرح . . إنها صداقة طويلة منذ كنت أتردد على «الدير الدومنيكي» في شارع مصنع الطرابيش بالعباسية أدرس الفلسفة المسيحية .

وأخيراً وجدنا محلاً يديره الرهبان . . وكان سعر الموسى أرخص مليماً أو مليمين !

ــ مالك ؟

ــ والله تعبان .

ــ أذهب وأسترح .

ــ ولكن الذي يتعبني ينهض صاحياً إذا أنا حاولت أن أنام .

ــ مشكلة فلسفية ؟ دينية ؟

ــ كأنها دينية !

ــ خرافية ؟

ــ كأنها !

ــ عاجلة ؟

ــ ليست عاجلة . .

ـ إذن لا بد من مناقشتها في مصر ؟

ـ يجوز !

وكان طريقنا يمر بالميدان بالفاتكيان الذي رأيت فيه أختي . . فرجوته أن نذهب إلى أية ناحية أخرى .

قال : لماذا ؟

قلت : هذه هي المشكلة !

ـ . . . .

ـ . . . .

القدس : لأول مرة ؟

مناسبة تافهة هي التي جعلتني سنة ١٩٥٥ أزور القدس مدينة الأديان والسلام ــ أو الأديان التي تدعو كلها إلى السلام ، وإن لم يكن بين المؤمنين فيها أي سلام من أي نوع ــ فقد كان المطلوب من المصريين أن يذهبوا ويسقطوا أميل البستاني المليونير اللبناني الذي أسس «إتحاد الخريجين» . . وكنا أغلبية .

وأجريت الانتخابات وأدارها مذيع صوت العرب الشهير : أحمد سعيد . . وخطب أميل البستاني رجل الأعمال فكان فصيحاً يرتجل الشعر ويرويه . . وتحدث المصريون وكانت فضيحتنا بجلاجل ، فليس بينهم واحد يعرف الفرق بين اسم كان وخبر إن ــ اللهم إلا الشيخ الباقوري . . الدنيا برد . المدينة عالية . . السماء قريبة بسحابها الكثيف . الأرض مغسولة . وفي الهواء شيء غريب لا أعرف ما هو . . هل هي روائح غريبة . . أصوات عجيبة . . خطر في كل مكان . . ما هذا الخطر ؟ إنهم اليهود . . ولكن أين هم ؟ لا أعرف . أين حدود القدس العربية والقدس اليهودية . . لا أعرف . ولكن هناك إحساس

بخطر ما . . هناك من يقول إن هذا الشارع عند نهايته توجد أسلاك . ووراء الأسلاك قوات الأمم المتحدة . . ووراءهم اليهود . .

ما أشكالهم . . ما ألوانهم . . ماذا يعملون . . ماذا يقولون . . وأشار واحد إلى عربة إسعاف عليها الصليب الأحمر هي التي تنقل لهم الطعام . . لمن ؟ لليهود ! وأين هم ؟ قيل في مستشفى هاداسا وقيل في الجامعة العبرية . . لماذا ؟ لا أحد يجيب . . ولكن هناك خوف عام . . خوف ليس محدداً . .

وأظلمت الدنيا فجأة . . وأصبح كل شارع مخيفاً . . وكل خطوة غير محسوبة فوق لغم . . لماذا ؟ لا أعرف بوضوح . .

ولكن من المؤكد أن المسجد الأقصى بعيد عن الخطر . . وكذلك قبة الصخرة . . وطريق الآلام وحائط المبكي وكنيسة القيامة . . وفي كل مكان يوجد حجر وقف عنده نبي . . أو دفن تحته ولي أو قديس . .

واحتشدت كل حواسي . . واتجهت جميعاً إلى ناحية المسجد الأقصى . . كيف يكون . . ولم أكن قد رأيت مكة أو مسجد الرسول . . ولا المسجد الأموي . . ولكنه المسجد الأقصى الذي كان أولى القبلتين . . أما القبلة الثانية فهي المسجد الحرام . .

كان الطريق إليه غريباً . . الطرق كلها ضيقة . . والناس كثيرون يتزاحمون . . الوجوه عربية والملابس والأصوات متداخلة . . لا هي عربية ولا عبرية . . وهناك كلمات إنجليزية بين الكلمات العربية . .

والشوارع تزداد إختناقاً . . كـأننا نمشي في أحشـاء حيوان ضخم . . حيوان لا نعرف له رأساً من رجلين . . وفجأة قيل لنا : هذا هو حائط المبكى !!

حائط المبكى ؟! بقايا الهيكل . . بقايا المعبـد الذي بنـاه سليمان عليه السـلام وإنهدم وأقيم أكثر من مـرة . . الحـائط متآكل . . ومن بين أحجاره نبتت الأعشاب . . واليهود الذين يزورون الحائط قادمين من القدس الغربية يبكون هنا . . وقد تسـاندوا بـأيـديهم عليـه . . وبعضهم يهـتز قـربـاً وبعـداً من الحائط . . ثم يضعون بين أحجاره شكاوي إلى الله . . ومن بين هذه الشكاوي أن ينصرهم على العرب وأن يجعل الحائط في حوزتهم . . ولا يكاد اليهود يعودون إلى القدس الغربيـة حتى تمتد الأيدي العربية تقلب في هذه الأوراق وتحرقها . . الحائط ليست له أية مزايا . . إنه مجرد رمز . . فقد كان لليهود تاريخ هنا . . وكان هنا معبد وقصر سليـمان . . وقد هـدم الرومـان المعبد . . وجاء البابليون وهدموه مرة أخرى . . إنه رمز الرموز في التاريخ اليهودي . .

وأذكر أنني كتبت ورقة ووضعتها بين الصخور . وطلب مني الأستاذ الباقوري أن آتي له بورقة من هذه الأوراق . . فتكاسلت فمد يده وأخذ الورقة التي كتبتها . . وراح يضحك فقد كانت أبياتاً من الشعر لشاعرنا الصعلوك عبد الحميد الديب !

وقالوا : هيا بنا إلى المسجد الأقصى . .

وسرنا في طريق طويل ــ وعرفت فيما بعد أن الطريق لم يكن طويلاً . وإنما المسجد الأقصى يقـع على مسـافة مـائة مـتر من

الحائط . . وأتذكر أننا سرنا ودرنا ولففنا وصعدنا . . هل هذا ما حدث أو أنه شعوري بأن المسجد الأقصى فوق . . فـوق . . شيء عجيب لقـد أحسست أن المسجد ضيق . . وأن السقف منخفض . ولم يكن كـذلـك . . ولكنـه أحسـاس بـأن أحني رأسي . . وأن أجمع ملابسي وأن أزررهـا إحترامـاً وإكباراً . . والحقيقة أن للمسجد ٢١ باباً . . وأن السقف مرتفع . . ولكني امتلأت إحتراماً حتى أحسست أن الباب يضيق بي . . وأثقلني الهم والحزن على ما أصاب المدينة والشعب الفلسطيني ، فأنحني ظهري ورأسي وكل أفكاري . .

وتلفت ورائي وأمامي . . المسجد ككـل مسجد . . إنـه قديم . . والإضاءة ضعيفة . . وكان يـوم جمعة والخـطيب هو الشيخ الباقوري . . والناس كثيرون والخطيب فصيح . .

ووقفت أمام بائع الأحذية ولم أجد على قياسي إلا حذاء أغبر اللون . . وقال لي البائع :

ــ لقد كان لونها بنياً فجعلناه أسود . . ولن يـذهب عنها هذا اللون قبل سنـوات . . واشتريتهـا . ولبستها . . فقـابلني بائـع آخـر وقال لي : ضحك عليك طبعاً . . وقـال لك إن أجداده من أيام عمر بن الخطاب . . وأنا غلطان لأنني لم أقل لك إن أجدادي قد أنحدروا من صلب آدم عليه السـلام . . لقد باعها لك أغلى . . أنا مستعد أبيع لك هذه الجزمة مع تخفيض ٣٠٪ ما رأيك ؟ ٤٠٪ ما رأيك ؟!

وبـائع الحلوى وبـائع الفـاكهة وبـائع البخـور والصلبان

والمسابح والكتب المقدسة والصور الملونة . . إنها مظاهر يومية تعمل على مسح كل المعاني والذكريات التي في رأسك . . حتى فكرت في أن أضع القطن في أذني .

وفي اليوم التالي عدت إلى هذه الأماكن بعد أن وضعت القطن في أذني . . ولكن وجدت من يدفعني من ورائي لعلي أن أحترس من عربات اليد وعربات الكارو ومن حاملات القفف والسلال على رءوسهن .

* * *

وعلى جبل المكبر الذي وقف فوقه عمر بن الخطاب وكبر للّه وصلى جلسنا . . كنا أربعة من المصريين والسوريين واللبنانيين .

جلسنا في صمت تنتقل عيوننا بين أكبر الأماكن نفكر في كل الأديان . . هناك يبدو المسجد الأقصى وأمامه قبة الصخرة . . وبالقرب منها كنيسة القيامة ووراءنا البستان الذي تناول فيه المسيح عشاءه الأخير . . وهناك تبدو القدس الغربية : بيوت وأشجار . . وهناك يبدو المستشفى اليهودي . . وسيارات قوات الأمم المتحدة .

وبعض الناس الطيبين يقولون إنهم في الليالي الهادئة يرون عموداً أبيض يرتفع من الأرض إلى السماء . . يقولون إنها دعوات الناس وصلواتهم قد تحولت إلى أشعة تتجه إلى السماء . . تستأذن أن يتقبل اللّه دعاء فلان وصلاة فلان وتوبة فلان . . ويؤكدون أنهم يرونها بوضوح . . وأنهم يرون هذه

الشعاعات وهي تتساقط على المدينة فلا يبقى منها إلا القليل في طريقه إلى السماء .

وفي الليل تتجاور البيوت وتتباعد القلوب . . تتجاور المعابد ويتباعد المؤمنون . . أنها مدينة تدعو إلى السلام وليس فيها سلام . . فهنا جاء المسلمون وجاء الصليبيون . . وجاء اليهود . . وما تزال الحرب قائمة بين الجميع . . وما زال كل دين يدعو إلى زوال الدين الآخر . . وما زالت صلوات رجال الدين تطلب من اللّه أن ينصر ديناً واحداً يقضي على الأديان الأخرى . . وتتعالى المآذن وأجراس الكنائس وينفخ اليهود في النفير . . والباعة ينادون على التفاح والبرتقال ويركزون عيونهم على أقدام الناس .

يقول أبو العلاء المعري :

في القدس قامت ضجة
ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق
وذا بمئذنة يصيح
كل يؤكد دينه
بالبيت شعري ما الصحيح ؟!

إن القدس ليست مدينة فقط أنها حالة عقلية نفسية . . أنها حالة مرضية . . أنها تضم وحوشاً استقرت في المعابد . . أنها مدينة الأجسام المتلاصقة ، والقلوب النائية ، والعقول المتحفزة .

أما هذا الذي تحسه في قلبك وفوق قلبك فهو ليس الإيمان

وإنما الخوف عليه . . أنها ليست أعباء التاريخ ، وإنما هي المخاوف على السلام . . إن مدينة القدس تستولي على كل آمالك في السلام ، فهي لذلك مدينة السلام الذي دخل به الناس وتركوه عند أبوابها . . فيظل السلام كما وضعه الناس على الأرض تدوسه الأقدام ولا تعرف كيف تسترده . .

سألني جاري : ما رأيك في القدس ؟
قلت : اللّه . . آه . . آه . .
تقول اللّه . . أو أنك تقول آه ؟!
ـ الأثنين معاً !

وسرنا في شوارع . . وحواري ضيقة . . وكلما مضينا فيها إزدادت رائحة البخور والعطور وصلصلة الأجراس . . ونداءات الباعة . . ولا علاقة لما يفعله الناس بالتاريخ المقدس في كل مكان .

قال الراهب الصغير : فهمت منك أنك تعرف التاريخ المسيحي جيداً . .

قلت له : درست الفلسفة المسيحية وكنت أقوم بتدريسها في الجامعة . . وترددت على أهم الأديرة وخاصة الدير الدومنيكي في شارع مصنع الطرابيش في العباسية . . وكان لي أصدقاء وأساتذة مثل الأب بولانيجه والأب قنواتي وهو صديق عزيز . . ثم أنني كنت أحاضر في الأديان وأقارن بين أربعين ديناً . .

ـ إذن . . لست في حاجة إلى أن أقول لك كثيراً . . هذه هي كنيسة القيامة . . وأنت تعرف قيام المسيح . .

وعلى الحائط قرأت لافتة تقول : طريق الآلام . ياه . . أن هذه اللافتة لا تعرف أي أثر لها في النفس ؟! هذه اللافتة التي سقط عليها المطر والتراب وتغطت خجلاً . . ولم يخجل الإنسان . . في هذا الطريق الصاعد سار السيد المسيح عليه السلام يحمل صليبه . . الصليب من خشب الزيتون . . ويقال إن شجرة الزيتون التي صنع منها الصليب ما تزال موجودة . . والناس يرونها تبكي . . مرة تكون دموعها مثل دموعنا ومرة دموعها من دم . . لقد حكم الرومان على المسيح بالصلب لأن اليهود إدعوا أنه يقول إنه ملك اليهود . . ثم حمل المسيح (٣٢ سنة أو ٣٣ سنة) صليباً ثقيلاً من الخشب على كتفه . . حمل رسالته . . حمل مسئوليته . . وعلى هذه الرسالة سوف يدقون المسامير في كفيه وفي قدميه . . ثم يسخرون منه ويضعون على رأسه تاجاً من الشوك . . أليس يقول إنه ملك ؟!

فكان رمزاً رفيعاً للإيمان والدعوة والقدوة والتضحية من أجل الإيمان وفي سبيل الحق والعدل والرحمة . . فارتفع به الألم إلى السماء أو هو الذي ارتفع بالألم إلى السماء . . لقد كان أسوأ يوم في تاريخ الإنسانية . . وجلس الرومان يلعبون ويسكرون والرياح تعصف ورسول السماء يتعذب ويئن وينزف . .

وهنا ــ أشار الراهب ــ لقد كان العشاء الأخير . تعرف ذلك طبعاً ؟

فهنا التقى السيد المسيح عليه السلام بتلامذته لآخر مرة . . وقال لهم إن واحداً منهم سوف يخونه . . وكان واحد منهم قد اتفق مع الرومان، الذين لا يعرفون شكل السيد

المسيح ، أن يعانقه وأن يقبله . . فعرفوا المسيح بسبب قبلة الخيانة من تلميذه يهوذا الأسخريوطي ـ ودخلت القاموس الديني والأخلاقي : قبلة يهوذا . . ودخلت حكمة خالدة أيضاً : إن أقرب الناس إليك من الممكن أن يرفعك إلى المشنقة !

وهذا الوادي هنا ليس به إلا أشجار الزيتون . . ويقال إن الذي يقترب من هذه الأشجار يرى أنها تحاول أن تختفي عن عيون الناس خجلاً . . وأن جذورها تسحبها إلى جوف الأرض . . ويقال أن شجرة واحدة هي التي تعلو وتعلو تعلن إنها تستحق الفضيحة وتستحق الرجم وتستحق القطع . . انها الشجرة التي كان من أغصانها صليب المسيح .

ويقال إن عمر بن الخطاب عندما جاء إلى القدس ، رفض أن يصلي في كنيسة القيامة ، حتى لا يفعل المسلمون مثله . . وحتى لا تكون فتنة بين الناس . . ورفض أيضاً أن يصلي عند أشجار الزيتون حتى لا تكون فتنة . .

ثم أن القرآن الكريم يقول ﴿**وما صلبوه . .**﴾ . .

وهنا مقبرة مريم العذراء ومقبرة رابعة العدوية . . والشيخ ريحان وسليمان الفارسي . . وقبر راحيل وهنا مقام زكريا ويحيى وموسى ولعازر وصموئيل . . ومقام الإمام علي . . ومقام سيدنا الخضر . . وما لا نهاية له من اسماء انبياء بني إسرائيل وأولياء المسلمين والصحابة والقديسين . .

ولو انصف الناس لمشوا على جباههم في هذه المدينة التي

تفوح عطراً وسحراً . . وعلى كل طوبة جلس نبي . . وتحت كل شجرة نام شهيد . . وفي كل ركن وقف خطيب . . وفي هذه المدينة تتجه القلوب إلى السماء . . فأنت في كل مكان تضع يدك على قلبك تقول : رحمتك يا رب . . وترفع رأسك إلى السماء وتطلب من اللّه أن يتقبل .

ولكن هذه لحظات عابرة . . فالشوارع مكدسة بالبضائع ووراء البضائع أناس يدقون رأسك -تى لا تفكر إلا في البيع والشراء . . وإذا اقتربت تشتري دخلت في مفاصلة طويلة هكذا :

ـ من أين ؟

ـ من مصر . .

ـ آه بلد الإهرامات وأبي الهول وسيدنا الحسين . . أين نحن من هذا الجمال الذي في بلادكم .

ـ أين أنتم ؟ أنتم في مكانة أعظم وأرفع . . أنتم قلب الدنيا . . أنتم أصل البشرية . . أنتم مركز الكون .

ـ هل تعجبك هذه .

ـ جزمة ؟ لا أريد .

ـ إذن هذه .

ـ مسبحة ؟ لا أريد .

ـ طبعاً وهل يعجبك شيء هنا وعندكم خان الخليلي . . إن كل هذه البضائع من مصر !!

أو بائع آخر يقول لك :

ـ سيبك منه . . أنه مصري أراد أن يضحك على واحد

مصري مثله . . أنني من هنا . . أجدادي عاشوا وماتوا . . وعندنا شجرة لأجداد أجدادي حتى عمر بن الخطاب . . إنني لا أكذب ولن أسرق منك مليماً . . إننا والحمد اللّه أغنياء . . أنني أشغل وقتي . . كما يقول المثل المصري : الإيد البطالة نجسة . . ما رأيك . . تعجبك ؟

ـ هذه الجزمة ؟!

ـ ما سبب إصرارك على بيع هذه الجزمة ؟

ـ لأنك تضع شبشباً في قدميك .

وكنت قد نسيت ذلك . . فعندما ضاعت جزمتي ، لم أجد وقتاً لشراء جزمة . . ولم ألاحظ وأنا انتقل بين طرقات المدينة أنني أرتدي شبشباً . وتضايقت لذلك جداً . فسألت الرجل : إن كانت هذه الجزمة صناعة مصرية .

فقال : نعم . ولكن قد أدخلت عليها بعض التحسينات .

وكلمة : اللّه . . كأنها ؛ آه . . عالية شامخة جريحة . . فليس بيننا أحد إلا قال : يا اللّه . . ويجيء الحرفان الأخيران من كلمة التعظيم هكذا : آه . . آه . . آه . .

ففي الزحام لم أجد حذائي . . وسرت حافياً والأرض مبللة إلى قبة الصخرة . . هنا جاء سيدنا إبراهيم يذبح ابنه إسماعيل . . ولكن اللّه فداه بذبح عظيم . . وهنا جاء سيدنا محمد ﷺ وأوقف «البراق» وصعد به إلى السماء . . وهذا الحائط يسميه المسلمون حائط البراق . . واليهود يسمونه الحائط الغربي . . أو حائط المبكى . . وهنا يجيء كل صاحب هم وغم ويسند ظهره ويدعو اللّه فيجد الدموع تنهال من عينيه دون إرادة

منـه . . والدمـوع تغسـل الهم . . وتجلو العـين والقلب . . ويستجيب اللّه لدعائه بفضل وكرم منه . .

والمسجد الأقصى سمي كذلك لأنه يقع عند الطرف الأقصى لهذا المكان المقدس . . ويقال إنه في أقصى الأرض . . ويقال أقصى ما يبلغه المسلم في رحلته إلى اللّه . . هذا المسجـد بناه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان . . ويقال إن ابنه الخليفة الوليد هو الذي أكمله . . ومن الخطابات التي وجدناهـا لوالي مصر «قرة بن شريك» أن الذي بنى المسجد الأقصى هو الوليد وليس عبد الملك . . وأما قبة الصخرة فقد بناها أيضاً الوليد . . وهـذا المسجد الأقصى قـد بنى بـأمـوال الضرائب التي دفعهـا المصريـون . . وأعمدة المسجـد وأخشابـه نزعـوهـا من بعض الكنائس . .

والمسجد الأقصى قد هدمه زلزال سنة ٧٤٧ م . وأعاد بناءه الخليفة المنصور سنة ٧٥٩ م . وهدمه زلزال ثـان سنة ٧٧٤ م فأقامه الخليفة العباسي المهدي . . وزلزال ثالث سنة ١٠٣٣ م وأصلحـه الخليفة الفـاطمي الظاهـر لإعـزاز دين اللّه . . وفي العصور الوسطى قسموه نصفين واحداً جعلوه مسجداً والثاني كنيسـة . . ثم اعاده صـلاح الدين الأيـوبي إلى ما كـان عليـه مسجداً . . وجعل له محراباً من الفسيفساء . .

والمسجد الأقصى طوله ٨٠ متراً وعرضه ٥٥ متـراً . . وبه ٥٣ عمـوداً من الرخـام . . والمسلمون اطلقـوا عليه : ثـالـث الحرمين أي بعد المسجد الحرام ومسجد الرسول . . وأسمـوه أيضاً : مسجد الإسراء والمعراج .

وذهبت إلى فندق امباسدور حافي القدمين اتساند على الصحفي الكبير بلدياتي العزب موسى وصديقي العالم الفلكي الأردني قدري طوقان . . وقلت لهما : من المؤكد أنني سأصاب بالتهاب رئوي اليوم . . فحساسيتي للبرد خرافية . فما الحل ؟

وكان الحل أن نذهب إلى أحد مستشفيات الراهبات . . وجاءت راهبة وكانت جميلة . فقلت لقدري طوقان : إن هؤلاء الراهبات لا يردن شفاء الناس ولكن أن يزدادوا مرضاً . . فباللّه عليك كيف تشفيك هذه الجميلة دون أن توجع قلبك ؟

ــ وجع في قلبك وفي بطنك .

ــ يا أخي إنني لا أعاكسها . . وإنما أتحدث بنعمة اللّه . . فمن نعمة اللّه على المريض أن يهبه طبيبة جميلة !

ــ أيوه كده أتعدل !

ومع ذلك فلم ينفع الدواء فقد لزمت الفراش يومين في انتظار الزكام والانفلونزا ، ولكنها لم تأت . . لقد عذبني الخوف . !

وقابلت أحد الشبان الرهبان في الفندق قلت له : أريد أن أتفرج على بقية المدينة .

فسألني : وماذا رأيت ؟ قلت : القليل جداً . . ولم يتسع وقتي لكي أتأمل وأستعرض ما كان من تاريخ الإسلام ومن كفاح المسلمين وصراع الأديان في مدينة السلام . .

ونزلنا جبالاً ودخلنا في حدائق أو غابات لا أذكر الآن . .

ودوخني التاريخ . . .

جــدّة : لأول مــرّة !

أول مرة أرى فيها رجلاً سعودياً كان في مهرجان البندقية السينمائي . . وكان يجلس قريباً من الممثلة الايطالية جينا لولو برجيدا . . وكانت تداعبه بالإيطالية . . ونظرت إليه . . إنه على خلاف ما توقعت . فما الذي توقعت : لا بد أن يكون أسمر اللون طويلاً نحيفاً له أنف كبير . . ولا يتكلم أية لغة ، وإلى جواره يجلس واحد يترجم له . . ولا بد أن له سيارة كاديلاك تقف على الباب . ولكن المنظر الذي رأيته مختلف تماماً . وانشغلت بفاتنات السينما العالمية . ولكن لم أناقش نفسي : من أين أتيت بهذه الصورة لأي مواطن سعودي ؟ لم أناقش . . ولا كان عندي وقت . ولا كنت مستعداً لتصحيح هذه الصورة . .

والمرة الثانية : كنت في برلين في حديقة الحيوان . وجلست على أحد المقاعد ووجدت شاباً إلى جواري يقرأ صحيفة عربية . . وفي مواجهته فتاة صغيرة شقراء زرقاء العينين . . أنها بنت أخته . . ولم أعرف ما الذي يميز هذا الشاب الأسمر عن أي إيطالي أو إسباني أو يمني . . وهذه الفتاة عن أية ألمانية أو

بولندية . . ولم أصحح هذه الصورة للمواطن السعودي . . وأنشغلت . فلم تكن قضيتي : ما هي الصورة الصحيحة للمواطن السعودي !

وامتلأ دماغي بمفارقات الدنيا الواسعة . . ومشاكلها السياسية والفلسفية . . وكنت مشغولاً بمستقبلي وهمومي . .

وفجأة وجدت أنني مسافر إلى السعودية لإداء العمرة . . بالضبط ما هي العمرة ؟ وأين تذهب وماذا تفعل؟ . . لم أفكر في ذلك وإنما أحببت أن استمتع بوقع الأحداث الجديدة لأجد كلاماً ومعاني جديدة . . (لقد أديت العمرة بعد ذلك ثلاثين مرة وحججت البيت الحرام سبع مرات وصليت في داخل الكعبة ثماني عشرة مرة ولكني لم أكتب إلا كتاباً واحداً عنوانه : طلع البدر علينا ـــ بعد أداء أول عمرة . ولم أكتب حرفاً واحداً بعد ذلك . فكل المعاني الجديدة والمفاجئة التي أحسست بها بعد الصدمة الوجدانية الأولى هي التي سجلتها وصورتها وعايشتها عند تأليف هذا الكتاب . ولم أجد عندي بعد ذلك ما أقوله دينياً وفلسفياً ونفسياً ووجدانياً . . كأنني شجرة تحملت بالثمار التي نضجت . وكانت في حاجة إلى هزة واحدة ، لتسقط كل هذا الثمار . فلم يبق في الشجرة إلا أوراقها وأوكار بعض الطيور التي هربت . وفي كل مرة أنظر إلى شجرتي بعد كل عمرة أو حج أو أثناء ذلك ، أجد أن الأوراق ذبلت والثمار صغيرة جافة . . ولا شيء ينضج هذه الثمار ولا شيء يسقطها مهما هززتها . . إنها إحدى تلك الأشجار التي لا تثمر إلا مرة واحدة في العمر كله .

ولكن حاولت أن أحشر في دماغي بعض الصور التي سوف

تكون عليها مدينة جدة التي لم أرها . . وكذلك أهلها .

ولا أنسى يوم رأيت باريس لأول مـرة . كنت اتصور أن الناس في الشوارع في عناق دائم ، والأشجار والطيور . . كله في عناق غنائي موسيقي . . إنها باريس . .

ولما نزلت في محطة ليون بباريس ، نسيت أن أنظر إلى الناس من القطار مع أنهم من باريس وأهلها . . وإنما تصورت أن أهل باريس يقفون على الأرصفة فقط . . ووقف القـطار . وكانت دهشتي عـظيمة أن وجـدت النـاس قـد فـرغـوا من القبـلات والعناق . . وأنهم يقفون متباعدين . وفي حالة قـرف . . وفي مكان بعيد وجدت شابين يتعانقان . . ووقفت أتفرج . . لم أجد شيئاً غير عادي . . هذه باريس . . كأي بلد في الدنيا . . وإنما الصورة التي رسمتها في خيالي جاءت من قراءة الشعر الفرنسي ، وقصص الحب والغرام وصور الكباريهات . .

وعلى الأرصفة وجدت الكتب . . وتلاحقت اسماء أبطال التاريخ الفرنسي : نابليون وفولتير وروسو . . وسارتر أستاذنا في الفلسفة الوجودية . . ثم سارتر نفسه : قصير القامة قبيح الوجه أحول العينين . . فمه وانفه مدخنة . . وهذا الذباب الذي يلف حوله ليس إلا كلمات تطايرت من دماغه فـاتخذت لهـا أجنحة وحاولت أن تبعد عنه فلم تستطع !

ولما ذهبت إلى طوكيو لأول مرة ، لم أجد أهل اليابان كما تخيلت وأحببت . . فليسوا ضاحكين عمال على بطال . . ولا هم قصار القامة صفر الوجوه . . ففيهم بيض طوال القامـة ، ثم أنهم لا يضحكون بلا مناسبة . . ولكن الذي لم اتوقعه هو هذا

الأدب العظيم . . وهذا الانحناء طوال الوقت . مثلاً :

ـ صباح الخير (ينحني) .

ـ صباح النور (ينحني) .

ـ إلى أين ؟ (ينحني) .

ـ في ستين داهية (ينحني أكثر) .

ـ ولماذا ستين ؟ (ينحني) .

ـ إن خمسين لا تكفي (ينحني) .

ـ إذن لتكن ٥٩ داهية فنحن في سنة ١٩٥٩ (ينحني) .

ـ هذا رأيك ؟ (ينحني) .

ـ مجرد اقتراح (ينحني) .

ـ سوف آخذ برأيك ورأي زوجتي وسوف أذهب في ١٥٠ داهية (ينحني) .

ـ أشكرك ولا أتمنى لك السلامة (ينحني أكثر وأكثر) .

وقد ذهب الرجل الأول وبقي الثاني في حالة انحاء كأنه يريد أن يتأكد من أنه فعلاً ذهب ولن يعود !

وعندما ذهبت إلى مدينة هونولولو في جزر هاواي . . جاءت واحدة ووضعت عقداً من الزهور حول رقبتي سعيدة جداً وسألتني : مستر جورج !

قلت : لا . .

فسحبت طوق الورد فعدت أقول لها : ماذا قلت ؟

قلت : أنت مستر جورج ؟

قلت : نعم . . لقد ارتبكت أمام جمالك ونسيت اسمي !

فوضعت الورد وقبلتني قبلة مفاجئة . قالت : السيارة في انتظارك !

قلت : إذن لم يقولوا لك أنني أحب أن أمشي إلى الفندق وأحمل حقيبتي في يدي . . فضحكت وهي تقول : لقد اعتدنا على شذوذ أصحاب الملايين الأمريكان !

وكنت اتصور بنات هاواي عاريات حافيات يضربن الطبول وينفخن في الارغول ويحملن السائح على الاكتاف الناعمة ويلقينه في أحواض الشمبانيا . . حتى أفقت من هذا الحلم الجميل عندما وجدت واحداً يعطس ويمسح أنفه في حذاء من القماش !

ويوم رأيت مدينة سيدني في استراليا لأول مرة . . كنت اتخيل الاستراليين طوالاً بيضاً حمراً إذا وقفت إلى جوارهم فأنني أصل إلى حزام كل واحد منهم بصعوبة . . وأنهم إذا ركبوا الطائرة جلسوا على الأرض حتى لا ترتطم رءوسهم بسقف الطائرة أو تخرج منه . . وفي مطار سيدني . . لم أجد إلا إناساً مثل الانجليز أو أقرب إلى الأمريكان سألت واحداً منهم : سيادتك انجليزي طبعاً !

فقال : ولماذا طبعاً ؟ أنا استرالي ابن استرالي ! لماذا ؟

ــ كنت اتصور انكم طوال جداً .

ــ هذه هي المعلومات الخاطئة التي عند الجهلاء الأجانب . . فهم يتصورون أن لنا ذيولاً مثل حيوان الكانجرو . . وأننا لا نفيق من الشراب . . وأننا شخصيات

مـريضة لأن أجـداد أجدادنـا كانـوا من المساجـين والمجرمـين الانجليز . . إنني كما تراني عاقل ومحترم . . وليس لي ذيل . .

ثم تركني غاضباً . . فعرفت أنهم لا يحبون الدعابة وأنهم معقدون . وأنني لمست جرحاً غائراً . . مع أنني كنت أحـاول فقط أن أفتح حواراً معه . . كلام يعني !

ويوم ذهبت إلى نيويورك . . بلد ناطحات السحاب . . لم أكن أعرف أن هذه العمارات قد ارتفعت إلى السماء بسبب ضيق الأرض . فبدلاً من بناء عشر عمارات متجاورة ، فهم يضعونها الواحدة فـوق الأخرى لأن الأرض ضيقـة . . ولأن نيويـورك جـزيرة سكـانها من الوحـوش الـذين يشربـون دمـاء البشريـة ويتحول الدم في أيـديهم إلى ذهب يعبدونـه من دون اللّه . . والأفلام الامريكية تصور نصف مواطنيها من المجرمين ــ السود خصوصاً . .

وهي مدينة تشعر أنها باردة من أول لحظة . . وسبب هذه البرودة هو انك تحس من أول لحظة أنك وحدك . . وأن أحداً لا يدري بك ولا يهمه أمرك . . حيـاً أو ميتاً . . الجـدران رخام والأرض والوجوه والقلوب . . وحاولت أن أبدو طويلاً عريضاً بسبب شعوري بضآلتي وتفاهتي . . فأخرجت جيوبي وشددتها بعيـداً عن البنـطلون دليـلاً عـلى أنــه ليس معي شيء يجعـل اللصوص يدورون حولي ويرفعون السلاح صارخين : هات ما معك فوراً ولا ترفع صوتك ولا تحاول أن تستنجد بأحد . .

وزودتها شوية فارتديت الجاكتة بالمقلوب للدلالة على أنـه

ليست عندي جيوب ولا عندي فلوس . . ووقفت اتلفت حولي وأستحضر الصورة التي رسمها الكاتب الأمريكي يوجين أونيل في مسرحية «القرد كثيف الشعر» . . وتذكرت البحارة في هذه المسرحية يدقون جدران نيويورك الرخامية الباردة الجامدة التي تشبه وجوه الناس ــ بلا معنى ولا مشاعر ولا قلب ولا عقل !

وأنا على هذه الحالة الضائعة ــ أو حالة الضياع هذه وقف أمامي شاب يبدو أنه مهاجر إيطالي عربجي أو بلطجي ومد يده في جيبه وأعطاني دولاراً !

فمن قال إن الأمريكان لا قلب لهم !

* * *

وفي مطار جدة لم أحاول أن أملأ عيني من الناس في المطار . . إنهم بالجلاليب البيضاء والعقال الأحمر أو الأسود . . ولا تستطيع أن تفرق بين الغني والفقير . . بين المسافرين وموظفي الجمارك . . الوجوه ليست سمراء كلها ولا سمراء صفراء . . فهناك وجوه بيضاء . . والنساء لسن جميعاً محجبات . . هناك من تكشف وجهها . . وهناك من لا تضع شيئاً . . الحكاية إذن ؟ أنها ليست صورة سعودية . . وإنما خليط من السعوديين والأجانب العرب والخواجات . . من أهل البلد والعاملين فيه . .

إذن فلا بد أن تكون الصورة السعودية في الشارع . . فالعربات كلها سريعة . . والشوارع مرصوفة . . ناعمة ــ وليست نظيفة تماماً . . وفي الشارع إناس بالجلاليب والبدل

أيضاً . . والمحلات ملآنة بالبضائع . . كل شيء موجود . . إذن فأين هو السعودي . . وأين هي السعودية الملامح . . الناس . . العادات . . أليست هذه المدينة هي المدخل إلى الأرض المقدسة . . إذن فالصورة التي عندي هي التي ليست صحيحة . . فالسعوديون ليسوا وحدهم سكان هذه البلاد . . وهم لا يفرضون عاداتهم وتقاليدهم على كل الناس بالقوة . . فالأجانب أحرار يلبسون ما يعجبهم : رجالاً ونساء .

أول شيء أدهشني في مدينة حدة : بعض اللافتات . من بين هذه اللافتات واحدة تقول : فقيه للدواجن . .

وكل الذي خطر على بالي : أنه طبيب للدواجن أي متخصص في تربية الدواجن ، أو بيعها أو انتاجها أو علاجها !

فهل الدواجن كثيرة في هذه البلاد لدرجة أن يكون لها فقيه ؟ وما عيب كلمة دكتور . . أو أخصائي . .

ثم ما هو بالضبط الذي يمكن أن يفعله هذا الفقيه ؟ . .
ولماذا لافتات هذا الفقيه كثيرة وفي كل مكان ؟ . . ثم لماذا لم يكتب اسمه ؟ . .

الحقيقة لم أفهم !

فهل معنى فقيه للدواجن ، أن التقاليد الدينية مفروضة على الديك والفرخة فلا يقرب الديك الفرخة إلا بموافقة الفقيه ــ عقد زواج يعني ؟ معقول ؟! حتى الفراخه في السعودية يجب أن تكون عشرتها حلالاً كالمسلمين تماماً ؟ معقول ؟! وكان في استطاعتي أن أسأل أي أحد ، ولكني لم أحاول . وقررت أن

أعرف بنفسي . . فنزلت إلى الشوارع . . واللافتات عن فقيه الدواجن في كل مكان . . وأخيراً وجدت دكاناً به أقفاص الدجاج ـ واللافتة تقول : فقيه للدواجن . . وقررت أن أرى بعيني . . فلم ألاحظ أن أحداً دخل يحمل قفصاً للدواجن لكي يكشف عليها الطبيب . . ولا كانت الدواجن في الأقفاص مريضة . . إنها في صحة وعافية . .

فلماذا لا يوجد فقيه للأبقار والجواميس والخراف ـ وفي البلاد ملايين الخراف التي يستوردونها ولا يحبون سواها طعاماً في السعودية وفي مصر أيضاً . هل الخراف في صحة جيدة ، والدواجن هي المريضة ؟ شيء مش مفهوم !

ولما تعبت سألت . فكانت الحقيقة الطريفة أنها أسرة اسمها أسرة «فقيه» تبيع الدواجن في طول البلاد وعرضها . وبعد ذلك عرفت منهم اصدقاء أدباء وأطباء . . ووجدتهم لا يأكلون الدواجن !

وقالوا لي تعال لنزور قبر أمنا حواء !

أمنا حواء ماتت ودفنت في جدة ؟ وهم في السعودية يعرفون قبرها ؟ يا سلام ، وهل أحد يعرف متى عاشت ومتى ماتت واين نزلت ؟

المؤرخ الإسلامي الطبري يقول لنا : إن اللّه خلق آدم يوم جمعة وأنزله من الجنة يوم جمعة وتوفاه يوم جمعة . . وكان آدم عليه السلام نائماً ـ وفجأة وجد من تجلس فوق رأسه سألها : من أنت ؟

قالت : امرأة ؟

ــ ولماذا خلقك اللّه ؟

ــ لأكون زوجة لك . .

ويقال إنه كان نائماً ولما صحا وجدها فوق دماغه فقال : أثا ــ وهي كلمة باللغة النبطية معناها : امرأة . .

والملائكة سألوا آدم : وماذا اسميتها ؟

قال : حواء ؟

قال : لأنها خرجت من كائن حي !

وكل المدة التي امضاها آدم في الجنة هي خمس ساعات . وقالوا إن الساعة تساوي ٣٥ سنة بحسابنا اليوم . .

ولما نزل آدم من الجنة ، وقفت رجلاه على جبل في جزيرة سيلان . أنا رأيت هذا الجبل . والجبل له قمة اسمها قمة آدم . . أما موطىء قدم آدم فبحيرة كبيرة . . وآدم كان طويلاً وكان رأسه يحتك بالسماء أما قدمه ففي حجم البحيرة أو القرية . . أما تساع خطواته فصحراء شاسعة . . أما أمنا حواء فقد نزلت في مدينة جدة . . وتعرف عليها أبونا آدم عند جبل عرفات . . ومات أبونا آدم عن ٩٦٠ عاماً ودفن فوق الجبل في جزيرة سيري لانكا . . وبعده بسنة ماتت امنا حواء . . ودفنت في نفس المكان . . ولكنهم في السعودية يرون أنها دفنت عندهم ــ واللّه أعلم !

ولما قالوا لي : تعالى تفرج على قبر أمنا حواء ، لم أذهب . .

ولا واحدة من بناتها فكرت في زيارتها أو قراءة الفاتحة على روحها الطاهرة . . فقد انشغلن عنها . . أو انهن غاضبات عليها . .

فالحياة قاسية . . فكان أفضل لبنات حواء ألا يولدن . . وهذا احتجاج على آدم وحواء . . أو أنهن مثلي لا يصدقن أن تهبط حواء في جدة وأن تموت فيها دون أن توصي أولادها بأن تدفن مع زوجها في قمة جبال بوذا في سيرلانكا . . فكانت أمنا حواء مثل أختنا حواء . . وأنها ترى أن الزواج ممل . . وأن أية علاقة مهما طالت فانها تبعث على الضيق . . وأنها اكتفت بان تعيش معه وتموت بعيداً عنه . . لعل حظها في الآخرة أن يكون أفضل من الدنيا ــ وهذا رأي بنات بناتها منذ ذلك اليوم !

مدينة جدة ــ في ذلك الوقت من سنة ١٩٦٩ ــ لم تكن لها شخصية واضحة . وإذا كان الواحد يشم هواء سحرياً فإنه قادم من ناحية مكة التي لن أرها إلا بعد أيام . . وإذا كان القلب يطلع وينزل فليس لشيء في جدة ، ولكن لما سوف يكون في مكة . . فجدة هي العتبة إلى مكة . . أو هي الحجر الصحي الذي يتأهل فيه الإنسان نفسياً ووجدانياً قبل أن يذهب إلى مكة . . وبعد أيام من جدة لم أعد أراها . . وإنما انظر وانتظر ما وراءها . . واسمع واستمع إلى ما بعدها . . وأتخيل واختال بالمجاهدات القلبية عند نهاية هذا الشارع المرصوف الناعم الممتد إلى مكة . .

وأحسست قبل ذهابي إلى مكة أنني لم أعد أطيق البقاء في جدة . . فليس فيها شيء يبهرك أو يدلك على أنها مدينة مختلفة عن أية مدينة أخرى في أية دولة على الخليج . . إنها حارة . . رطبة . . في شوارعها رائحة الدجاج ورائحة السمن والدهن واللحم والأرز والبهارات كأنك في إحدى المدن

الهندية ـــ طبعاً هي انظف وأقل عدداً . . والوجوه أصح وأكثر مرحاً . .

لقد غامت جدة وغابت . . فهي مدينة «الترانزيت» إلى مدينة المدن وأم القرى . . ومركز الدنيا الإسلامية . . وملتقى كل الوجوه والجباه والقلوب . . وأحسست أن كل البيوت في جدة أحجار تعترض الطريق . . وأن كل الطرق طويلة . . وأن المدينة زحام من الغبار تسد العين والأذن وتجثم على القلب . . وانهم جعلوا جدة في الطريق إلى مكة ، ليزداد الإنسان شوقاً وحنيناً . . وتتجمع كل همومه وأحقاده وأحزانه في عينيه ، وبسرعة تتحول دموعاً عندما يجد الدنيا كلها قديمها وحديثها تحولت إلى شيء واحد : الكعبة !

مكة : لأول مرة!

لا أعرف كيف تم كل شيء بسرعة . . وفي حالة أقرب إلى التنويم المغناطيسي . . خرجت من هدومي ودخلت في بشكير وبشكير وشبشب . . المعنى : أن أتساوى مع الآخرين عارياً أمام اللّه . . كأي واحد . . أو ككل الناس . . مع أننا أمام اللّه كائنات صغيرة عاجزة لا حول لنا ولا قوة . .

ولكن المطلوب هو أن نبدو أمام أنفسنا . . لا فرق بين الغني والفقير . . الأبيض والأسود . . الخادم والسيد . . وأن نبدو خائفين من البرد ومن الحر . . وألا نعرف كيف نتحرك وسط هذه الملابس التي لم نعتد عليها . . وأن نطيع الأوامر . . لا مناقشة : البس !. نلبس . . أخلع ! نخلع . . أحشر نفسك بين الناس وتقبل منهم أن يدوسوك وأن يضربوك . . وأن تضع رأسك مكان قدميك وألا تقول : أف لكل ما تشم وتسمع وتتلقاه من «ضربات» من امامك ومن خلفك . . فلا أحد يقصد أن يسيء إليك وأنت تطوف حول الكعبة ، وأنت تسعى بين الصفا والمروة ، وأن تخوض مياه زمزم . . الإسلام معناه

الاستسلام لطاعة اللّه . . والسلام مع الناس من أجل السلام مع النفس . .

وكأن كلمة «لبيك» التي قالها أبونا إبراهيم عليه السلام وهو يطوف حول البيت : واحدة من كرات الدم البيضاء والحمراء . . وكأنها دقة من دقات القلب . . فمن غير تفكير وجدتني أقول : لبيك اللهم لبيك . . لبيك لا شريك لك لبيك . . وكل من حولي يفعلون ذلك . هل رأيْت الطريق بين جدة ومكة ؟ . لا أظن أنني رأيت شيئاً بوضوح . . فقد انسحبت كل حواسي وتحولت إلى خيال في رأسي . . فأنا أرى شيئاً ليس موجوداً حولي . . لا الشارع ولا الأشجار ولا الناس . . كل ذلك تحول إلى ظلال . . إلى خلفية . . أما التي في مقدمة الصورة . . والصورة كلها فهي : مكة . . أو هي الكعبة . . أنني لم أرها قبل ذلك . . فقط صورتها . . فهي كل الصورة . . ومن الحين والحين أطل من نافذة السيارة أرى أشياء صغيرة جداً : البيوت . . والناس . . كل شيء أصبح ضئيلاً . . إنه في الواقع ليس كذلك . . ولكني أراه كذلك . . كأنني لا أريد أن أراه . . أو كأن الذي أراه هو ذاكرتي . . هو عقلي . . أبيض في أبيض حتى تحتله الصورة . . صورة الصور . . ومركز الكون : الكعبة . .

هل الشوارع كلها تنحدر إلى قاع مدينة مكة ؟ هل هو قلبي الذي نزل في رجلي ؟ هل الشوارع كلها تهبط لكي تنحني الرءوس وهي في طريقها إلى الكعبة . . فكل الشوارع هابطة لتكون الرءوس أيضاً . . وتظل الرءوس تهبط حتى تركع

وتسجد . . وقبل الرءوس القلوب والعقول ــ (أن الفرنسيين سرقوا هذه الفكرة عندما جعلوا قبر نابليون تحت والناس ينظرون اليه من بلكونة حتى تنحني رءوسهم عند النظر إليه) .

ولا أظن أنني عندما رأيت الكعبة كانت الصورة واضحة . . فأنا أمسح عيني . . ولكن على العين عشاوة . . أو على العقل . . أو على الحواس . . هل هي كبيرة . . صغيرة . . طويلة . . عريضة ؟ هل الذين حولها يطوفون إناس أقزام . . أو هم رءوس بلا أجساد ؟ ليست الصورة واضحة أمامي . . أنني أخوض إلى الكعبة بحراً متلاطماً من الأمواج أو من الدخان . . أو من طوفان المشاعر : فأنا غريق لا أطلب النجاة . . أمسح عيني . . وأمسح منظاري . . ولكن الصورة مضيئة باهرة . . أحاول أن أرى ألواناً أخرى . . أن أتحقق من الذي أراه ومن الذي ألمسه . .

شيء واحد لم يتغير ولم يتبدل ولم يتوقف : لبيك اللهم لبيك . .

كيف كان الطواف ؟ كم مرة ؟ أن طفلاً أضع يدي على كتفه أردد وراءه الدعاء . . ولم أفكر أن كان هذا الدعاء ضرورياً . . أو كان سنة . . أو معنى الذي أقول . . إنني اسلمت نفسي لقوة أكبر . . فلا قدرة لي على الذي أقول والذي أفعل والذي أشعر . . لقد اصبحت ذرة . . هباء . . صدى . . شبحاً . . ما هذا الذي حدث ؟ لا أعرف ! كيف جرى ما جرى ؟

أكذب لو قلت أنني أعرف . . أو أنني استطعت أن أحتوي مشاعري وأن أعبئها في كلمات . . وأن أرتبها في معنى . . وأن أعقلها في نظرية . . أبداً . . لا شيء من ذلك . . ولا جدوى . . وتوقفت عن هذه المحاولة . وتركت نفسي وعقلي وجسمي لقوة مركزية هائلة تجعلنا ندور حول الكعبة دون أن نفلت من جاذبيتها . .

وهذا الحجر الأسود . . يقال إن آدم عليه السلام قد نزل به من الجنة . ويقال أنه كان أبيض . .

ويقال إن جبريل قد أتى به وأعطاه لسيدنا إبراهيم ليكمل بناء الكعبة . .

أما السعي بين الصفا والمروة . . فقد كانت أمنا هاجر تبحث لأبنها إسماعيل عن الماء . فذهبت يميناً وشمالاً سبع مرات . . حتى تعثرت قدمه بالماء . . فكان ماء زمزم . . وكانت الصفا والمروة خارج المسجد . . ولكنها الآن في داخله . . الأرض رخام والسقف . . ومكيفة الهواء . . وهناك طابق ثان للسعي ، بعدما ضاقت الأرض بملايين الحجاج . .

كان ذلك في رمضان . . نزلت إلى بئر وزمزم وشربت وشربت وارتويت . . وعندما خرجت من المسجد ضربت يدي على صدري . . لقد نسيت أنني صائم . . ولكن لا يهم ما دمت قد نسيت . . وعند الأذان ذهبت إلى أحد محلات البقالة أشتري شراباً بارداً . . ولكن عصا نزلت على ظهري : أذهب للصلاة ! إنه واحد من الذين يسمونهم «المطوعين» الذين يدعون الناس

إلى الصلاة . . والذين يغلقون المحلات عند الصلاة ، فلا بيع وشراء في مكة وكل المملكة السعودية! ولكن هذا المطوع لا يصلي حاضراً ــ أنه في مهمة ، وعذره معه !

ووجدت الناس في المسجد قد وضعوا التمر في الأطباق وفي ورق . . ويقدمون لك التمر والماء قبل أن تصلي . . وبعد ذلك تفطر على مهلك . ولكن الصلاة أولاً . . وأنت لا تنظر إلى البلح إن كان مغسولاً أو كانت الأيدي أو الأطباق . . أنت تأكل سعيداً فالإسلام قد جعل القادر على أن يأكل الديك الرومي كالذي لا يقدر إلا على البلح : جائعين يأكلون من يد واحدة ومن طبق واحد ودون تفكير . .

أما الفندق فيطل على الكعبة . . أن الفندق لم يكتمل بعد فغرفة خالية من الأثاث وعلى كل واحد أن يشتري له مرتبة . . وأن ينام الناس معاً . . خمسة أو ستة على أرض واحدة . . الرجال في ناحية والنساء في ناحية . . وحتى الآن لا أعرف كيف حدث لي ما حدث في تلك الليلة . رأيت رجلاً كبيراً يتساند على السلم لكي يجد له مكاناً بيننا . . الرجل وحده مع الشيخوخة وحدها . . لا ابن ولا أخ ولا زوجة . . جاء إلى اللّٰه . ونعم باللّٰه . وكفى باللّٰه . فقلت له : أعطيك مكاني يا حاج !

ووافق الرجل فوراً . ولم أجد لي مكاناً . ولكن خادم الفندق الذي ليس به كرسي واحد أشار إلى البانيو . وفرشت بطانية في البانيو . وبطانية أخرى فوقي . ونمت . . وطول الليل أفكر : ماذا يحدث لو أنفتح الدش من تلقاء نفسه وأغرقني . . ماذا لو أصابني الزكام . . لقد ابتلعت عدة أقراص من

الأسبرين . . وخفت أن يؤدي الأسبرين إلى العرق . . والعرق يؤدي إلى الإصابة بالبرد . . ولكن الذي لم أحسب له حساباً . . أن البانيو جزء من دورة المياه . . وبين الحين والآخر أسمع من يقول : لا مؤاخذة يا حاج . . لا مؤاخذة ــ والباقي أجارك اللّه ! معلهش . . كله بثوابه !

واحد قال : هل تريد أن ترى أين ولد الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

ــ أتمنى . .

ــ ولكن سوف تتضايق . .

ــ أتضايق حين أرى هذا المكان ؟!

ــ لأنهم هنا في السعودية لا يقدسون المكان . . القداسة للّه فقط . . فالبيت الذي ولد فيه الرسول أصبح دكاناً . .

ــ أعوذ باللّه ! معقول ؟!

ــ بالنسبة للسعوديين معقول جداً . فلا عندهم أضرحة . . ولا عندهم مقابر . . فالإنسان إذا مات أعادوه للأرض وأهالوا عليه التراب . . ولا يظهر من القبر شيء على وجه الأرض . . الملك مثل أصغر خدامي الملك . . هذه هي السنة . . وهذا ما يسمونه اللحد . . وسوف ترى في المدينة مقابر الصحابة والمهاجرين والتابعين . . لا أثر لها على وجه الأرض . .

ــ واللّه هذا أعظم وأروع ، أنظر إلى حالنا في مصر . . نحن ندور وندوخ حول أضرحة الأولياء ونلقي بالخطابات إلى

اللّه ، تصور الجهل والوثنية الوافدة إلينا من الفرعونية . . انهم هنا أفضل وأكثر إحتراماً لدينهم ولأنفسهم . . هل ترى ماذا يحدث في مسجد سيدنا الحسين ؟ . مع أنه من المؤكد تاريخياً أن سيدنا الحسين لم يأت إلى مصر . . لا جسمه ولا رأسه . . لا وجود له في المسجد الذي يحمل اسمه . . ومع ذلك ترى الناس يكاد يكلمونه ويوسطونه بينهم وبين اللّه ! .

ـ سوف ترى عجباً من المصريين في المدينة .

ـ ماذا ؟

ـ سوف ترى . . وسوف يخجلك الذي تراه .

ـ المصريون فقط ؟.

ـ كل المسلمين وخاصة الوافدين من أفريقيا ومن آسيا .

ـ آه لو مات أحد الخلفاء الراشدين في مصر . . أو جاء الرسول ﷺ إلى مصر . . كما جاء يعقوب ويوسف والمسيح . . آه لو عرفنا المكان الذي سار فيه الرسول . . أو أين جلس أو أين نام . . آه . . لتحول الناس عن الكعبة . . آه لو مات عمر بن الخطاب أو أبو بكر في مصر . . آه لو دفن فيها . . ولكن من فضل اللّه على الإسلام والمسلمين وتكريماً للكعبة ، أنه لم يشأ ذلك .

سألني : إلى أين ؟

ـ عندي فكرة .

ـ ما هي ؟

ـ سر شغلني فلم أنم ليلة أمس .

ـ . . . .

ذهبت مرفوع الرأس . . كأن قلبي قد أنتقل إلى دماغي . . وكأن كل حواسي قد تصاعدت واستقـرت في عيني . . أرى وأسمع وأشم . . هذا هو الجبل الذي كان يصعده الرسول عليه السلام قبل أن يصبح رسولاً . . فوق . . غار حراء . . وكان يأوي إليه عليه الصلاة والسلام في الأيام ذات العدد : الأثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . . وكان يصلي ويتعبد ويتهجد . . إستعداداً للرسالة العظمى . . فوق كان يتهيأ . . كان يعاد ترتيب جهاز الاستقبال عنده لكي يكون قادراً على تلقي الوحي . . فوق كان يتحول من إنسان عادي إلى شخص غير عادي . . شخص قادر على أن يكون واسطة بين اللّه والناس . . وكان الذي يحمل إليه رسالة السماء جبريل عليه السلام .

أما الجبل فصاعد . . واقف على حيله . . وأما الطريق فكله من الأحجار المدببة . . وكنت اتزحلق . . ففي قدمي شبشب . . ونسيت الحذاء . . وكنت اتساند على الصخور . . ولا بد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان قوياً فتياً . . والغار نفسه يطل على مكة . . والطريق إلى الغار ضيق . . يحتاج إلى براعة لدخوله والخروج منه . . وأما الأشجار فصغيرة . . لا بد أنها من بذور الأشجار التي رأت الرسول داخلاً وخارجاً . . خفيف الخطوة ثقيل الهموم .

واتجهت خفيفاً كأنني نسيم بلا جسم إلى مدخل الغار . ووجدته مسدوداً . لقد سده السعوديون حتى لا يتزاحم الناس فيه . . وحتى لا يتساقطوا موتى . . وحتى لا ينصرفوا عن

الكعبة . . فهناك مسلمون بسطاء علقوا شكاواهم ومطالبهم في الأشجار التي على الجبل . . وبعضهم عقد عقدة من القماش أو من الخيوط أملًا في أن تنحل بشفاعة رسول اللّٰه . . تماماً كالذين يلقون بالخطابات في ضريح السيدة زينب وسيدنا الحسين !

* * *

وعلى أحـد المقاهي جلست أتفرج على الناس . . وأحاول أن أرى ما لم أر . . وأن أسمع ما لم أسمع قبل ذلك . . فالناس جميعاً لهم إتجاه واحد . . إلى الكعبة . . حفاة . . عراة . . بيض . . سود . . صفر . . سمر . . ولم اتنبه إلى أن أكواب الشاي قذرة والمنضدة والمقعد والمكان إلا بعد أن نهضت . . ولكن هذه الملحوظة سقطت من ذاكرتي فوراً . . فهذه ملحوظة تدل على أنني لم أبرح مصر . . وأنني أفكر تماماً كما كنت قبل أداء العمرة . . وقبل هذا الحدث الجليل . . أن كل شيء يهون ويتضاءل أمام هذه البركة . . وهذه النعمة . . وهذا الفضل العظيم من اللّٰه . .

وجاء من يمد يده يطلب طعاماً . . أنهم فقراء إلى الناس . . وكلنا فقراء إلى اللّٰه . . ومن يمد يده يأخذ كوب الماء . . ومن يأخذ بقايا الشاي . . أو حبات الفاكهة . . بلا أذن وبلا شكر . . ولا داعي للأذن . . فكلنا أخوة . . ولا داعي للشكر . . فالشكر للّٰه ــ آمنت بـاللّٰه .

ووجدت رجلًا يضرب ابنه . لا أعرف لماذا ؟ طبيعي أنه أب وهذا ابنه . . ودور الأب في تربية ابنه مهمة مستمرة هنا أو في أي مكان آخر . . ولما حاولت أم الطفل أن تتدخل كاد الزوج

يصفعها . . أنهم بشر . . وليس من السهل تغييرهم في أيام أو في عمرة واحدة . .

هنا ولد الإسلام . . وهنا احتشد الكفرة وتكاثروا على الرسول حتى هاجر من بلده إلى المدينة . . وكانت بداية التاريخ الهجري . . . وهاجر المسلمون إلى اليمن والحبشة . . ونزلت كل قواعد ومبادىء الإسلام في المدينة . . وانتصر الإسلام . . وعاد الرسول فاتحاً لمكة . وقال : لا هجرة للمسلمين بعد الفتح !

لقد قوي الإسلام. واستقر. وفي مكة كان المسلمون لا يجاهرون
بدينهم خوفاً . ولكن بعد الفتح جاهروا ودعوا له وانتشروا في الأرض واتسعت حدود الإسلام في كل اتجاه .

سألت سائق السيارة : طبعاً أنت تصلي الأوقات الخمسة في الكعبة ؟

ـ لا والله !.

ـ وعمرة كل اسبوع ؟

ـ لا والله !.

ـ والحج كل سنة ؟. .

ـ لا والله . أكل العيش !

يعني أنه مشغول بعمله وحياته عن العمرة والحج . فليس عنده وقت . ممكن؟ نعم !

وفي الليل قررت أن أرى الكعبة بوضوح وأن أعرف أبعادها . . وأن أتبين معالم المسجد الحرام . . فقد كان من

الصعب وأنا أطوف وأسعى أن أعرف هذه المعالم . . ولذلك جلست على أحد المقاهي في مواجهة المسجد الحرام . في مواجهة الكعبة . . أرى وأرسم صورة لكل ذلك أحملها معي في كل وقت وكل مكان . . فإذا عدت إليها عرفت ماذا جرى لي . . وماذا أقول . . وكيف أعبر عن الذي ملأني . وكما أن الفم لا ينطق إذا امتلأ ، فكذلك العين والأذن . . لقد أردت أن أنتشل نفسي من طوفان النور وزلزال التجربة . . وأن أهدأ على مقعدي . . حاولت . . ولكن ليس من الصعب أن أقول : إنها حجارة مثل كل الحجارة . . وكسوة الكعبة قماش مثل أي قماش . . والمفروض علينا أن نطيع وأن نطوف وأن نفتح قلوبنا للّه . . دون أن ننطق بكلمة . . فالكعبة رمز . . والطواف رمز . . والاتجاه إلى الحجر الأسود رمز . . والسعي رمز . . والسعي رمز . . وشرب ماء زمزم رمز . . أما الأضواء فلا هي باهرة ولا هي خافتة . . إنها فقط رمز يضاف إلى بقية الرموز ليتكون منها جميعاً هذا البهاء . . هذا الرواء . . هذه البركة . . تجتاحك . . وتغسلك . . وتعصرك وتنشرك . . فتتساقط عنك همومك . . كما يتساقط الورق الذابل من الأشجار . . وكما يتساقط ريش الطيور وجلود الأفاعي . . لكي تعود خفيفاً نظيفاً . . فقد تقبل اللّه دعاءك وتوبتك وأطال عمرك وأعادك كما ولدتك أمك . إنها ليست عمرة . . إنها معجزة الميلاد من جديد . . فلا عقاقير من أي نوع تستطيع أن تعيد إليك هذه الراحة . . ولا نشوة من أي شراب ، ولا عشق لأي أحد ، ولا سعادة بأي كسب ، ولا بهجة بأي نصر . . لا شيء من ذلك كله يساوي هذا الإحساس الغريب الذي يتولاك ويرعاك

ويحتضنك كأنه ريش نعام . . ويلتف حولك . . ثم يصبح أجنحة تطير بك . . فأنت تمشي على الأرض كأنك لا تمشي ، وتطير في السماء كأنك في مكانك . . ترى كيف كان رسول اللّٰه يمشي ويأكل ويقول والناس حوله ؟. ترى كيف كان يهبط عليه الوحي والناس من حوله يرون وينتظرون ثم يسمعون ؟. يا ترى كيف كان حجم عظمتهم وهم يسمعون رسالة اللّٰه إليهم . . كأنهم رسل إلى الدنيا كلها ؟. فلم يكن الواحد منهم رجلاً ، وإنما كان ألف رجل ، إن اللّٰه قد أختاره دون ألوف الملايين ليرى العجب ويسمع الإعجاز ويدعو مستجاباً . . ويتوكل . . والجنة مثواه !

وأي عذاب وأية عظمة وأي زلزال يهز الجبال والوديان والأشجار والصور والنجوم عندما راح الكفار يدقون قدمى الرسول بالحجارة فينزف منها الدم ولكنه يقول : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حياتي وهواني على الناس . . يا أرحم الراحمين ؟! . .

كيف احتمل المؤمنون . . القدوة العظمى . . من أجل الرسالة ؟ كيف كان وجه الرسول وهو يتألم وهو لم يفقد الأمل وهو على يقين من أن ربه لن يتركه والمسلمون ؟ أكذب لو قلت لك إنني رأيت بوضوح وسمعت . . وإنني استطعت أن أعبىء مشاعري في كلمات. .كيف أعبىء نور الشمس في زجاجة . . وكيف أحبس الهواء في منديل . . وليست الزجاجات والمناديل إلا أوعية المعاني . . فما أعظم المعنى وأتفه الوعاء ــ واللّٰه أعلم وأعظم !

المدينة: لأول مرة!

بعد أن قطعت السيارة مائة كيلو متر من الطريق إلى المدينة لاحظت أننا لا نقول شيئاً له معنى : كأننا لا نريد أن نتكلم مباشرة في معنى الطريق والمعارك الإسلامية على جانبيه . . ولا عن الذي فعلته قريش مع الرسول عليه الصلاة والسلام . . فقريش غليظة عنيفة . ويقال إنها سميت قريشاً لأنها مثل سمك القرش تأكل أي شيء . . ويقال سميت قريشاً بهذا الإسم من التقرش أي الكسب والتجارة ـ كسب أي شيء من أي أحد . قال شاعر قديم :

وقريش هي التي تسكن البحر
بها سميت قريش قريشاً
تأكل الغث والسمين ولا
تترك لذي الجناحين ريشاً

كأننا في حالة هرب من أن نتحدث في موضوع محدد . . وإنما نريد أن نبقى في حالة إنتظار لما سوف يفيض علينا بعد قليل . . ولو سألت نفسي عن الذي أعرفه عن المدينة المنورة لوجدت معلومات متناثرة . . وصوراً غامضة . . والطريق أمامنا

طويل عريض مرصوف وليس رصفاً جيداً . . وليس هذا هو طريق الرسول إلى المدينة . . وإنما طريق الرسول كان ضيقاً جبلياً صاعداً نازلاً . . رأيته عند مدينة الطائف . . ونحن عندما كنا نقرأ أنه هاجر إلى المدينة ، لم نكن نعرف أن هذه الجملة القصيرة هي مئات الكيلو مترات ، وهي الأيام والليالي والتعب والمشقة .

ولم أشأ أن أسأل السائق . . فمن الواضح أنه اعتاد على الطريق . وكلمات : بدر وأحد والخندق ليست إلا محطات في الطريق . . والسائق أقل انشغالاً بكل الذي نقول . . وحتى عندما نزلنا نتوضأ من ماء السيل ، لم يفعل . لا توضأ ولا صلى ولا وجد ذلك ضرورياً . . وعلى حافتي الطريق كانت خيام . . لا بد أنها في هذا الموقع من أيام الرسول . . ولا بد أن الذين يعيشون فيها من أحفاد الذين ناصروه والذين حاربوه . . اقتربنا أكثر . . الأطفال الصغار في صحة وعافية وملامحهم عربية . . والرجال يرتدون البنطولنات الجينز . . وحولهم علب الكولا والسجائر وتعلقت من رقابهم الراديوهات الصغيرة . . كأنهم خرجوا من كتاب السيرة ، أما أدوات حياتهم فهي أمريكية يابانية كالسيارة المكيفة التي نركبها . .

قالوا إن الرسول ﷺ بعدما خرج من مكة أظلمت الدنيا ، وعندما دخل المدينة أضاءت الدنيا ، وكما كانت مكة حرم إبراهيم . فالمدينة حرم محمد . وكانت أحب المدن إليه . وفي كتب السيرة أن للمدينة مائة اسم : دار الأبرار . . وقرية الأنصار . . وقبة الإسلام . . والمباركة . . والمجبورة

والمحبورة ـ أي المسرورة . . والشافية . . وفي الحديث : أن اللّه أمرني أن أسمي المدينة طابة .

فاسمها الطيبة أي من الطيب والطيبة أو التي نزل بها ومات فيها الطيب . . وسميت العاصمةِ التي عصمت المهاجرين من الكفار . . وسميت القاصمة التي قصمت ظهر كل جبار عنيد . . وسميت العراء ـ أي العذراء التي لم يعتد عليها أحد . . وسميت الغراء . . وسميت المرحومة لأنها دار المبعوث رحمة للعالمين . . وفي حديث قدسي قال اللّه : يا طيبة . . يا طابة . . يا مسكينة . . الخ .

والرسول عليه السلام قد دعا للمدينة أن يبارك اللّه فيها وفي أهلها . . وقال أيضاً : من أراد أهل المدينة بسوء أذابه اللّه في النار كذوب الرصاص أو الملح في الماء .

وكل المدن قد فتحت بالسيف إلا المدينة فقد فتحت بالقرآن . .

وفي القرآن الكريم : وقل ربي أدخلني مدخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق ـ فهو خرج من مكة وهي صدق ، ودخل المدينة وهي صدق .

وقد تحدث الرسول عن تراب المدينة وهوائها وتمرها وأهلها . وقد حرم الرسول فيهـا القتل والقتال. وحرم فيها قطع الأشجار وقال : من قطع شجرة فليزرع نخلة . .

سألت السائق : هل تعرف من أين دخل الرسول المدينة . . وهل ما يزال الناس يعرفون أين مدخل المدينة . .

وأين كانت بنات النجار وهن ينشدن له :

طلع البدر علينا .
من ثنيات الوداع . .
فهز السائق رأسه بأنه يعرف . .

وأشار إلى شارع ضيق تعالت فيه أصوات السيارات الت تتزاحم وتتضارب مما أفسد علينا أي أمل في التفكير أو التأمل استحضار أية صورة من صور الماضي العظيم . . وكانت أصوات الموتورات وأجهزة التنبيه مثل كرابيج تلسع المعاني الت تحوم حول رءوسنا . . فلم أعد قادراً على أن أرى أو أسمع أتخيل . . كل ذلك تبدد وطار . . سألت السائق : إن كان ا الإمكان أن أترك السيارة وأكمل الطريق على قدمي . فلم يرد فقد وجد الفكرة سخيفة . وحاولت أن أشرح له . ولكنه كا مشغولاً بالزحام أمامه ووراءه . وقال : المسافة بعيدة بيننا وبي قبر الرسول !

* * *

لا أعرف كم مضى من الوقت حتى وصلت إلى الفندق . وبسرعة نزلت إلى الشارع . . الناس كثيرون من كل البلاد . هل الوجوه طيبة سمحة أو أنني أراها كذلك . . أو أحب أ أراها كذلك . .

من الهند وأندونيسيا ومن إيران ، ومن تركيا وم أفريقيا . . والمصريون بوجوههم التي أعرفها وأصواته العالية . . ووجدت مقهى وجلست . تشرب إيه . . قلت

ماء من زمزم . . فضحك الجرسون : تشرب ماذا ؟ قلت : قلت لك . . فأجاب ضاحكاً : إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد جعلنا نحب المدينة ولو أمرنا أن نسف ترابها لفعلنا . . فقد وصف تراب هذه المدينة لعلاج الأمراض الجلدية . .

هل المدينة نورها شديد . . ما الذي يضيء فيها أكثر من مكة . . ما الذي جعل هواءها خفيفاً نسيماً . . ما الذي ملأها عطراً . . ما هذه الوضاءة في كل الوجوه . . ما هذا السناء . . سبحان اللّه . . كيف رضيت نفوسنا عن الدنيا حولنا فأصبح كل شيء هو مفردات من النور . . الناس نور يمشي ، والفاكهة ثريات من النور أشكالاً وألواناً . . والعيون بقع مضيئة . . يا سبحان اللّه ما هذا الأذان . . إنه الصوت والصوت . . فكل صوت له صدى إلا في المدينة فكل صوت له صوت . . ثلاثة أصوات . . أربعة . . خمسة . . كما أنه لا ظلال . . وإنما نور فقط . . فكذلك لا أصداء . . أصوات فقط . . من أين تجيء ؟. ما رأيك أنني لم أجد أحداً قد ترك مكانه وذهب للصلاة . . ولا أحد أغلق دكانه وذهب للصلاة . . واندهشت جداً لذلك . . فسألت الجرسون : لا أحد يصلي هنا ؟!

ــ لماذا والعياذ باللّه . .

ــ أليس هذا أذان العصر ؟.

ــ العصر ؟. ليس قبل نصف ساعة . .

ــ ألم تسمع الأذان ؟

ــ لا . . ليس بعد !

تصور أنه لم يكن هناك أذان . . وإنما أنا تخيلت ذلك . . كأنه خرج من أعماقي إلى أذني . . إلى الدنيا حولي . . سبحان اللَّه كيف ذلك . . ووجدت على الترابيزة طبقاً من التمر . . فالجرسون عندما وجدني لا أعرف ما الذي أشربه أتى بهذا الطعام الذي أحبه الرسول ﷺ ودعا إلى التمر وإلى العجوة . . وأكلت وأكلت . . فأضفت حلاوة التمر إلى حلاوة كل شيء . .

سألت جاري : من أي البلاد ؟

قال : من الفلبين .

ــ أنا زرت بلادكم .

ــ أين ؟

ــ مندناو . . ورأيت المسلمين هناك .

ــ لا أريد أن أعود . . لقد بعت كل ما عندي وأقمت في المدينة إلى جوار الرسول منذ عشر سنوات . .

ــ وعملك ؟

ــ لا أعمل . . ولا أريد . . فقد عملت كثيراً وكسبت كثيراً . . وتركت لأولادي كل ما كسبت . . وجئت أموت هنا . .

ــ وماذا تعمل ؟

ــ في حضرة الرسول وإلى جواره ومن أجله ، أنت لست في حاجة إلى عمل . . أما الطعام فموجود . . ولا أعرف كيف أجد طعامي وملابسي . . وكيف أنني لم أعد أفكر في أولادي وبلدي . . إنني هنا في إجازة من كل شيء . . وجئت وكنت

أشكو من سبعة أمراض . . وأنت تراني أبدو أصغر منك . . كم عمري في رأيك ؟

ــ خمسون ؟ .

ــ لا واللَّه . . ثمانون غداً !

ــ أنت لم تذهب إلى مسجد الرسول ؟

ــ تمنيت طول عمري أن أكون هنا . ولكن يا أخي غير قادر نفسياً . . أنني أحتاج إلى بعض الوقت لكي أتأهل نفسياً . . لكي أستعد وجدانياً . . ألست ترى أن الإنسان لكي يقابل صاحباً فإنه يقابله بملابس البيت . . وإذا أراد أن يقابل وزيراً في مكتبه ، فلا بد أن يرتدي بدلة . . وإذا كان في لقاء ملك فلا بد من أن يرتدي ملابسه كاملة ، وأن يستعد لهذا اللقاء ولما سوف يقول . . ولا بد من طريق طويل قبل أن يصل إليه . . فما بالك إذا كان اللقاء مع أعظم مخلوقات اللَّه . . ذلك العظيم الرائع الذي هو تاج على رأس البشرية . . صاحب الدعوة . . وصاحب الهجرة وشفيعنا يوم القيامة . . إن النبي ﷺ كان يذهب إلى غار حراء لكي يتم إعداده وإستعداده لهبوط الوحي . . للقاء جبريل . . فكيف نحن . . إنني ما أزال أتهيب الطريق إلى مسجد الرسول . . والمسجد . . والروضة الشريفة . . والأرض العامرة التي دفن فيها وإلى جواره أبو بكر وعمر . . والحجرات التي عاشت فيها أمهات المؤمنين . . صعب على النفس أن تتلقى كل هذه الفيوضات دفعة واحدة ! وأنت ماذا فعلت ؟

ــ أنا لم أفكر في كل هذه المعاني . . ولو فكرت مثلك ما

ذهبت . . أنا فعلت ما نفعله نحن مع أطفالنا إذا أردناهم أن يتعلموا السباحة . . إننا نلقي بهم في الماء ونترك لغريزة حب البقاء أن تعلمهم كيف يكافحون من أجل البقاء . . أنا ألقيت نفسي في خضم البركات والضياء . . وكان أول يوم صعباً . . لا أعرف كيف أصور لك . . لقد غرقت في خضم من الماء ، ولم يكن ماء . . القيت بنفسي في قرص الشمس ، ولم يكن حارقاً ، قفزت من أعلى الشجرة وهبطت إلى الأرض سالماً . . أو أنني لم أهبط حتى الآن . . ولا أعرف حتى اليوم ، كيف كانت النار برداً وسلاماً ، وكيف كان الهبوط ناعماً ، أو كيف نبت الريش في ذراعي فلم أسقط ، فلا أزال فراشاً يحوم حول نور النور وبركة البركة وسيد الخلق . . إنني ، كما قلت لك أستاذ الفلسفة بجامعة جاكرتا . . ولكن ما الفلسفة ؟ هي دروع كملابس العصور الوسطى . . فما حاجتي إلى كل ذلك وأنا لم آت محارباً الرسول وإنما مستسلماً . . خلعت دروعي وملابسي وظنوني وفلسفتي . . فأنا لست عارياً وإنما كأنني . . ولست جثة هامدة ، وإنما كأنني . . ولست منهاراً . . وإنما كأنني . . فهذه هي النشوة الغامرة التي تجعلك ذرة من العطر أو من الضوء أو من العدم . . أذهب وقف عند بابه ولا تسأل شيئاً . فقد منحك اللّه كل شيء . . إنهض . . فأنا أيضاً أريد أن أفقد وجودي في وجوده ، وأن أذوب في محيطه ، وأن أتلاشى في حضرته . . تعال نستدرج أنفسنا إلى الموت الأبدي الذي هو حياتنا في سر هذا الوجود !

* * *

وفي الليل التقينا في جانب بعيد من مسجد الرسول . رأيته وجلست إلى جواره . هل قال شيئاً ؟ لم يقل . هل قلت ؟ ولا أنا . .

قلت : كنت أتصور أنني رجل متماسك العقل قوي المنطق . . لا أكاد أفكر في شيء حتى أتحول إلى عنكبوت أفرز خيوطاً من المنهج والمنطق والتنظير والأرقام . . وتتحول الخيوط إلى شوارع لها علامات بيضاء . . لها أرقام . ولها علامات أحمر وأصفر وأخضر . . وأنا عسكري مرور بصفارة ، وفي يدي دفتر صغير لتسجيل المخالفات . . ولكن لم أعرف أن في داخلي طفلاً متمرداً . . أو رجلاً ضعيفاً . . أو أنني أكتشفت أن الذي في داخلي هو الحقيقي . . حقيقي . . أما الذي يراه الناس وأراه فليس إلا ممثلاً بارعاً . . أعتاد على أن يقوم بدور عسكري المرور وضابط المباحث ورجل المخابرات وعالم النفس والطبيب . . فكل شيء لا بد من صبطه وربطه وتسجيله في ورقة ، وكل ورقة روشته نفسية وجسمية وعقلية . . فكل مكان أدخله هو معمل . . وكل شيء أكتبه هو محضر أو تقرير أو تحليل . . ولكن هنا انهدم المعمل . . وأزيلت علامات المرور ودفتر رجل المرور وروشتة الطبيب وأجهزة رجل المباحث والمخابرات ، والكرسي الطويل الذي يجلس عليه المريض يعترف . . لا شيء من ذلك . . وإنما خرج مني واحد آخر لا أعرفه . . هذا الواحد هو الذي أمامك . . إنني لا أعرفه . . لا أعرفني . . إنني أحتاج إلى وقت لكي أعرف هذا الوجه الآخر . . هذا الكائن النوراني الذي أنا لست إلا ظلاً له . . شبحاً له . . مزوراً لصوته . . ومزيفاً لحقيقته . . وأنت ؟

ـ أنا غيرت أسمي وغيرت اسم البلد الذي جئت منه . . وأقول الآن إنني لم أتزوج . . ولم أدخل مدرسة . . ولا تعلمت . . ولا تألمت . . ولا تقلبت بين النظريات ولا تألبت عليها . . ولو جاء سقراط حافياً في المدينة ، ما اقتربت منه . . وأنا الذي أضعت من عمري عشرين عاماً أتمسح في تراب سقراط وأجمع أشتات نصائحه ومعاركه من كل كتب التاريخ . . إنني أعرف عشر لغات . . ولكني لا أتكلم إلا العربية ، ولن أتكلم غيرها . . هل أنا في حالة حرب مع نفسي ؟. أبداً . . أنا وجدت نفسي فأحببتها . . ووجدتها في حضرة الرسول فأزددت حباً لنفسي ولحضرة الرسول . . وأنت ما الذي يضطرك إلى أن تعود إلى بلدك . . ماذا لك . . ماذا يهم ؟ من هو الإنسان الذي أنت ضروري له ؟. لا أحد . . صدقني . . أنت ضروري لنفسك فقط . . كل الدنيا كذب في كذب . . ونحن إن لم نكن من ملوك الكذب ، فنحن من أمرائه . . وإن لم نكن من أمرائه ، فنحن حاشية الكذب . . ما الذي تخسره لو بقيت هنا ؟. فقط تخسر الأبيض والأحمر والماكياج الضروري للدور الكاذب والمفكر كاذب . . وكذلك زوجتك وابنك وأخوك . .

وكما ينجح الممثل بقدر براعته في الكذب ، فكل الناس ممثلون . . فلا يوجد صدق . . وإنما كله كذب . . ولا يوجد إلا ممثل رديء وممثل جيد . . المطرب الذي يغني ويتقطع وهو يغني ويبكي من حنجرته ، إنه لا يبكي ولا يحزن . . إنه لا يختلف كثيراً عن الندابة . . إنها براعة في إبكاء الناس ، والندابة تبكي . . ما الذي تعرفه الندابة الفرعونية عن الفقيد الغالي ؟ لا

شيء . . ولكنها قادرة على تذويب أولاده وزوجاته حزناً عليه . . ثم ما حاجة أهله إلى من يبكيهم عليه ؟ . إنهم أيضاً في حاجة إلى ندابة كذابة تجعلهم يبكون ويبالغون في البكاء عليه . . كذب في كذب في كذب . . صدقني إنني أدعوك إلى نفسك . . إنني أريدك أن تنفرد بأعز الناس عليك في هذه المدينة المباركة : أن تنفرد بنفسك !

ثم نهض فسألته : إلى أين ؟ فقال : أخشى أن أتحول إلى ناصح لك . . والنصح هو بداية الكذب !

سألت الجرسون : أين ذهب الرجل الذي كان يجلس هنا . . وهل هو يتردد عليك كثيراً ؟

ـ رجل كان يجلس هنا ؟! لم يكن أحد . . وإنما أنا الذي جلست إلى جوارك واستمعت إليك ، ولا أعرف ما كل هذا الذي تقوله . . يبدو أنك متعب تماماً .

ـ فعلاً أنا تعبان جداً .
ـ هل تشرب ؟ .
ـ شكراً .
ـ هل تأكل ؟ .
ـ شكراً .
ـ هل تذهب للصلاة ؟
ـ نعم .
ـ ولكني نبهتك كثيراً إلى أن موعد الصلاة قد حان . . ولكنك كنت غائباً . . أو في غيبوبة . . هل أنت مريض ؟ .

ـ كأنني .

ـ هل أدلك على طبيب ؟.

ـ أنا طبيب .

ـ باب النجار مخلع .

ـ لـولا أنني لا بـاب ولا نجـار ولا مخلع . . ولا حتى طبيب . . .

ـ . . . . (هذه فتافيت الكوب التي سقطت من يده) .

* * *

شيء واحد أنا على يقين منه . . هو أنني في كل مرة أقترب من مسجد الرسول . . وأخلع حذائي وأتركه عند الباب . . أحس أنني خلعت جبـالاً ثقيلة . . شيئاً أثقل من الحذاء . . شيئاً في دماغي . . على أكتافي . . في دمي . ولكنها جميعاً تتخذ شكل الحذاء . . احتقاراً لها . . أو أنها يجب أن تكون في القدم لا في الرأس ولا في القلب . . أو أنها يجب أن تكون فعلاً فوق الأرض . لا أضع دماغي فيه وقلبي وعلاقاتي وحياتي . . شيء واحد أنا على يقين منه ، هو أنني أصبحت أخف وزناً . . وهي حـالـة تشبـه المـوت . . فـالمـوت هـو أن يخـرج الإنسـان من مـلابسه . . من جلده . . من حـذائه . . من قـوالبه . . من كثافته . . وكل ما في دنيانا كذب . . الموت فقط هو الحق . . وهذه الحالة كأنها الموت . . كيف يموت الإنسـان في كل مـرة يدخل المسجد ، كيف يسترد حياته عندما يخرج منه . . كيفـ هو

ميت وليس ميتاً ؟ كيف هو شعاع وليس كذلك . . كيف هو يمشي فوق الأرض ولا يبرح الأرض ؟!

بصراحة لا أعرف . . ولم أعرف . . وقد حاولت أن أرى عن بعد ، وأن أشم من بعد . . وأن أحسب . . وأن أزن وأن أقيس . . وأن أقوم بتنظير كل هذه المعاني . . وأن أحتويها في أوعية لفظية أو منطقية . . حاولت . . ولكن لم أستطع . . إن الذي أشعر به وقد ملأني من الصعب أن أختصره . . من الصعب أن أحتضنه . . أن أحدده . . وهذا هو الفرق بين طبيعة التراب والنور . . بين كل البشر وهذا الإنسان الفريد في كل صفاته . . لقد حاول كثيرون ونجحوا . . ولكني حاولت ولا أزال وأملي أن أنجح وفي مرات قادمة فليساعدني اللّه . . لعلني . .

غلطتي .. ولكني ضحكت في النهاية !

ليست عندي شكوى من رجال الجمارك . . فهم يؤدون واجبهم .

وهم يواجهون كل أنواع الخطر : الإرهاب والمخدرات والمرض واللصوص . وليس بينهم وبين أحد من الناس : لا حقد ولا رغبة في الإنتقام . . وهم لا ينظرون إلى الناس ولكن إلى أمتعة الناس . . المسموح والممنوع . . ثم أن عليهم ضغوطاً لا تنتهي لا ليلاً ولا نهاراً . وهم يواجهون نوعاً واحداً من الناس : المرهقون المستعجلون . . فالناس قد اتعبتهم الرحلات الطويلة ، ويريدون أن يعودوا إلى بيوتهم . . ولذلك فلا صبر عندهم على أي شيء !

والناس يجيئون ويروحون . . ورجال الجمارك واقفون صابرون يسمعون الشكوى والصراخ والشتائم . . وكأنهم لا رآوا ولا سمعوا . .

أن صرخات الناس في الجمارك مثل صرخات الناس في

المستشفيات . . الأطباء اعتادوا على منظر الدم والألم . . وكذلك رجال الجمارك .

ولأنني سافرت كثيراً فعندي حكايات كثيرة :

(١)

كنت قد سافرت إلى الهند سنة ١٩٥٩ في بداية رحلتي حول العالم التي استغرقت ٢٢٨ يوماً ونشرتها في كتاب لي بعنوان «حول العالم في ٢٠٠ يوم» وكنت قد كتبت عن الهند ، وقد ضقت بالحرارة والروائح الكريهة والخوف من الأمراض . فكتبت ونشرت صحف «أخبار اليوم» كل الذي كتبت . واحتجت الحكومة الهندية وهاجمتني الصحف بعنف . . وقرأت بعض هذا الهجوم وأنا في أقصى جنوب الهند . . وتخيلت لو أن كل هندي أمسك حجراً وعددهم ٢٥٠ مليوناً في ذلك الوقت والقاه ناحيتي لكان فوق دماغي كوم في حجم هرم خوفو . . فقررت الهرب من الهند إلى جزيرة سيلان . .

وأسعدني أن أحداً لم ينتبه إلى وجودي . . وذهبت إلى المطار . . وكانت معي حقيبة واحدة طول هذه الرحلة . وسألني رجل الجمارك : ماذا تعمل . فأجبت مداعباً : أنني أعمل راقصاً في إحدى الفرق المسرحية !

فأشار الرجل أن أقف جانباً . . وأن أفسح مجالاً للطابور ورائي . فعدت أقول له : إنني صحفي . . مكتوب أمامك في جواز السفر ! .

ولكنه لم يلتفت ولم يسمع . فعدت أعترض الواقفين وأقول له : أمامك مكتوب أنني صحفي . . أقرأ !

قال رجل الجمارك : لا تضيع وقتي !.

ثم جاء رجل آخر وطلب مني أن أدخل أحدى الغرف . . وأن أخلع ملابسي . . كلها . . والجزمة والجورب . . ثم راح يمزق حقيبتي . . فعلاً أتى بسكين ومزق الجلد والبطانة . . ولم أفهم .

ولم أجد أحداً يوضح لي معنى ذلك . .

وتهجمت على رجال الجمارك وأنا أقول : أنت سوف تكون سبباً في أزمة دبلوماسية بين مصر والهند . . أريد أن أعرف فورا ! .

وعرفت . . لقد سبقتني فرقة رقص لبنانية متجهة إلى كولمبو عاصمة سيلان (سيرلانكا) . وكلهم مطربون وراقصات . . وفتشوهم فوجدوا معهم كميات من الذهب والمخدرات . . ومن العجيب أن واحداً كان يعمل طبالاً في هذه الفرقة وصحفياً في نفس الوقت . . هذا الصحفي هو الذي وجدوا المخدرات في ملابسه ! .

وتعلمت درساً في الآدب . . فهم في الهند لا يضحكون ولا يفهمون النكتة . والشعب الهندي هو الشعب الوحيد الذي لا يضحك في كل آسيا . . تماماً كالشعب الجزائري إذا قورن بالشعب المغربي ، وأهل السويس إذ قورنوا بأهل الإسماعيلية ! .

(٢)

أصر أتحاد الأداب السوفييت على دعوتنا يوم رأس السنة . . وكنت رئيساً لوفد الأدباء . وقالوا لنا : سوف يكون في انتظاركم رئيس اتحاد الأدباء . . وسوف يكون الأحتفال حاراً وسط هذا الجليد . .

فقد كانت الدعوة يوم رأس السنة . . يوم أبيض ، إذا نظرت إلى الشوارع ، وأسود إذا نظرت إلى غرف الفندق ، وملتهب إذا دخلت أحد المطاعم . . ولم نجد أحداً في المطار . .

لقد كان الأدباء الروس خارج موسكو . . يسهرون ويسكرون . ولم نجد إلا حلاً واحداً هو أن نبيت في فندق المطار ، وأن نتصل بالسفارة المصرية لعل أحداً ينقذنا مما نحن فيه . .

وأخيراً جاءنا بعد ثلاثة أيام أحد الأدباء يعتذر عن الذي حدث ،، ثم ظهر أدباء وشعراء آخرون . . وهم جميعاً في غاية اللطف والرقة . .

وحان يوم العودة . وكل المصريين يبعثون معنا بالهدايا إلى أقاربهم وأصدقائهم في مصر . . هذه زجاجة شمبانيا للأستاذ كمال الملاخ . . وهذه اللعب لأولاد فلان . . وهذه الكتب لأحسان عبد القدوس وهذا الكافيار ليوسف السباعي . . وهذه الإسطوانات لعبد الحليم الحافظ . . وهذا الفراء لفاتن حمامة . . هات . . هات . . ولا يهمك . . هات . . وامتلاءت

الشنط . . واشترينا مزيداً من الشنط . واشتريت طاقماً للشاي من الصيني الحقير ولكنه رخيص جداً . .

ولم أفكر لحظة واحدة في وزن كل هذه الحقائب . فلا يهم الوزن . ما دام سكرتير عام اتحاد الأدباء سوف يرافقنا إلى المطار . !

وفي المطار وقفنا في الجمارك . . وكان وزن الحقائب كبيراً . ووقفت بعيداً . لأن بقية الإجراءات معروفة . . سوف يحذفون الوزن الزائد ، كما نفعل تماماً في مطار القاهرة مع ضيوفنا السوفيت . . فالشاعر الروسي يفتشنكو عندما غادر مصر كانت معه ٢١ شنطة . . لم يقترب منها أحد . . ولا وزنها ولا فتحها . . انه أمير الشعراء الروس ثم انه دلوعة الاتحاد السوفيتي الذي بنى السد العالي . .

وفجأة جاء من يناديني من رجال الجمارك ويقول لي : عندك وزن زائد . .

فقلت : وايه يعني ؟ .

قال : لا بد أن تدفع ما يعادل ١٤٠ جنيهاً استرلينياً ! .

فنظرت إلى رئيس اتحاد الأدباء . . وكأنني نظرت إلى تمثال أبي الهول . . لم ينطق الرجل بكلمة . . فهززت الرجل لعله يقول شيئاً . فعلاً قال : انه القانون يا سيدي !

قلت : ونحن عندنا قانون أيضاً . . وتجاوزنا القانون من أجل سواد عيونكم ! .

وكان رده : أما نحن فلا نستطيع أن نتجاوز القانون ! .

ووضعت يدي في جيبي فوجدت سبعين جنيهاً فقط . . ما العمل ؟. ما الحل ؟ . . نظرت إلى المصريين الذين جاءوا لتوديعنا . . والذين راحوا يشتمون الروس بالروسية وبالعربية . . وتظاهر الروس بانهم لا يسمعون . . جنية من هذا واثنان من ذلك . . ومحاولة لرهن ساعتي في المطار . . المهم جمعت المبلغ . وكان في استطاعتي ــ وفاتني ذلك ــ أن القي بكل هذه الهدايا في المطار . . وبالكتب التي أصر الروس على أن نحملها معنا . . ولكن نسيت . . انها الدهشة «والجليطة» الروسية هي التي جعلتني لم أفكر في ترك كل ما معي على أرض المطار ، ابتداء بالكتب وانتهاء بالدب الذي يزن واحد وعشرين كيلو حراماً !

ومن غيظي صعدت إلى الطائرة دون أن أصافح المودعين الروس . . وأسندت ظهري إلى المقعد وقلت بيني وبين نفسي : واللّه نحن مغفلون . . ولا بد من تفتيش الروس تفتيشاً ذاتياً في مطار القاهرة !

وفجأة ظهر رئيس اتحاد الأدباء السوفييت لتوديعي فقلت له مردوده لك !

فقال : لم أفهم !.

قلت : عندما تجيء إلى القاهرة إن شاء اللّه سوف تفهم ! .

(٣)

من عادات المصريين السخيفة جداً أن تفاجأ بواحد في المطار لا تعرفه . . ولكنه يفتعل أي كلام واية مناسبة ليقول لك : والله إننا من المعجبين بك . قرأت لك . . وأعرف فلاناً صديقك وهو قريبي أيضاً . . والله أنا مكسوف جداً . . أرجو أن تقدر شعوري . . انه ابني لم أره من سنوات وهو يقيم في استوكهلم . . ولم نره بسبب مرض والدته . . وكل سنة وأنت طيب . . عيد نقى . .

وفي هذه اللحظة وقبل أن أقول له : وأنت طيب . (يكون قد أعطاني لفة من الورق . . ولفة أخرى) . . هذا كحك العيد . . كل سنة وأنت طيب . . وهذه ملوخية ناشفة . . أنت عارف المصريين يحبون بلدهم وطعامها . . والله أنا مكسوف جداً !

وعلى الرغم من إنه يلاحظ أنني أحمل شنطة في يدي وكيساً . . فإنه بسرعة يضع الكحك والملوخية أمامي . . ويقول · ألف سلامة أنت . . ونشوفك بخير . . ألف سلامة . . والحاجة (وهي أم الشاب الذي سوف اسلمه الكعك والملوخية) . سوف تدعو لك عند كل صلاة .

وفي الطائرة أضع الكعك تحت قدمي . . ولا أستطيع أن أقترب منه بقدمي حتى لا يتحول إلى دقيق . .

ووقفت الطائرة في باريس . . وفي لندن . . وأخيراً في

استوكهلم . . وفي الطائرة اشتريت بعض العطور وحملت بعض الصحف والمجلات . . ونزلت كالسيدة الحامل ، أخاف أن اصطدم بالذي أمامي والذي ورائي حتى لا يتهشم الكعك . .

وفجأة ، ولا أعرف السبب ، بدأ سكر الكعك يتسرب من بين الورق . . وبدأت الملوخية الجافة هي الأخرى تعرف طريقها إلى الأرض ، والكعك رسم خطاً أبيض على الأرض . . والملوخية خطاً أخضر . . واقتربت فتاة جميلة . . وقالت لي : صباح الخير . .

قلت : صباح الفل . .

وانتقلت من النظر إلى وجهها إلى قوامها المشوق الرشيق . . وسرت وراءها لكي أرى أوضح . . وأحلم بليلة جميلة . . وأشارت إلى سيارة صغيرة . . وركبت فقلت في نفسي : لعل السفارة هنا قد أوصت باستقبالي استقبالاً خاصاً .

وفي غرفة خالية تماماً جاء رجال الأمن والجمارك والتفوا حولي وسألوني . . وسألوني . . أما الكعك فقد عرفوه؛ . . ولكن الملوخية الجافة فلم يعرفوها . . وسألوني عنها وما أسمها باللغة الإنجليزية ولم أعرف اسمها بأية لغة . . وقلبوا الملوخية أمامي . . ولم تشغلهم أوراق الملوخية . .ولكن مسحوق الملوخية الناعم جداً . . الفاتح اللون . . وقلت لهم : إنه مسحوق الملوخية . . وليس أي نوع من أنواع المخدرات .

وسألوني : ما الذي تصنعونه بالملوخية . .

قلت : نأكلها . . بعد غليها في الماء . .

سألوني : هل في استطاعتك أن تطبخها أمامنا ؟

فعلاً لم أعرف . . وحاولت أن أهرب من الفخ . . فقلت : إن بعض المصريين يفضلون تناولها جافة . .

فطلبوا مني أن أفعل ذلك . . وحاولت . . ولكن لم أستطع . . إذا فأنا أكذب عليهم . .

والحل . . تركوني . . وهم في غاية الأدب والرقة . وجاءت القهوة . . ومعها الافطار وصحف الصباح . . وفتاة جميلة تتحدث معي في أي شيء . . ومن الحين والحين تعتذر عن التأخير .

وسألتها : لماذا لا يطلبون أحداً من السفارة المصرية ؟

قالت : نحاول ذلك . . ولكن اليوم إجازة . . قلت : هل أبقى هنا حتى الغد ؟!

قالت : بعثنا في طلب واحد سويدي عاش في القاهرة عشرين عاماً . وعرفنا أنه مريض في أحد المستشفيات . ولذلك سوف نذهب إليه !

وذهبنا إلى المستشفى . وكان الرجل مريضاً وكلمني بلغة عربية سليمة . وكان سعيداً جداً أن رأى الملوخية . . وقلت له : هي لك يا سيدي . . والله ما حد واكلها غيرك !

أما الكعك فكانت له قصة أخرى . لقد ذهبنا إلى أحد المعامل . ووضعوا الكعك تحت الميكروسكوب . واكتشف العلماء أن في العجوة الموجودة في الكعك بعض الفطريات فالعجوة قديمة جداً . .

فصرخت بأعلى صوتي : أعدموه . . اللّه يخرب بيت صاحب الكعك . . اعدموه . .

وتركت الكعك . وحمدت اللّه على سلامتي . .

وفي اليوم التالي وجدت أحد رجال الأمن يدق باب غرفتي قائلاً : مستر منصور . . هذه هي نتائج تحاليل الكعك والملوخية . .

وقرأت التحاليل وكذلك كشف الأشعة فوجدت أن الدقيق مسوس وأن العجوة بها ديدان . . وأن الملوخية بها نسبة عالية جداً من التراب ونشارة الخشب !!.

(٤)

اشتريت سيارة من سويسرا . . السيارة كان يملكها سائق السفير الإيطالي . . واعجبتني السيارة الإيطالية القديمة . . وما دامت سيارة سائق السفير ، فالسائق لا يستعملها وإنما يستخدم عربة السفير . إذن فاستهلاكها قليل . وركبت السيارة من برن عاصمة سويسرا إلى الاسكندرية : أهلاً يا أستاذ . . حمد اللّه على السلامة يا أستاذ . . تفضل الشاي . . القهوة . . سيادة المدير يعتذر عن الحضور لأنه خارج الأسكندرية وسيادتك عارف أن اليوم هو الجمعة . .

وكلام كثير في غاية الرقة والأدب .

وانتقلت من غرفة إلى غرفة . . ومعي عشرات الأوراق عليها هذه التأشيرة : بناء على موافقة تليفونية من السيد مدير الجمرك . .

ـ وتشرب إيه يا أستاذ . .
ـ شكراً . .
ـ والله . . لقد زارنا النبي .
ـ شكراً .
ـ تفضل . . بطريق السلامة .

بعد نصف ساعة دفعت مائتي جنيه . وخرجت وسيارتي الجديدة عليها رقم ملاكي الأسكندرية . . منتهى السرعة . وادهشني ذلك . . وأدهشتني الحملة الظالمة على رجال الجمارك و . . و . . وجلست في مكتب (أخبار اليوم) بالإسكندرية أكتب مقالاً أشيد بسرعة الأداء والكفاءة ، وأحكي كيف أن سيارتي لم تستغرق نصف الساعة حتى خرجت ولها رقم ملاكي الاسكندرية وليس جمرك الاسكندرية !

وفجأة جاءني مدير مكتب (أخبار اليوم) يقول لي : الحكاية مش كده ! الحكاية انهم يريدونك أن تخرج من المنطقة الجمركية في اقصر وقت . . حتى لا ترى ولا تسمع ! فهم قد تخلصوا منك . هذا كل ما حدث !

وتضايقت . ولكن لم أكتب سطراً واحداً عن الذي حدث ، أو الذي لم يحدث . .

وفي الطريق إلى القاهرة احترقت السيارة تماماً . . اشتعل الموتور . . هل لنقص في الماء ؟ . . هل نقص في الزيت ؟

الحقيقة أن السيارة مستهلكة تماماً . . وتساءلت . . كيف ؟

فقال لي أحد المهندسين : إنها قديمة جداً ولكنها نظيفة جداً . . كم دفعت في الجمرك ؟ .

فقلت : مائتي جينة ! .

قال : إن رجال الجمارك في الإسكندرية قد عرفوا ذلك تماماً . . ولذلك لم يجدوا السيارة تساوي وجع الدماغ . . ولا بد انهم اندهشوا كيف تشتري مثل هذه السيارة ؟ .

ــ ولكنهم لم يقولوا شيئاً ؟

ــ وهل معقول أن يقولوا لك أنت ؟!

أما الغلطة التي وقعت فيها فهي غلطة منطقية . . فأنا قلت لنفسي هكذا : ما دامت سيارة السائق ، وما دام السائق لا يركب إلا سيارة السفير ، إذن هو لا يستخدم سيارته إلا قليلاً ، إذن هي في حالة جيدة جداً . .

أما الغلطة فهي : إن السفير الإيطالي لم تكن عنده سيارة ، فكان يستخدم سيارة السائق ، فالسفير والسائق يستخدمان سيارة واحدة ، فكان لا بد أن تحترق في الطريق بين سويسرا وإيطاليا . . فالحمد لله انها احترقت بين الإسكندرية والقاهرة ! .

(٥)

كنت قادماً من طوكيو متجهاً إلى أمريكا على أن أقضي بضعة أيام في جزر هاواي وفي جمارك المدن الأمريكية لا يسألونك : أن كان معك فلوس . . فالفلوس لا تهم إن دخلت بها أو خرجت بها . . فلن تضيف إلى آلوف ملايينهم شيئاً ، ولن تأخذ من ألوف ألوف ملاينهم شيئاً .

وإنما يسألونك : هل معك بذور ؟ . .

فتسأل : بذور ؟ . . ماذا تعني ؟ . .
ويقال لك : قمح . . ذرة . . شعير . . بذور فاكهة ؟ . .

لأنهم يخافون أن تؤدي البذور التي تحملها معك إلى نقل أمراض أو عدوى إلى جناتهم التي تجري من تحتها الأنهار . وطبيعي أن تقول : لا . . ويصدقونك . لأنه لا داعي للكذب .

وإذا كنت تحمل بذور ورد . . فيجب أن تقول وفي هذه الحالة ينقلونك أنت والبذور للفحص بالأشعة . وغالباً يأخذون منك البذور على سبيل الاحتياط . .

ولا أعرف ما السبب الذي جعلني أداعب رجل الجمارك وأقول له : بذور . . نعم . . ولكنها بذور الحياة . . ولكي أكون دقيقاً جداً : إنها بذور تقضي على الحياة؟ . .

ودون أن يرفع الرجل رأسه عن جواز سفري . . ضغط على جرس فجاء عدد من الزنوج . . وأشاروا إلى جانب من المطار . وحاولت أن أوضح . . أن أقول أنني أداعب أو أهزر . . وصحيح هي نكتة بايخة جداً . . ولكنها غلطتي . .

وأمام ضابطة بالمطار فقد رويت لها قصة اضحكتها ولكنها لم تقتنع . . أما القصة فهي أنني مسافر بلا توقف أكثر من مائتي يوم . . من الهند إلى التبت إلى سنغافورة إلى أندونيسيا إلى استراليا والفلبين وهونج كونج واليابان . وأرهقني السفر من الجو الحار إلى الجو البارد . . وفي يوم رأيت وجهي في المرأة فوجدته شاحباً . . وتلمست عضلاتي فلم أجدها في ذراع أو ساق . .

فقلت لا بد أنني مريض أمراض كثيرة . وقررت أن أذهب إلى أحد المستشفيات في طوكيو . وذهبت وفي الاستقبال سألتني الممرضة عن المشكلة فقلت : تعبان . بطني . .

فقالت : حامل ؟

فضحكت : وقلت كأنني حامل . . ولكني لا أريد أطفالاً .

فقالت : لا تريد أطفالاً ؟

فقلت : لا أريد أطفالاً . . أن الأطفال مصيبة على الأدباء . .

وسألتني : كم يوماً تبقى في اليابان ؟

فقلت : أسبوعاً . .

قالت : ولماذا أنت لا تحب الأطفال ؟

قلت : ما حاجتي إلى الأطفال في هذه السن . . هل عندك أطفال ؟

قالت : عندي . .

قلت : ولكنك صغيرة . .

قالت : غلطة . .

قلت : لا أريد أن أغلط . . ولكن إذا وجدت فتاة يابانية جميلة مثلك فسوف يكون من سعادتي أن أغلط .

ولم تضحك . وعادت تسألني : منذ متى تشكو من الألم . . هل هناك إسهال . . دم ؟!

قلت : أحياناً . .

قالت : تعال غداً . .

وذهبت في اليوم التالي . وأخذت الأقراص .

وعلى مائدة عشاء السفير المصري في طوكيو رويت له ما حدث . . وقلت : أشك كثيراً أن كانت هذه الممرضة قد فهمت ما قلت لها . . فلغتها الانجليزية ركيكة جداً . .

ثم أخرجت علبة الدواء من جيبي . . ونادى السفير أحد موظفي السفارة من اليابانيين وسأله عن هذا الدواء فقال : إنها أقراص لمنع الحمل !

أقراص لمنع الحمل يا نهار أسود !!. .

فسألني السفير عن المستشفى الذي ذهبت إليه . . وذكرت إسم المستشفى وكان للولادة . والممرضة لا بد إنها تصورت إنني أحدثها عن زوجتي والآم الحمل والولادة . . ولا بد أنها استنتجت أن زوجتي تتعاطى حبوباً ولكنها مع ذلك تحمل . . فكان لا بد أن تعطيني أنا حبوباً تقضي على بذور الحياة نفسها قبل أن تنتقل إلى زوجتي !

وكنت قد تعاطيت نصف الكمية التي قررها أطباء المستشفى الذين لم آرهم !!

وضحكت الضابطة الأمريكية لهذه القصة . . ولكنها أصرت عل إعطائي شربة زيت خروع . . وأن يحجزوني في فندق قريب من المطار . . الخ .

بعـد منتصف الليـل :

ـ قـل لي يا أنيـس ..
ـ نعـم ياريّـس

هناك نوع من الناس عندما يكون عنده سؤال بلا جواب ، فإنه لا ينـام حتى يجد رداً من أي أحـد . هل تعـرف عامـل التليفون . . أمامه تابلوه . . وفي هذا التابلوه لمبات صغيرة . . الحمراء تدل على أن الخط مشغول والخضراء على أن هناك خطاً خالياً . . واللمبات التي ترتجف معناها أن أحداً قد رفع السماعة ويريد من عامل التليفون أن يرد عليه . . وعامل التليفون عندما يكـون مشغولاً فـإنه يـترك هذه اللمبـات تـرتجف حتى يـزهق صاحبها . . بعض الناس لا يزهقون حتى يجدوا جواباً . . لا يزهقون مهما طال انتـظارهم ومهما حـاول عامـل التليفون أن يضايقهم أو يجعلهم ينسون ماذا يريدون !

بعض الناس يجد نوعاً من الإجابة المطلوبة . . ولكن تظل اللمبة في ذاكرته ترتجف . . أنها لم تتلق الإجابة الكاملة بعد . . أو كأن أحداً لم يرد عليه بعد .

وهناك بعض العباقرة يفاجأ بالاجابة عن تساؤلاته ، بعد أن يصحو من نومـه . . أو وهو جـالس في الأتوبيس . . أو وهـو طريح أحد المستشفيات .

فالعالم الرياضي الكبير اينشتين كان يركب البسكلتة عندما وجد جواباً عن إحدى المعادلات الرياضية الصعبة .

العالم الرياضي الفرنسي يوانكاريه وجد إجابة عن إحدى المعادلات المعقدة وهو على سلم الترام .

الحادثة الشهيرة للعالم الإغريقي أرشميدس كان في الحمام عندما وجد الحل ، فخرج من الحمام يقول : أويركا . . أويركا . .

وهي كلمة يونانية معناها : وجدتها . . وجدتها !

(١)

أينما ذهبت وجدت من يقول لي الأستاذ محمد عبد الوهاب يريدك لأمر هام . .
محمد عبد الوهاب لأمر هام ؟ إن محمد عبد الوهاب لا يستعجل في أي شيء . وليس في حياته شيء مستعجل أبداً . حاولت أن أتذكر شيئاً فنياً قرأت عنه في الصحف . لم أجد . . حاولت أتذكر شيئاً مما كتبت لعله يريد جن يستوضحه .

سألت السيدة نهلة القدسي حرم الأستاذ عبد الوهاب : ما هذا الأمر الهام ؟

قالت : لا أعرف . .

ــ في أي شيء كنتم تتناقشون في الأيام الماضية .

ــ في كل شيء .

ــ هل هناك أمر هام ؟

ــ أبداً .

وأنا أتفق مع محمد عبد الوهاب في أنه لا يوجد في حياتي شيء مستعجل . . لا شيء . فأنا لا أرد على التليفون . . ولا أجد ذلك ضرورياً . . فلا أنا طبيب ولادة . . ولا أنا ضابط مطافىء . . فأنا أعرف مواعيد الكتابة . وهي منضبطة تماماً . أعرف متى أكتب ومتى أراجع ما كتبت .

ومتى أبعث به إلى المطبعة ومتى أعيد قراءته . انتهى .

قال لي محمد عبد الوهاب أنه دخل دورة المياه ففاتته الباخرة من مرسليا إلى القاهرة . . ومن الممكن أن تفوته الطائرة . فلا داعي للاستعجال . فالوقت في صالح الفنان . والفنان لا عمر له . . إن آثاره الفنية تعيش أطول من أي شيء آخر .

ولا أحد يسأل الكاتب أو الفنان كم استغرق من الوقت في الكتابة أو الرسم أو التلحين . . ولكن يسأل فقط : إن كل العمل جيداً .

وأخيراً وجدت الأستاذ محمد عبد الوهاب : خير يا أستاذ ؟
ــ أجبني بسرعة .
ــ ولماذا السرعة ؟
ــ بلاش بسرعة . . أجبني على مهلك من الذي بنى المسجد الأقصى ؟
ــ لماذا ؟
ــ أجب والسلام .
ــ بناه عبد الملك بن مروان .
ــ لماذا ؟

ــ لماذا بنى خليفة مسلم مسجداً ؟
ــ أيوه لماذا ؟

ــ لقد بنى المسجد الأقصى بفلوس المصريين وبأعمدة من بعض الكنائس . . بنى هذا المسجد عندما وجد أن المسلمين يتجهون إلى المسجد الحرام ومعهم فلوسهم ويقيمون هناك طويلاً . فلماذا لا يتجهون إلى هذا المسجد ويحولون فلوسهم وتجارتهم إلى القدس . . وهو أيضاً الذي بنى حرماً فوق الصخرة . . قبة الصخرة .

ــ مسجد عمر .

ــ لا علاقة لعمر بن الخطاب بهذا المسجد . . وإنما الصليبيون هم الذين أطلقوا على هذا الحرم مسجد عمر . . وهذه الصخرة كانت معروفة قبل ذلك . يقال إن سيدنا إبراهيم عليه السلام أتى بابنه لكي يذبحه على هذه الصخرة . ويقال إن النبي عليه الصلاة والسلام وقف فوقها عندما ركب البراق واتجه به إلى السماء . . ويقال إن هذه الصخرة حاولت أن تطير معه . . ولكن الرسول عليه السلام قد أشار إليها أن تبقى في مكانها . . ويقال إن الذين إيمانهم قوي لو نظروا إلى هذه الصخرة فإنهم يرون آثار قدمي الرسول . . والآن فوقها قبة وتحتها مسجد .

ــ هل صليت في هذا المسجد ؟
ــ نعم مرتين . . مرة سنة ١٩٥٥ مع الشيخ أحمد حسن الباقوري وسنة ١٩٧٧ مع الرئيس السادات .

ـ وأين حائط المبكى ؟

ـ بالقرب منه .

ـ ولماذا سمي «المبكى» ؟

ـ هو اسمه الحقيقي الحائط الغربي من المعبد الذي بناه اليهود وانهدم عدة مرات . وهم يبكون عند الحائط على ضياع المعبد . . وعلى الرغم من أن اليهود استردوا المعبد والأرض واستولوا على القدس كلها فإنهم ما يزالون يبكون حزناً على الذي فات مع أن الذي يملكونه الآن أضعاف أضعاف الذي كان عندهم قبل ذلك . . ويقال إن الذي يرى الحائط عند الفجر يجد قطرات الندى تتساقط من الاعشاب التي في الحائط . . فكأن الحائط يبكي أقول لك نكتة . .

ـ أرجوك .

ـ يقال أن أمريكياً ذهب إلى القدس يريد أن يرى حائط المبكي . . ولكنه نسي هذا الأسم فقال للسائق : خذني إلى المكان الذي يبكي عنده اليهود . . فأخذه السائق إلى مصلحة الضرائب !

ـ شكراً .

ـ . . . . . .

وفي اليوم التالي سألت السيدة نهلة القدسي : إيه الحكاية ؟

ـ أبداً . . كنا نجلس معاً . . وكان الشيخ رفعت يتلو القرآن . . فإذا به يدير قرص التليفون . . وإذا به يسأل عنك ويقول : محمد عبد الوهاب عاوزه لأمر هام .

ـ ولم تسأليه ؟

ـ في هذه الحالة لا يرد . . إنه يريد أن يسأل ويـريد أن يعرف الإجابة . . مرة طلب أحد رؤساء الوزراء العرب وكنا في باريس : يا فخامة الرئيس بالضبط بـالضبط كم الميزانيـة هذا العـام . وكنت أسمع صـوت رئيس الوزراء وهـو يضحك ، ولكن محمد عبد الوهاب على التليفون مدة طويلة . . فلا بد أن رئيس الوزراء يحاول أن يقلب في حقيبته عن الأوراق المناسبة والأرقام الصحيحة . . وبعد عشر دقائق من الصمت الرهيب أشرق وجه محمد عبد الوهاب وهو يقول : مرسي يا افنـدم . . أيوه الأرقام مضبوطة زي الأرقام اللي عندي تماماً .

ـ ولم تسأليه إيه الحكاية ؟

ـ إذا سألته فلن يرد . . ومرة كنا في أحد المقاهي في باريس فإذا به ينادي الجرسون ويسأله : كم فنجان قهوة تبيعونها هنا في اليوم . . وارتبك الجرسون ولم يعرف ماذا يقول وإنما هز كتفيه بما معنـاه انها كثـير جـداً .

وكان السؤال مفاجأة . . فإذا بعبد الوهاب يقول أنهم في المقهى المجـاور يبيعون ثـلاثـة آلاف فنجـان في اليـوم . فـإذا بالجرسون يقول له : ربما أقل . . ومحمد عبد الوهاب يقول له : بل ٣٥٠٠ هكذا يقول صاحب المقهى المجـاور لكم . . وإذا بالجرسون يقول : إنه كذاب . نحن نبيع خمسة آلاف فنجان في اليوم . . وفي بعض الأحيان سبعة آلاف .

وأخرج محمد عبد الوهاب ورقة من جيبـه ونظر إليهـا ثم قال : تقريباً . . فعلاً أنتم تبيعون ستة آلاف و٢٠٠ فنجان من الصباح حتى منتصف الليلة . مرسي بوكو !

(٢)

وعنـد منتصف الليل تقـريبـاً سمعت من يقـول : أنيس بك . .

ــ أيوه يا أفندم . .

ــ أنا العقيد سعودي .

ــ أهلاً وسهلاً .

ــ السيد الرئيس يريد أن يكلمك . .

وكان المتكلم الرئيس السادات .

ــ يا أنيس .

ــ أيوه يا ريس .

ــ الراجل اللي جه معـاك من كام شهـر . . وكان عنـده مشروع ري الأرض بالمياه التي خلط فيها الأسمدة والمبيدات معاً اسمه إيه .

ــ واللّه مش فاكر يا ريس .

ــ اللّه جـرى لـك إيــه يـا أنيس . . ده أنت بتفتكـر العفريت . . الراجل اللي جاء معك إلى القناطر وكان حيقع منا في الترعة .

ــ أيوه يا ريس ده رجل ايطالي . . اسمه فرانشيسكو .

ــ فرانشيسكو قرموط . . هاها . . هاها .

ــ أيوه فرانشيسكو دارتوت . . تمام كده يا ريس . . بس ده من ثلاث سنوات يا ريس .

ــ ثلاث سنوات . لا . . أقل من ثلاث سنوات . . كان

في فبراير . . يعني من حوالي سنتين ونصف .

ــ ليه يا ريس ؟

ــ بس كنت عاوز افتكر اسمه . . شكراً يا أنيس .

ــ العفو يا ريس . .

وبعد ربع ساعة عاد الرئيس السادات يسأل :

ــ أيوه يا ريس . .

ــ أنت فاكر إحنا لم نوافق على فكرة المشروع ليه ؟ مش فاكر يا أنيس .

ــ الرجل جاء ومعه فيلم سينمائي لكل خطوات المشروع . . والفيلم بعث به مع كل الوثائق والتجارب والتحاليل . لأحد الوزراء . . وهذا الفيلم . .

ــ أيوه فاكر . . أيوه . . سرقوا المشروع من العربية . . ولذلك رجع الرجل حزيناً . ولكن أنت قلت لي بعد كده إنك قابلت الرجل ده في أمريكا .

ــ أيوه يا ريس . .

ــ هل سألك عن المشروع . .

ــ لا . .

ــ يبقى الرجل زعلان أو أصابه اليأس . . ما تعرفش عنوانه فين ؟

ــ أحاول أعرف عنوانه يا ريس .

ــ طيب يا أنيس أسيبك تنام . . تصبح على خير .

ــ وأنت من أهل الخير يا ريس !

ومرة أخرى وقبل أن أنام بدقائق : نعم يا ريس .

ـ أنت فاكر الراجل بتاع البرتغال .

ـ من هو ؟

ـ يا أخي الراجل البرتغالي الذي جاء إلى مصر يريد أن ينقل بقايا أجداده إلى القدس . أنت نسيت وللا إيه .

ـ جاء إلى مصر يا ريس من سنة ونصف .

ـ جاءمعاك . . أنا كنت في أسوان وأنت طلبتني تقول لي إن الرجل معاه خطاب توصية من السناتور كنيدي . وخطاب توصية من الرئيس السابق نيكسون وخطاب توصية من كسنجر .

ـ أيو . .

ـ إيه حكايته بالضبط . . لأن الحكاية دى عاملة لي صداع .

ـ الرجل ده يا ريس جاء إلى مصر . . وهو يريد أن يبحث عن بقايا أجداده في مقابر بالقرب من المحلة الكبرى . . إنه يهودي من أصل مصري . . وكان على استعداد لشراء الأرض وتحويلها إلى حديقة . . ورصف كل الطرق التي حولها وتزويدها بالماء والكهرباء ، لكي تكون مقبرة والده في مكان جميل .

ـ آه . . وبعدين حصل إيه ؟ . أنت مش سافرت معاه . . أنا فاكر إنني قلت لك روح معاه وشوف إيه الحكاية وتعال قل لي .

ـ أيوه يا ريس . . لقينا مشكلة كبيرة .

ـ أنا فاكر إن فيه مشكلة . . بس مش عارف دولقت إيه هيه ؟

ـ وجدنا أن الأرض بها مسجد .

ـ مسجد ؟ يبقى خلاص !

ـ كان عاوز يهدم المسجد ويبني واحداً أكبر وأجمل منه .

ـ انتهى الموضوع . خلاص . الراجل ده عامل لي صداع . . كل يوم جواب . . وكل يوم توصية . . لا . . انتهى . . طيب يا أنيس . . أنا عارف أنك بتنام بدري زي الفراخ . . هاها . . هاها . . شكراً يا أنيس .

ـ العفو يا ريس .

(٣)

أثناء العدوان الثلاثي وأثناء حرب ٦٧ كانت السيدة أم كلثوم في حالة إنزعاج شديد . . وكانت تنظر إلى الأحداث نظرة دينية قائمة على المعجزة . . فهي لا تستبعد على اللّه أن يغرق أمريكا كلها . . فيطلع النهار وقد اختفت امريكا تحت الماء . . وكنت أضحك فتقول لي : جرى لك إيه . . هية دي حاجة بعيدة على ربنا .

أقول : لا .

ـ أمال إيه اللي بيضحكك يا سي أنيس .

ـ بس دي حاجات بالعقل يا ست ؟

ـ عقل لما يطير عقلك . . أنت جرى لك إيه . . ربنا قادر على كل شيء .

ـ آمنت بالله . .

ـ أيوه كده أتعدل !

واتفقت مع الإذاعي الشهير طاهر أبو زيد أن أكتب لها مجموعة من الشعارات تذيعها بصوتها في إذاعة الشرق الأوسط . رفعاً للروح المعنوية في مصر والعالم العربي . من بينها : نفنى ولا تهون . . نحن فدائيون . . خسرنا موقعة ، ولم نخسر معركة . . خطوة واحدة تعثرنا فيها ، لا تعني أنه لم يعد أمامنا طريق . . إننا لم نفقد القدرة على الخطوة الثانية . . إننا لم نقم الهرم الأكبر إلا لكي يكون شاهداً على أننا مثله . . الخ .

وكان من عادة أم كلثوم أن تسأل : كم قتيلاً أمريكياً في فيتنام ؟

أقول لها : ألف .

تقول : بس ؟! ليه عزرائيل في إجازة ؟ معلوماتك من إمتى ؟

ـ من خمس دقائق . . إن هذه الأرقام قد أتت بها وكالات الأنباء .

ـ لكن كامل الشناوي يقول إن الأمريكان الذين ماتوا أكثر من كده .

ـ لا بد أن كامل الشناوي قد استمد معلوماته من مصادر أخرى .

ـ أسأل واطلبني على طول ؟

ـ حاضر . .

وفي يوم من الأيام نسيت أن أطلبها وأحكي لها أخبار الكوارث التي أصابت اليهود في العالم كله ، وفي أمريكا بصفة خاصة .

فجاءت مكالمتها بعد نصف الليل بقليل : أنت نايم ؟

ــ لا .

ــ اصحى وكلمني عدل .

ــ نعم . .

ــ كم عدد أولاد الـ . .

ــ اليهود انفجر بهم أتوبيس ومات عشرون . .

ــ بس ؟!

ــ لا . . وفيه قطار انفجر بهم . . واحترقت بعض العربات .

ــ بعض العربات . . يعني مات كم واحد ؟

ــ حوالي الف واحد ؟

ــ بس ؟!

ــ كلهم أطفال . .

ــ أعوذ بالله ! حرام . . كيف حدث ذلك ؟

ــ وأمهات .

ــ يا ساتر يا رب . . أمال الرجالة فين ؟

ــ في الخنادق طبعاً !

ــ والأمريكان ؟

ــ غرقت لهم عشر مراكب .

ــ الله أكبر . وإيه كمان ؟

ـ وخمسون طائرة ، اللهم صل على النبي .
ـ وإيه كمان ؟
ـ وأنا عاوز أنام . .
ـ تنام والدنيا مقلوبة . . أنت إيه طول الليل والنهار نايم ؟
ـ يا ريت . . إنني أنام أربع ساعات في كل ليل ونهار .
ـ كفاية عليك !
ـ إن شاء اللّه في الصباح سوف آتي لك بأخبار تفرحك .
ـ بتتكلم جد . .
ـ طبعاً . .
ـ طيب تصبح على خير !
ـ وأنت من أهله . .

واتفقت مع الأستاذ كامل الشناوي أن نقول لأم كلثوم أرقاماً نتفق عليها لأنها عندما تجد البيانات قد اختلفت فهي تسأل غيرنا . . وتناقشنا وتعطينا درساً في ضرورة نقل المعلومات الصحيحة .

وكل مرة تسألني فأقول لها ترد قائلة : أيوه كلامك مضبوط . . كامل الشناوي قال كده . . أيوه تمام .

أما هذه المرة فكانت في ساعة مبكرة وجدتها تقول : طبعاً أنت صاحي دلوقت .

ـ أيوه . .
ـ يا خويا الأخبار اللي أنت قلت عليها أنت وكامل

الشناوي لم أجدها منشورة في الجرايد النهاردة . . الكلام ده صحيح ؟

ـ صحيح . .

ـ لماذا لم تنشر ؟ . .

ـ حسابات . .

ـ يعني إيه ؟

ـ يعني الأمريكان ساومونا عليها . . إذا نشرتم هذه الأخبار فلن تعطيكم قمحاً . . ونحن محتاجون إلى القمح طبعاً .

ـ أيوه ـ وهو اللي خلق القمح الأمريكاني مش خلق القمح الفرنساوي والإيطالي والبرازيلي .

ـ ولكن كل هؤلاء قد باعوا ما عندهم .

ـ وهو لازم نأكل قمح . . ناكل درة .

ـ الدرة لا تكفي .

ـ ناكل شعيراً .

ـ الشعير تأكله البهائم .

ـ نأكل حلبة .

ـ الحلبة لا تكفي .

ـ يا أخي عمال تسددها في وشي كده ليه ؟ كامل الشناوي فين ؟

ـ في هذه الساعة لا بد أنه نائم وسوف يصحو عند الظهر .

ـ يعني لا أطلبه الآن .

ـ . . . .

وقبل أن أنام طلبت أم كلثوم وقلت لها : أنت ست مبروكة .

ـ هيه ؟ . .

ـ ربنا استجاب لدعائك . . الفاتحة لك . .

ـ يعني إيه كلمني بسرعة ؟

ـ خلاص . .

ـ خلاص إيه ؟ .

ـ الحمد اللّه .

ـ على إيه خلصني !

ـ نحمده ونشكر فضله .

ـ اللّه ؟ ما تقول لي إيه اللي حصل ؟!

ـ ربنا استجاب لدعائك . . أمريكا وانجلترا وفرنسا وإسرائيل كلهم غرقوا تحت الماء .

ـ يعني إيه ؟

ـ غرقوا يا ست . . تعيشي أنت .

ـ أنت بتتكلم منين ؟

ـ من السرير . .

ـ في مستشفى إيه ؟

ـ الأمراض العقلية يا ست ؟

ـ إن شاء اللّه ! جرى إيه ؟!

ـ ولا حاجة . . ما عنديش أي أخبار والأرض تدور حول نفسها أمام الشمس في نشوة وسعادة . . لا أحد مات . . ولا

أحـد غرق . . وتصبحي عـلى كلام فـارغ سوف تقـرئينـه في الصحف .

— . . . . . .

ولم ترد أم كلثوم . . فهي لم تسمع خبراً واحداً زي الزفت عن كل أعداء مصر !

هموم الرئيس مبارك

اللهم إحمني من أصدقائي ، أما أعدائي فأنا كفيل بهم — حكمة قديمة اتخذتها الدول العربية شعاراً سرياً . فالخوف منا على أنفسنا وليس الخوف من أعدائنا . فانشغلنا بخلافاتنا عن العدو حولنا وبيننا . ولذلك ظلت معاركنا العائلية هي المشاكل ، بينما مشاكلنا الخارجية خطراً ثانوياً . وحتى عندما بدأنا نحل مشاكلنا الخارجية . إزدادت الهوة بيننا . . ومعنى ذلك أن كل شيء بيننا يساعد على أن نتباعد . وأن كل مناسبة قومية هي مناسبة لأن نختلف أكثر ونتقاتل أكثر . . وبذلك يصبح العدو أثنين : عدونا جميعاً . ثم نحن ضد نحن !

وإذا اختار الإنسان عدواً بين ضلوعه هو ، في أسرته هو ، فإنه يكون قد اختار أشد الأعداء قسوة عليه . . لأنه عدو لا يفارقه ليلاً أو نهاراً . عدو يهدمه من داخله . . عدو لا نراه وهو يتحفظ للهجوم علينا . . فنحن لا نرى الميكروبات في داخلنا . وإنما نحن نفاجأ بها قد احتشدت في الدم وأدارت علينا الحرب . كل ذلك في داخلنا . أما العدو الذي يجيء من الخارج فأنت تراه وتنصت إليه ، وتحسب خطواته وتستعد له .

إذن فنحن اخترنا أن نعادي أنفسنا . . وطال هذا العداء . . وفي كل مرة نواجه عدونا الحقيقي لا نكون صفاً واحداً ورأياً واحداً . وإنما نقاتل العدو متفرقين . . متقطعين . . ممزقين . . منهزمين قبل أن نحارب ، مقهورين قبل المعركة . . وهكذا ينتصر علينا العدو مرتين : مرة لأننا انهزمنا أمام أنفسنا ، ومرة لأننا أنهزمنا أمامه .

وفي كل المرات التي انهزمنا فيها سياسياً وعسكرياً . لم نعترف بأن العدو كان أقوى وأكثر فهماً ودراية . . فنحن ـــ عادة ـــ لا نتهم أنفسنا جميعاً بأننا أضعف وأكثر تخاذلاً وإنما يتهم بعضنا البعض . . ويكون هذا الاتهام دليلاً على أن حربنا ضد أنفسنا مستمرة . على أن الحرب «أهلية» ويجب أن تظل أهلية . فواحد منا قد «خان» الباقين . أي لا بد أن تكون هناك خيانة . أي أن واحداً منا يعمل ضد العرب لصالح العدو ـــ وبقي هذا أسلوبنا في النقد السياسي والعسكري !

حتى ليصدق علينا أن يقال : ما اجتمع عربيان ـــ إلا كان «الخائن» ثالثهما . . ويكون هذا الخائن عربياً دائماً !

وهكذا نحن في حالة اكتفاء ذاتي : الحرب عندنا والخيانة عندنا والهزيمة نتيجة مؤكدة لكل ذلك !

واستمر هذا النمط من التفكير دليلاً على أن الفكر السياسي عندنا «فج» ساذج . مراهق . . ضيق الأفق ـــ رغم عشرات السنين من المواجهة مع العدو ومع الدول الكبرى والعظمى !

* * *

ولذلك اتخذت الجامعة العربية مبدأ شاذاً هو : «الإجماع» في القرار . . أي يجب أن يكون الجميع بربطة المعلم موافقين على أي قرار يتخذونه معاً . . فالأغلبية لا تكفي ، مع أن هذه هي الف باء الديمقراطية في كل الدنيا ، إلا عندنا . لماذا ؟ لأن إنفراد واحد أو أكثر أو الأغلبية بالرأي معناه ، العمل لحساب جهة أجنبية . . أو خيانة . . فلا ينفرد أحد برأي مخالف مهما كان هذا الأحد . كبيراً أو صغيراً . فتهمة الخروج . النشوز والخيانة على رءوس الجميع . ولذلك تقاصر الرؤساء وتطاولوا حتى تتساوى الرءوس . ويكونوا لا على «قدم» المساواة فقط ، وإنما على «رأس» المساواة أيضاً .

ولماذا لم تكن هناك حرية في الرأي الآخر أو الرؤية أو القرار ؟ . لأنه ليس المهم أن يكون لأحد رأي . . وإنما المهم جداً أن يحرص على أن يقول ما يجعله يكسب جميع الآراء . . ولذلك لم تفلح الجامعة العربية في حسم قضية أو حل مشكلة . لأن أحداً لا يعرض ما يراه عاقلاً أو واقعياً . وإنما العقل هو عقل الجميع . . والواقع هو واقع الجميع ـ ولذلك لا بد من تغيير هذه القاعدة الغريبة جداً في الفكر السياسي . . قاعدة يا (نحن جميعاً) دون أن يتخلف أحد ، يا (لا أحد) ولا قرار مهما كانت القضية خطيرة أو عاجلة .

وأسهل قرار : ألا يكون قرار !

* * *

وجامعة الدول العربية بانعقادها في «الدار البيضاء» ـ أصلحت خطأ سياسياً هو : ألا تكون مصر هناك . ألا يكون

مندوبون لخمسة وخمسين مليوناً لبلادهم تاريخ في السياسة والحرب والثقافة . . ومنهم عشرات الألوف من الضحايا من أجل القومية العربية ـ لا لشيء إلا لأن مصر عندما عانت من شرط «الإجماع» على القرار ، انفردت بقرار الحرب والمفاوضات والسلام . فاستردت أرضها مع عظيم الاحترام العالمي . . ولم يكن شيئاً واقعياً أن تناقش قرار الحرب جهاراً نهاراً أو حتى سراً . فلا سر يمكن كتمانه إذا كان السر حرباً !

وبإصلاح الخطأ السياسي ـ أي مقاطعة مصر ـ تعود مصر ألى مكانها ومهامها وهمومها العربية من جديد .

وأمام جامعة الدول العربية الآن كل القضايا التي انشغلت عنها ، وتفادت مناقشاتها : الحرب السياسية في داخل الجامعة ، والحرب الأهلية في لبنان ، والحرب الإسلامية بين العراق وإيران . ومواقف العرب المعادية للعرب .

ومواقف المسلمين المعادية للإسلام أيضاً .

ومرة أخرى يتواجه العرب ويتعارضون في قضاياهم وسياساتهم الداخلية . . ولا بد من حسم هذه الخلافات الأهلية قبل مواجهة التحدي الخارجي لنا جميعاً !

* * *

أما موقف مصر فالرئيس مبارك ليس صلاح الدين الأيوبي يريد امبراطورية مصرية من المحيط إلى الخليج . ولا هو مترنيخ الأمير النمساوي الذي سيطر على القرن التاسع بالمؤامرات والدسائس السياسية في كل العواصم العربية من أجل السيطرة على الجميع .

والـرئيس مبارك لا هـو جمال عبـد النـاصر ولا هـو أنـور السادات ــ لقد قالها في مطار لندن في أول حديث عالمي كرئيس جديد لمصر . ولا يزال عند هذا الرأي . فمشاكل مصر وهمومها كثيرة جداً تكفيه وتفيض على الجيل القادم أيضاً . فلا هو يريد لنا وحدة مع أحد ولا اندماجاً هادئاً ولا عنيفاً . فقط يريد أن يهون على المصريين مصائبهم ويملأ بيوتهم بالطعام والشراب ، وأن يجد لهم أماكن في الأتوبيس والمستشفى والمدرسة ومزيداً من الأشجار في كل صحـراء وكثيراً من الأمن الغـذائي والسياسي والأمن الديني أيضاً .

وهذا واضح تماماً لكل الأشقاء العرب . فلم ترد مصر على محاولات التسلل لإحداث خلل اجتماعي . ولم ترد على القنـابل التي تسربت إلى مصر ولا المؤامرات ولا الدسائس ولا الأسلحة ولا القتل ومحاولات القتل . رغم استطاعتها ذلك . فليس لها مطمع في أرض أو شعب أو مال . . فما عندها يكفيها من الهموم وزيادة ، وما عندها من الموارد من الممكن أن يكفيها أيضاً .

وليس سراً أن الرئيس حسني مبارك قد ألـزم نفسه وكـل وسائل الإعلام ألا تهاجم وألا تشتم وألا تنشر غسيلاً قذراً . وألا تمن على أحد وألا تعير أحداً . . وانكفأنا على مشاكلنا وعلى خلافاتنا السياسيـة وانتقدنـا أنفسنا بـلا رحمة في الصحف وفي المسرح . . لا رابط ولا ضابط إلا ضميرنا الأخلاقي والسياسي . ورغم أننا «زودناها» في النقد العنيف . فإننا نؤمن بأن الحرية التي تزيد على الحد أقل ضرراً من كتم الأنفاس . . ونحن نعلم أن التطرف في النقد ، سوف يعقبه اعتدال في النقد . وبسبب

أننا حديثو العهد بالحرية المطلقة في الرأي والرأي المضاد . فقد أسرفنا على أنفسنا كثيراً . . ولكن سوف تعتدل المقاييس والموازين في أيدينا بعد ذلك . فلا خوف علينا من أنفسنا . ثم إننا قد ارتضينا مبدأ سياسياً هاماً ابتداء من الرئيس السادات وانتهاء بالرئيس مبارك : أننا لا نتدخل في الشئون الخاصة بأية دولة عربية . ليس هذا شأننا . كما أن الذي يجري في بلادنا ليس من شأن أحد سوانا .

وإذا تعاهدنا كما قال الرئيس مبارك في حديثه في قمة الرباط بأن الدول العربية يجب ألا تتدخل في شئون الدول الشقيقة ، استقرت العلاقات واطمأنت الدول . وتوقفت فوراً الحرب الأهلية في لبنان . . الخ .

وهذه هي أهم قاعدة للسياسة العربية بين الأشقاء . هذه القاعدة لم يناقشها أحد . فهي إذن لم تستقر ، ولذلك سوف يبقى التدخل قائماً !

* * *

وفي الجلسات المغلقة لقمة الدار البيضاء وفي اللقاءات بين الرؤساء تصارحوا بالكثير وتواصوا بالكتمان ايضاً . ولكن ليس سراً أي حديث يدور بين اثنين أو ثلاثة من الرؤساء . . فنحن نعرف كل الذي حدث . وغيرنا أيضاً ، وكل أجهزة المعلومات العربية والأجنبية . ولكن يجب أن نتيح لأنفسنا فرصة التفكير والمراجعة والتأمل والواقعية .

وإذا كان بعض الرؤساء قد أدار ظهره لغيره . وأغمض عينيه حتى لا يرى ، وأذنيه حتى لا يسمع . . فإن القطيعة

العربية مهما طالت ، فالأيدي سوف تتصافح ، والأذرع تتعانق . ويادار ما دخلك شر . فنحن عاطفيون . . فرديون شخصيون . وعندما تكون هذه مشيئة رئيس الدولة ، اتخذته الدولة كلها قراراً شعبياً . وعندما يعدل الحاكم عن رأيه ويعتدل ، سوف يكون ذلك مزاجاً شعبياً . ثم قراراً سياسياً . . ولذلك يجب أن نصبر على أنفسنا . ولقد بعدت الدول العربية عن مصر عشر سنوات . . ثم عادت وعدنا وضاعت عشر سنوات وقبلها ثلاثون . ونرجو ألا تضيع أربعون أخرى في الإجابة عن مثل هذه الأسئلة : وهل كانت مصر على حق أو كان العرب جميعاً على حق ؟ . وهل صحيح أن إسرائيل قد انسحبت من الأرض المصرية ؟ وهل من الممكن أن تنسحب من الأرض العربية ؟ وهل يكون التفاوض على الطريقة المصرية . أو أن هناك طرقاً أخرى غير مشبوهة ؟

أي أن الطريقة المصرية ما زالت مشبوهة ، وأن هناك بنوداً سرية في الإنسحاب من سيناء ومن طابا الخ .

وإذا استأنف الأشقاء توزيع الشبهات مرة أخرى على كبرى الدول العربية وعلى قرارها السياسي التاريخي ، فعلى الجامعة العربية السلام ورحمة اللّه وبركاته ـ بل إنني أرى من الوقاحة أن نطلب السلام والرحمة والبركة من اللّه . فنحن لم نسالم ولم نرحم ولم نبارك أنفسنا . فكيف يباركنا اللّه ؟!

* * *

ولكنني متفائل هذه المرة ، فقد أضعنا وقتاً كثيراً . شعوبنا كلها تؤكد ذلك . وأخفينا وجوهنا في أيدينا . شعوبنا على يقين

من ذلك . وتعجلنا وتهورنا في توزيع الخيانة والعمالة على كل من يخالفنا ، وشعوبنا على يقين من ذلك .

وتحت ضغط هذه الشعوب ذهب الملوك والرؤساء يريدون أن يتقاربوا ليروا أوضح ويسمعوا أعمق . ويناقشوا أوقع ، فلا وقت للبكاء على الأمس ، والخوف من الغد . فحاضرنا يحتاج إلى العقل وإلى المصارحة والشجاعة . وأعتقد أن قدراً كبيراً من الذي كنا نتمناه قد تحقق في الدار البيضاء .

وقد كان الملك الحسن الثاني سياسياً بارعاً قادراً على تحقيق التوازنات السياسية وعلى تهيئة جو فريد لكي يتصارح الزعماء أملاً في تخفيف التوتر والضغط ، وإتجاهاً إلى المستقبل . ولا يزال الحاضر ثقيلاً بهمومه . قاتماً بألوانه مرتجفاً بقلقه . ثم إن أحداً لا يتعجل أحداً أن يحل ويربط . فقد جربنا القرارات العاجلة . والإرادات المزورة . والنظريات المخطوفة . فكانت اشكال من الوحدة المزعومة المبتسرة . وغيرها من القرارات التي لا نريد ذكرها ، وفي نفس الوقت لا نريد نسيانها . . فقد كانت جزءاً من ماضينا ومن دمنا . وفصولاً من تاريخنا .

* * *

أما عن مصر فنحن نتمنى صادقين مخلصين أن تنفتح كل الطرق براً وبحراً وجواً . ذهاباً وإياباً . . وأن ندق أبواب الأصدقاء . وأن نلقاهم في بيوتنا . وأن تتسع العواصم فتشمل كل البلاد ، وأن تنفتح كل الصدور فتحوى كل القلوب ، وأن تنفتح كل الرءوس فتضيء كل العقول .

وبدلاً من أن نلعن الخلافات والاختلافات بيننا . . وبدلاً من أن نلعن الظلام يجب أن نضيء شمعة . ولقد أضيئت عشرات الشموع . فكانت الدار البيضاء أكثر بياضاً وأعظم أملاً !

إن لم تكن هناك معركة اخترعناها

من النادر أن تجد كاتباً أو فناناً يقول لك : الحمد للّه . . صحوت من النوم مستريحاً تماماً كأنني ولدت من جديد . ولذلك أمسكت القلم ورحت أكتب !

أبداً . ولا واحد كاتب ولا واحد رسام ولا واحد موسيقار . .

فالراحة التي يجدها في جسمه أو في نفسه ليست هي الشرط المناسب لأن يكتب أو يرسم أو يلحن . وإنما العكس هو الصحيح . . فهو يقول لك : يا أخي قرفان . . زهقان . . لا أريد أن أجلس ولا أن أقف ولا أن أخرج ولا أن أنام فأمسكت ورقة وقلماً ورحت أعمل !

وإنما لأنه قرفان وزهقان جلس يكتب أو يرسم . . فلا بد أن تكون هناك حالة مسيطرة على الكاتب أو الفنان . هذه هي الحالة التي يريدها لكي يقاومها . . ومن الرغبة فيها والرغبة في التخلص منها . من هذه المقاومة . . من هذه المعركة تتولد حركة التحرير . . أي الكتابة والتحرر من هذه المضايقات التي إن لم

يجـدها ، فـإنه يخلقهـا . . فهو يصنـع المعركـة . . يصنعها أو يصطنعها . وفي مواجهة هذا التحدي تتـولد الأفكـار وتتخلق الصور !

بـل من الممكن أن يجلس الكاتب سـاعات أمـام الـورق والقلم فلا يكتب . . ولكنه يكتب في آخر لحظة . . وهو يختار آخـر لحظة لكي يخلق في داخله رغبـة في الاستعجـال . . في الانتهاء بسرعة . . فمن مقاومة الزمن . . ومن مقاومة الضيق والـرغبة في الانصراف عن الكتـابة . . ومن هـذا «التحـدي» ينتصر على نفسه فيكتب !

أي لا بد أن تكون هناك حالة مسيطرة على المفكر والفنان : سعـادة غامـرة . . تعاسـة خانقـة . . غضب شديـد . . فزع قاتل . . بغير ذلك : لا آدب ولا فن . .

ويقال إن الخليفة عبد الملك بن مروان سأل شاعراً : أنت لم تعد تقول شعراً الآن ؟!

فأجاب الشاعر : كيف أقول وأنا لا أشرب ولا أطرب ولا أغضب ؟!

وأنا أصدق الشاعر الأمير عبد اللّه الفيصل عندما وصف نفسه : بالشاعر المحروم !

وهو الأمير الغني جداً !

ولكنه محروم من ألا يكون أميراً وألا يكـون فقيراً معـدماً معذباً جائعاً فـاشلاً مضـطهداً مقهـوراً يدق أبـواب الناشرين ويتلمس النقاد ويبحث عن خرم ابرة يطل منه على الدنيا . .

فعلاً محروم . ومن هذا الشعور بالحرمان يتولد الشعر عنده . . ويكون الشعر نوعاً من التحدي لكل هذه الظروف العاتية التي لا تريده أن يكون شاعراً !

والشاعر الذي ينادي بالحرية والإنطلاق . . ويكره الأبواب والنوافذ والأغلال والقيود والسدود والقانون ، هذا الشاعر محبوس في الكلمات وفي الأوزان وفي القافية . . ولا بد أن يقول كلاماً له معنى . . وأن يكون الكلام جميلاً وأن يكون الجمال موسيقياً . . وأن يكون جديداً . .

فالشاعر لا يجلس في الهواء الطلق ينظم الشعر . . ولا الكاتب ولا الرسام ولا الموسيقار . . إنهم يضعون حولهم القيود . . يغلقون النوافذ والأبواب ويتحدثون عن جمال السماء والنجوم والقمر والنسيم وأمواج البحر . . كل ذلك من وراء الأبواب .

انظر إلى إناث الحيوانات عندما تكون في حالة حمل . . أنظر إليها وقد دفعتها الغريزة إلى أن تختار مكاناً بعيداً عن كل الحيوانات الصديقة والمعادية . . فلا تأكل ولا تشرب . . كأنها مريضة تموت . . مع أنها ذهبت لكي تقوم بأعظم أعمال الإبداع : الخلق . . أن يولد منها مخلوق جديد . . أنظر إليها وهي حائرة تبحث عن مكان هادىء دافىء لتضع مولودها . . تدور تدور كأنها تقتل حيواناً عدواً . . مع أنها تضع أعز ما تملك . . إنها في حالة ولادة . . وكذلك الفنان . . ينشد العزلة الآمنة ، والدفء والألم والقلق في أضيق مكان .

والفنان لا يكره السجن . . إنه يختاره لنفسه . . إنه يكره

السجن المفـروض عليه . . ولكنـه لا يعيش إلا في سجن من صنعه . . صومعة . . قوقعة . . الجدران العالية التي تعزله عن الناس ، الجدران الصماء التي لا ينفذ إليها صوت أو ضوء . . في هذا السجن الانفرادي الاختياري تولد أجمل الأفكار . .

إن العقل الإنساني الذي هو مصدر النور والحرية والحضارة ليس إلا غرفة مـظلمة . . فـالعقل مصـدر النور هـو صومعـة مظلمة . . كـما أن الشمس التي هي مصدر الحيـاة ليست بها حياة . .

وأستاذنا العظيم هو حيوان اللؤلؤ . . إنه حيـوان مسكين ضعيف هزيل هلامي يعيش في صومعـة صماء . . بعيـداً عن الضياء والضوضاء . . وفي هذه العزلة الهـادئة يـوارب أبوابـه ليعيش على كائنـات صغيرة في المـاء . . وتتسرب إليه ذرة من الرمل . . إنه يفتح الباب لكي يتسرب الألم على شكل ذرة من الرمل . . هذه الذرة تقف على لحمه الهلامي الحساس ويتوجع الحيوان ويغلق أبوابه على هذا الألم . . ثم يفرز مادة فضية حول هـذه الذرة لكي يعـزلها عن بقيـة الجسم . . ومن هذه المـادة الفضية تتكون حبة اللؤلؤ . .

فليست حبة اللؤلؤ إلا محاولـة مستمرة مـرهقة ولسنـوات لاحتـواء الوجـع . . وهو الـذي أدخل الـوجع ، وهـو الذي يعزله . . ومن احتواء اولم وعزله وإظهاره وإبـرازه يكون الفن الجميل : حبات من اللؤلؤ . . من العرق . . من الدمع . . من العناء ليلاً ونهاراً . . فنحن لم نكن نعرف مواجعه . . ولكن هذه اللؤلؤة أكدت لنا ذلك . . فإذا كان الألم قبيحاً فإن التعبير عنه

تحفة فنية . . وإذا كنا لم نر الحيوان وهو يتوجع ، فنحن رأيناه وهو يتسامى بالألم . . حتى رحنا نهتف معه وله : يعيش الألم إذا كانت نتيجته حبات من اللؤلؤ !

وكـذلـك يعيش الفن بعـد مـوت الفنـان والشـاعـر والموسيقار . .

إن المتصوف الألماني العظيم اكهارت له عبارة خالدة : إن أعظم حيوان ينقلك إلى الكمال : الألم !

قال الفيلسوف الألماني شوبنهور : قل لي ما الذي يوجعك ، أقل لك من أنت !

ونحن نصف الذين يتأملون الحياة بعيداً عن الأحياء بأنهم سكان الأبراج العاجية . . الأبراج العالية . وهي ليست تهمة وإنما هي ضرورة : فأنت لا ترى الحياة إلا إذا ابتعـدت عنها قليـلًا . . ولا ترى شمـولهـا إلا إذا ابتعـدت عنهـا كثيـراً . . وارتفعت وارتفعت . . وفي اللغات الأوروبية يقولون : نـظرة عصفـور . . أي منـظر الأرض كـما تـراهـا من فـوق بعـين عصفور . .

ومنذ شهرين قابلت في مدينة الرياض رائد الفضاء السوفيتي تيتوف الذي دار حول الأرض ٣٦٥ يوماً . قال لي : في أول يوم في الرحلة كنت أبحث عن بيتنا لكي أراه من فوق . . وفي اليوم الثاني كنت أبحث عن مدينتنا . . وفي اليوم الثالث كنت أبحث عن الأراضي الروسية . . وبعد ذلك عن أوروبا . . وبعد ذلك كنت أرى الكرة الأرضية كلها شيئاً باهتاً تـدور حولهـا سحب

بيضاء . . وبعد ذلك اتجهت بعيني إلى الكون . . إلى النجوم . . إلى السدم . .

فكلما ابتعد الإنسان رأى الصورة الأكبر والأشمل . . وبعد ذلك قال لي تيتوف : لم أعد في حاجة إلى أن أنظر بعيني . . وإنما أتخيل كل ذلك وأكتب وأكتب !

* * *

أما الأديب الوجودي البير كامي فيري أننا جميعاً نعيش في بطن الحوت . . وليس يونس عليه السلام وحده الذي ابتلعه الحوت ثم ألقى به عند الشاطىء . . نحن جميعاً : الحوت ويونس . . فالحوت هو الناس . . الجماهير . . الضوضاء . . الأضواء . . الدخان . . السموم . . الخوف . . القلق . . الجوع . . والقيود . . ونحن نعيش وسط أنياب هذا الحوت . . وفي جوفه . . وفي ظلام الحوت . . وخوفاً منه . .

ومن الخوف من الحوت ومن الوحدة المظلمة في حوفه تتولد كل قدراتنا على التحرر والتحدي والخلاص !

وكنا نندهش ونحن شباب كيف إن الفيلسوف العظيم سارتر كان يكتب في أحد مقاهي باريس . .

ذهبت إلى هذا المقهى واسمه «دي فلور» في باريس . . وأشار الجرسون : هنا كان يجلس زعيم الوجودية سارتر . . وهنا كنت أضع له زجاجة النبيذ وعلبة السجائر . . أما الورق والأقلام فكان يأتي بها !

ونظرت إلى المكان فوجدته بلا أبواب . . ووجدت رائحة

السجائر وبخار البن وضوضاء المقهى والشارع كلها تنهال على الأديب . . ويكون كل ذلك تحدياً له أن يتفرغ للكتابة . . فهو الذي اختار هذه التحديات ليتغلب عليها . . ومن الانتصار على كل ذلك تنطلق يده على الورقة بحرية كاملة . . تماماً كما يرتدي الإنسان ملابس كثيفة ويواجه البرد ، ويرتدي حذاء غليظاً ويقاوم الإنزلاق ، ويضع منظاراً أسود ليواجه الأشعة . لقد جاء إلى المقهى وقد أرتدى ملابس الميدان ليواجه الخطر ويعيش . . وتكون حياته انتصاراً لكل أسلحة الوقاية !

وكان الصديق الفنان كامل الشناوي لا يكتب إلا وسط الضوضاء . . فإذا حاولنا أن نسكت أو نهمس لكي يتمكن من المضي في الكتابة فكان يلتفت إلينا منزعجاً : لا تسكتوا تكلموا حتى أعرف كيف أكتب !

وكان الموسيقار العبقري موتسارت يطلب إلى زوجته أن تحكي له أي شيء وهو يعزف على البيانو . . فإذا سكتت طلب إليها أن تمضي في الكلام . . ورغم التركيز العظيم أثناء إبداعه العبقري ، كان يقول لها : أنا سمعت هذه الحكاية قبل ذلك !

وكان القائد العظيم نابليون يملي ثلاثة خطابات في وقت واحد . وله عبارة مشهورة : إنها أسوأ متعة ! أي أنه شيء يضايقه جداً حين يفعل ذلك ، ولكن من الضيق يجد متعته في أن يملي على ثلاثة ضباط رسائل مختلفة تماماً وفي وقت واحد !

أما أستاذنا العظيم العقاد فكان أعجوبة المفكرين . . إن لديه مكتباً صغيراً جداً . لا يناسب إلا طفلاً ابتدائياً . . وكان لا يستطيع أن يدخل بساقيه الطويلتين تحت المكتب . . وكان

المقعد صغيراً أيضاً . . وكان يجلس إلى المكتب بجانب من جسمه . . ويشكو من المصران الغليظ . . فهو يجلس إلى جانب من المكتب بجانب من الجسم . . يده على الورق ويده الأخرى على الجانب الأيسر من بطنه . . ولم يفكر العقاد في تغيير المكتب أو المقعد . . وإنما هو استراح إلى هذا الضيق وهذا القرف . . وكان إذا فرغ من الكتابة أحس بالراحة الشديدة : إنه استراح عندما قال كل الذي يريد . . واستراح من وجع المكتب والمقعد والمصران . . وعندما عرضنا عليه أن نشتري له مكتباً أكبر ومقعداً ألين ، رفض قائلاً : إذا كان المقعد مريحاً والمكتب مريحاً ، فمن أي شيء استريح إذا فرغت من الكتابة ؟!

وكان الشاعر الألماني جيته مثل العقاد يشكو من تقلص عصبي في مصرانه الغليظ ، ولذلك كان يكتب واقفاً . . ولكنه عدل عن الكتابة واقفاً وجلس يكتب وهو يتألم . . وله عبارة شهيرة : ان الكتابة مثل أن يخوض الإنسان في نهر في غابة بها وحوش . . وإذا اختفى النهر والغابة والوحوش ، فما جدوى المعركة ؟!

ومع ذلك فالتاريخ يحتفظ لنا بعدد كبير من العظماء كتبوا في السجون . وكانت كتاباتهم رائعة :

الفيلسوف الفرنسي فولتير .
والروائي الأسباني سرفانتس .
والروائي المسرحي الناقد العظيم أوسكار وايلد .
والأديب الأمريكي أو . هنري .
والرحالة الايطالي ماركو بولو .

والزعيم الألماني هتلر .
والزعيم الهندي نهرو .
والاستاذ العقاد .

ورئيس جمهورية تشكوسلوفاكيا الحالي : هافل .. كتب رسائله البديعة إلى زوجته أولجا . .

والوزير النازي البرث أشبير مهندس الأبهة الألمانية كلها كتب مذكراته ألف صفحة على أوراق التواليت واستطاع أن يهربها مع زوجته وأولاده . .

والمثل العربي يقول : كل ذي عاهة جبار . .
أي أن صاحب العاهة أي الذي حرم من سمعه أو بصره أو ساقه أو ذراعه . . هو الذي ولد والقيود معه ، يظل طول حياته يقاوم ويتخلص ويكون قاسياً على نفسه وعلى الآخرين .

وكان طه حسين أعمى وكذلك المعري والشاعر ميلتون والأديب الإيطالي بابيني . .

وكان مصطفى صادق الرافعي أطرش . والمازني قصيراً أعرج . والبحتري قصيراً دميماً وكذلك الحريري والفيلسوف الساخط المتشائم الدميم أبو حيان التوحيدي .

وأستاذنا العظيم سقراط كان قبيح الوجه والرأس . . لدرجة أن تلامذته كانوا يعتذرون عنه إذا قدموه لمن لا يعرفه فيقولون : لا مؤاخذة إنه رغم ذلك أستاذنا العظيم سقراط .

* * *

وأسباب تفوق الزنوج على البيض أن هؤلاء الزنوج قد

سجنهم اللّه في ألوانهم . . فاللون سجن لم يفلحوا في التحرر منه . . ولذلك تسلقوا على أسوال اللون . . وتفوقوا على البيض في كثير من المجالات . . إنهم يريدون أن يؤكـدوا للبيض أنه رغم أن الجلد الأسود هو السجن الـذي لا يبارحهم ، فـإنهم قـادرون على أن يقفـزوا فوق أسـوار اللون . . ويتفوقـوا على البيض !

ولا يزال كامل الشناوي أستاذ الحرمان العاطفي والرشاقة الفنية . . فلم يكن جميلاً ولا كان رشيقاً ولا كان وسيماً وكـان أزهرياً . . فعـاش طول عمـره يحاول أن يكـون أنيقاً أوروبيـاً متحضراً لأنه يقـاوم في داخله ما لم نكن نعـرف . قال كـامل الشناوي باسم كل الفنانين في التاريخ :

اشتري الحب بالعذاب
اشتريه فمن يبيع ؟!

جاء لا يدري
ذهب لا يعرف

أقدم لك شخصية غريبة عجيبة . . في سطور . . إنه أديب أيرلندي مات في ديسمبر سنة ١٩٨٩ عن ٨٣ عاماً . أبوه كان موظفاً في المساحة ، وأمه ممرضة . وديانته المسيحية . ولم يكن في نيته المسيحية . ولم يكن في نيته أن يكون أديباً ولا كاتباً . . ولكنه وجد نفسه كذلك .

اسمه صموئيل بيكت ، وظهرت بعض مسرحياته على المسرح المصري . واحدة منها اسمها «في انتظار جودو» . والمسرحية من شخصين صعلوكين جالسين معاً يتحدثان في بلادة وغباوة ، وينتظران أن يجيء واحد اسمه : جودو هل جودو هو القدر . . هو التاريخ هو الذي عنده فلوس . . هو الذي عنده فلوس . . هو الذي عنده الحل ؟ لا نعرف ولكنهما ينتظران الفرج . . الرخاء . . السعادة . . الموت . . الذي لا يجيء !

وعندما عرف هذا الأديب أنهم سوف يمنحونه جائزة نوبل ذهب إلى السويد ، وطلب من مؤسسة نوبل ألا تفعل : لأنه لا معنى لذلك . . فهو لم يكتب شيئاً يستحق التقدير . . وهو

شخصياً لم يفهم الذي كتبه ، فكيف فهمته أكاديمية نوبل ؟ ثم ما الذي يقوله للعالم ؟ هل يقول إن الأكاديمية تسخر منه ؟ هل يقول إن الأكاديمية تعطي جوائزها لمن يساوي ولمن لا يساوي ؟ هل يقول للناس إن الأكاديمية تدعو إلى الغموض والضياع ؟ لأنه شخصياً غامض ضائع بين المعاني والوسائل والأهداف وبين الناس ؟!

وهرب من الصحف والإذاعة التليفزيون ، حتى إذا أعلنت الجائزة لم يجدوه . . ولكنهم عثروا عليه في تونس ! .

ولما مات في ٢٢ ديسمبر الماضي ، ظل موته سراً . . كما كان دفنه سراً . . وفي جنازته مشى عدد من أصدقائه اختارهم قبل موته . . وبعد أسبوعين عرف العالم بموته ودفنه وجنازته ووصيته . أما الوصية فهي أن يقرأ الأصدقاء على قبره صفحة كتبها في عشر دقائق . ووقف الأصدقاء صامتين على قبره عشر دقائق دون أن ينطقوا بكلمة واحدة . . فقد كانت الصفحة التي أوصى بقراءتها بيضاء تماماً . . بلا كلمة واحدة إلا إمضاء الأديب !

* * *

فما الذي أراد أن يقوله هذا الرجل الأيرلندي ؟ . . تعلم في إنجلترا وهاجر إلى فرنسا . . وفي فرنسا قابل الأديب الأيرلندي العظيم جيمس جويس . . وعمل سكرتيراً له بلا أجر . ثم ضاق بالحياة في باريس وعاد إلى بلاده . وضاق بالجمود في بلده فعاد إلى باريس . وأمام الاحتلال النازي هرب . . ثم انضم

إلى المقاومة الفرنسية . وفي سنة ١٩٣٢ قرر أن يعيش نهائياً في باريس . وفي سنة ١٩٤٠ قـرر أن يكتب باللغـة الفرنسيـة . لماذا ؟ . . هو يقول : لا أعرف لماذا أكتب بالفرنسية ؟ ولا لماذا أكتب إطلاقاً ؟!

كـأنه قـرر أن يهاجـر من إنجلترا إلى فـرنسـا ومن اللغـة الإنجليزية إلى اللغـة الفرنسيـة . فيظل أجنبيـاً عن بلده وعن لغته . .

ما الذي قاله نيابة عن كل الناس في كل مكان ؟ ولماذا لقى هذا التقدير العظيم الذي يستحقه ؟ ولماذا كانت أعماله المسرحية في خمسينات هذا القرن والستينات في كل عواصم الدنيا ؟

* * *

في يوم كان يتمشى في باريس فجاء رجل وضربه بالسكين في صدره . . حطم ضلوعه . ونفذت السكين إلى إحدى رئتيه . ونقـل إلى المستشفى . وقبل خـروجـه من المستشفى طلب أن يلتقي بالرجل الذي اعتدى عليه وسأله : لماذا ؟ قال المعتدي : واللّه لا أعرف يا سيدي ! . .

هنا جاءت الفكرة الأساسيـة لكل أفكـاره الفلسفية : إن الناس يعتدون على من لا يعرفون . وبغير سبب . . فالعدوان أسبابه غامضة . فلا هو يعرف الرجل ولا الرجل يعرفه . . ولا كان الأديب في حالة استفزاز . لقد كان يمشي هادئاً في حاله . فهل هذه الحـالة تستفـز بعض الناس ؟. الهـدوء أيضاً يفعـل ذلـك . . فأن يكون الإنسـان في حالـه ، هذا يضـايق بعض الناس . . ولكن لماذا لم يصفعه على قفاه ؟ لماذا لم يركله ؟ لماذا لم

يبصق على وجهه ؟ لماذا أخفى السكين في ملابسه استعداداً لمثل هذا المنظر ؟ ! .

صاحب السكين لا يعرف . أن صاحب السكين قرر أنه لن يضرب أحداً على قفاه ، ولن يضربه بالجزمة ، ولن يمزق ملابسه . . ولن يلقي عليه الطماطم الفاسدة . . ولكن لا بد من استخدام السكين . . ولا تهمه النتيجة ! . أن يقتله الناس . . أن يسجنوه . . أن يشنقوه . . لا يهمه ان كان الذي سيعتدي عليه طفلاً أو امرأة أو رجلاً . . ثم إن الرجل كان يبكي على هذه الجريمة التي ارتكبها . . فلماذا ؟ . . إنه لا يعرف لماذا . .

* * *

وفي أحد البارات ذهب الأديب وجلس . فجاءت فتاة جميلة وجلست إلى جواره .

تقول له : تريدني يا سيدي ؟ . .

قال : لا . .

ــ هل أنا دميمة ؟

ــ أبداً ! , . .

ــ هل أنت عاجز ؟

ــ لا . .

ــ هل تخشى أن أطلب منك كأساً من الخمر ؟ . .

ــ لا . . ولكني أريد أن أسألك ؟ . .

ــ أنت أيضاً تريد أن تسألني . . لماذا كل من يقابلني يريد أن يسألني : من أنا ومن أين جئت ؟ ولماذا أنا حقيرة وجميلة في هذا المكان ولست في مكان آخر أكثر إحتراماً ؟ لماذا يريد الناس

أن يعرفوا كل شيء عني ؟ وأنا لا أسأل أحداً من هو ولا إن كان عاشقاً فاشلاً أو زوجاً خائناً ؟ أنا لا أسأل فلماذا أنتم تسألون ؟ . . لماذا يا سيدي ؟ . .

ــ لماذا لا تسألينهم أنت أيضاً إذا أصروا على سؤالك ؟ لماذا لا تضايقينهم حتى لا يضايقوك ؟ . .

ــ ولماذا أضايق نفسي . . وأضايق الناس ؟ إن الكثير من المضايقات أمام هذا الباب يا سيدي . . لماذا لا تترك المضايقات أمام الباب ، كما نترك الوحل في أحذيتنا ؟ لماذا يا سيدي العاقل الحكيم ؟ قل لي أنت . أرجوك ! . .

ــ هل أنت سعيدة لأنك هنا ؟ . .

ــ لا . .

ــ هل أنت سعيدة وأنت هناك ؟ . .

ــ لا . .

ــ لا أنت سعيدة ولا أنت تعيسة . .

ــ بالضبط . .

ــ إذن فلماذا تشربين ؟ . .

ــ لا أعرف . .

ــ هل أحببت ؟ . .

ــ لا . .

ــ ولا حاولت ؟ . .

ــ لا . .

ــ هل أحبك أحد ؟ . .

ــ كلهم كذابون ! . .

ـ هل اعتدى عليك أحد ؟ . .

ـ كلهم كلاب ! . .

ـ هل أنت نادمة ؟ . .

ـ لا . .

ـ ألم تندمي على شيء ؟ . .

ـ لا . .

ـ إذن فلا أنت نادمة ولا أنت غير نادمة ؟ . .

ـ بالضبط . . مجنونة أنا ؟ . .

ـ أبداً . .

ـ عاقلة في رأيك ؟ . .

ـ مؤكد ! . .

ـ إذن فلماذا يراني الناس كأنهم رأوا عفريتاً ؟ . .

ـ إنهم يرون أنفسهم فيك . . فهم عفاريت أيضاً ! . .

ـ أنت لست حكيماً . . أنت رجل منافق . . أنت تأخذني على قدر عقلي . . أنت أيضاً كذاب . . أنت تريد أن تستدرجني في الكلام لكي أستريح إليك وبعد ذلك . . .

ـ هل ترين أني واحد من هؤلاء الكلاب ؟ . .

ـ بالضبط ! . .

ـ ولكن لماذا ؟ . .

ـ لا أعرف ! . .

ـ . . . . .

* * *

وفي إحدى الجنازات لاحظ الأديب أن واحدة تتساند عليه

وتبكي بشدة . سألها : تعرفين الفقيد منذ متى ؟ . .

ـ لا أعرفه ! . .

ـ إذن فما الذي يبكيك ؟

ـ إنها إحدى صديقاتي ماتت في أمـريكا ولم أتمكن من السـير في جنازتها . . وكنت قد أعددت لها هذا الفستان وهذه الورود . .

ـ وهل تتلقين العزاء أيضاً ؟

ـ في صديقتي ؟ طبعاً . .

ـ في هذا الميت الذي لا تعرفينه ؟

ـ كلهم موتى لا نعرفهم . . ولا نعـرف ما الـذي جرى لهم . . ولا ما الذي سوف يجري لهم ولنا .

ـ . . . . .

* * *

وعلى شاطىء البحر جلس الأديب فجاء رجل وجلس إلى جواره . وأتجه إليه وسأله :

ـ ألم نلتق قبل ذلك ؟

ـ لا . .

ـ أبداً ؟

ـ أبداً . .

ـ إذن فكيف أجدني متجهاً إليـك . . وعندي مـا أقولـه لك . . وعندي شعور بأننا ألتقينا يوماً ما . . وكان بيننا حديث لم أكمله . . والآن تجددت عندي هذه الرغبة .

ـ في أي شيء ؟

ـ في أن أكمل هذا الحديث . .
ـ حتى لو أكدت لك أننا لم نلتق أبداً ؟
ـ في هذه الحالة لا بد أن أتركك .

وبعد لحظات جاءت سيدة على صدرها طفل صغير وجلست إلى جوار الأديب . فاتجه هو إلى الطفل وابتسم ، فقالت له : هل تعرف أن هذه هي المرة الأولى التي تداعب فيها ابنك ؟!

ـ ابني ؟

ـ تسأل إن كان ابنك أو ليس ابنك ؟ هذه النذالة التي هي من أهم صفات الرجال في هذا الزمان . . أنا أعرف أنني كنت على صلة بألف رجل قبلك . . وأنا لا أعرف من هو أبوه . . ولكن من المؤكد أن الشهور السبعة التي سبقت ولادته كنت فيها مخلصة لك تماماً . . أنت فقط . . فكيف لا يكون ابنك . . لن أطلب منك شيئاً . . إنه ابني وقد أعطيته اسمي . . ولكن ليس أقل من أن تكون لطيفاً مع طفل . . أي طفل . . فما بالك إذا كان هذا الطفل ابنك ؟!

وفي لحظات جاءت سيدة أخرى وهجمت على الأديب وراحت تقبله بعنف وهي تقول له :

لف ذراعيك حولي أرجوك . . أرجوك . . لا تخذلني . . لا تحتقرني هكذا . . إن ألوف الشبان يتمنون ذلك ولكني أرفض . . أنت لا تعرف الخدمة الجليلة التي قدمتها لي الآن . . أرجوك اتركني على صدرك بضع لحظات أخرى . . نعم . . هكذا . . هكذا .

ثم تركته وقالت له : أنـا اتفقت مع عشيقي إذا رآني في حضن رجل آخر أن ينتحر لأنني خائنة . . وسوف أقتل نفسي حزناً عليه . . شكراً لك يا سيـدي . . إننا نبحث عن سبب لانتحـارنا منـذ أسبوعـين . . وأخيـراً أنت أسـديت لنـا هـذا المعروف . . ولن ننساه أبداً . . إلى اللقاء يا سيدي وراء هذا العالم . . إلى اللقاء . . شكراً !

— . . . . . .

* * *

ما المعنى ؟

المعنى كـما ترى : أن النـاس لا يعرفـون أنفسهم . . مـا يريدون ؟ ما يرفضون ؟ من أجل أي شيء يعيشون ؟ من أجل أي شيء يعتدون ؟ يحبون . . يكرهون ؟ لا أحد يعرف من أين يجيء هؤلاء النـاس ؟ وكيف يختـارون بعضهم الـبعض . . ولكنهم جميعاً يقولون . . وجميعاً يتدفقون . . ولا أحـد يعرف أحداً . . أو يفهم أحداً . فالشيء الوحيد الذي اشترك فيه كل الناس : أنهم مجهولون . . اسماً وإثماً وجسماً . . وأن هذه هي «المادة الأولية» التي يصنع منها الأديب والفيلسوف والشاعر أعماله الفنية . إنه من الظلام يحاول أن يرسم لوحات مضيئة . إنه من الضبـاب يحاول أن ينقش شمسـاً ومن السحاب يـطلق بـرقـاً ورعداً . أحياناً يستطيع وأكثر الأحيان لا يستطيع . فما الـذي قاله ؟ هو يقول : لا شيء ! وما الذي يستحقه على كل ذلك ؟ أكاديمية نوبل تقول : الجائزة !

الأديب بيكت قال بالضبط ما قاله توفيق الحكيم قبل موته بساعات :

ـ إن عقلي في حجم كرة التنس ، ومطلوب مني أن أفهم الكرة الأرضية وألوف ملايين الكرات الأخرى التي تدور في الفضاء ! فهل هذا ممكن ؟ بالطبع لا !

* * *

لقد ولدنا وسط غابات من علامات الاستفهام ، فتركناها وراءنا غابات من علامات التعجب !

أن يكون الفيلسوف ملكًا
والملك فيلسوفا : هذا حلم !

كل فيلسوف يريد أن يكـون ملكاً ــ أي يجمـع القوة إلى الحكمة . فيكون قادراً على نشر آرائه بين النـاس وعلى حمـاية الناس . ووضع سياج حول نظريته وتطبيقها . . ثم الدعوة إلى أن تكون شاملة .

وكل ملك يريد أن يكون فيلسوفاً ــ أي تكون قوته واعية . وتكون لعضلاته أعصاب . ولجسمه رأس ، ولرأسه عيون ترى على هدى الفكر والمنطق . والفيلسوف الملك أو الملك الفيلسوف هو حلم كل العصور ، فالقوة بلا عقل : وحشية . . والعقل بلا قوة : هذيان . .

وكان استاذنا العظيم أفلاطون يرى أن الفيلسوف الملك هو الحـاكم المناسب لكـل زمان ومكـان . وأنه وحـده القادر عـلى العدل . ولذلك تخيل أفلاطون دولة مثالية ، تمنى أن يستطيـع إقامتها في أي وقت . والدولة للأقوياء فقط . أما الضعاف فلا مكان لهم في هذه الدولة . فكل مواطني هذه الدولة أصحاء . وكل قواهم منسجمـة . لا يطغى العقـل على العـاطفة ، ولا

العاطفة على العقل . ولذلك كانت الموسيقى علماً ضرورياً . . لأنها علم السمو وفن الانسجام . والصحة انسجام . والعدل انسجام . والحكم هو انسجام القوة والحكمة ! ولذلك طرد الشعراء من هذه الدولة المثالية . . لأنهم يعيشون على الوهم ويزيفون الجمال ، فهم يثيرون في الناس أحط غرائزهم . ولذلك فمكانهم أمام أبواب الدولة المثالية ، لا داخلها !

وفي التاريخ القديم رأينا الملوك أصحاب رسالات سماوية أيضاً : اخناتون والملك داود والملك سليمان . .

وكذلك كل البابوات والخلفاء الراشدين . .

وكانت حياتهم ملوكاً فلاسفة صعبة . . وأحياناً مستحيلة . . فاخناتون لا نعرف كيف انتهى واختفى . . وثلاثة من الخلفاء الراشدين قد قتلوا . . والملك النبي سليمان والملك النبي داود وكثير من الأنبياء والبابوات كانت حياتهم عذاباً في عذاب . .

وعندما لا يكون الملك فيلسوفاً فإنه يجعل إلى جواره فيلسوفاً . . فالاسكندر الأكبر كان إلى جواره الفيلسوف العظيم أرسطو . .

وموسوليني كان إلى جواره الفيلسوف الشاعر دانتسيو .

وهتلر كان إلى جواره الفيلسوف الفرد روزنبرج .

والنبي موسى عليه السلام طلب من الله : «واجعل لي وزيراً من أهلي : هارون أخي . أشدد به أزري ، وأشركه في أمري . . .» .

وفي بريطانيا كان الأديبان دزرائيلي وتشرشل رئيسين للوزارة وفي فرنسا الأديبان الرئيسان ديجول وميتران .

وفي جنوب أفريقيا : الجنرال الفيلسوف سمطس . .
وفي السنغال : الرئيس الشاعر سنجور . .
وفي روسيا : الفيلسوف لينين . .

* * *

ولا ينسى كل الذين درسوا فلسفة التاريخ تجربة الفيلسوف أفلاطون وفشله العظيم . فقد أعطوه جزيرة . يغلقها على نفسه . ويطبق فيها تعاليمه السامية القاسية . ويختار من يشاء ويطرد من يشاء . ولم يمض وقت طويل حتى هرب الفيلسوف عاجزاً عن أن يكون ملكاً ، أو أنه الملك هرب عاجزاً أن يكون فيلسوفاً .

فصاحب الرأي ليس بالضرورة صاحب الرؤية . وصاحب الفلسفة ليس هو دائماً أقدر الناس على تطبيقها .

ولكن بقي التحدي قائماً : أن يجمع الحاكم بين الاسكندر وأرسطو ، بين هتلر وروزنبرج ، بين الامبراطور الألماني فريدريش الأكبر والفيلسوف الفرنسي فولتير . . بين موسى وهارون . . وقد حاولت ملكة السويد أن تجمع الفلسفة إلى التاج ، فاختارت الفيلسوف الفرنسي ديكارت أستاذاً لها . يعلمها في ساعة مبكرة من كل يوم . . بالضبط قبل موعد الألعاب الرياضية . أما هذا الفيلسوف العظيم المريض فلم يستطع أن يجاري الملكة القوية الصحيحة . فمات الفيلسوف وعاش مدرس الألعاب الرياضية والملكة !

وبسبب هذا التحدي المخيف اعتذر فلاسفة وعلماء عن أن يكونوا ملوكاً مثل العالم الفزيائي العظيم أينشتين رفض أن يكون أول رئيس لإسرائيل . .

الفيلسوف بندتو كروتشه رفض أن يكون أول رئيس لإيطاليا بعد الحرب . .

ولطفي السيد رفض أن يكون أول رئيس لمصر . .

* * *

. . إلا دولة تشكوسلوفاكيا فقد كانت لها تجربة فريدة . . أدركت أن كل تحولاتها السياسية والاجتماعية تحتاج إلى عقل . أما القوة فعندها . وإن استعداد هذه القوة إلى العقل هو أول مبدأ من مبادىء حياتها الجديدة . فعندما كانت هناك حركات انفصالية متعددة ، فالأقلية السلافية تريد أن يكون لها حكم ذاتي . وقد تزعم الدعوة أستاذاً الفلسفة بجامعة براغ توماس مازاريك (١٨٥٠ ــ ١٩٣٧) . هذا الرجل درس الفلسفة فى جامعة فيينا ، ثم صار أستاذا للفلسفة في جامعة براغ . . ولم ينشغل لحظة واحدة عن واجبه القومي . . فلما جاءت الحرب العالمية الأولى خاف على نفسه فهرب إلى معظم الدول الأوروبية . . وقد ألف وزارة في المنفى من أسرى الحرب ثم صار رئيساً لها . وفي نهاية الحرب عندما اعترفت بريطانيا وفرنسا وأمريكا بدولة تشكوسلوفاكيا كان أول رئيس للجمهورية . واستطاع بحكمته وعظمته أن يجعل بلاده أكثر البلاد استقراراً وانضباطاً ونجاحاً ـ أكثر من أية دولة في أوروبا الجديدة . واستقال قبل وفاته بسنتين . . وكان قد رأى شبح الدمار

النازي ، وظلال الدبابات الألمانية وسمع أصداء هتلر في كل العواصم . . ولكنه مات قبل الغزو الألماني . . أما ابنه يان مازاريك فكان سفيراً لبلاده في لندن . . ثم وزيراً للخارجية . ولما استولى الشيوعيون على الحكم سنة ١٩٤٨ . أرغموه على أن يلقي بنفسه من نافذة وزارة الخارجية .

ومات توماس مازاريك أول فيلسوف ملك . .

وفي ظل الشيوعية يتوهم الناس أنهم ملوك فلاسفة . . والحقيقة أنهم لا ملوك ولا فلاسفة . وإنما هم آلات بشرية تحركها فلسفة في موسكو . . وكانت العاصمة التي احتكرت الملك والفلسفة بالنيابة عن الجميع !

وعندما أنهار النظام الشيوعي أخيراً في تشكوسلوفاكيا وفي أوروبا الشرقية التفت الشعب التشيكي إلى عقل ــ فعندهم القوة والإرادة و«روشتة» العلاج السياسي والاقتصادي . فوجدوا أديبهم هافل . أنه روائي دخل السجن وخرج ليدخله سبع مَرات . لم يلق تعذيباً جسدياً . ولم يقاوم . ولم يعترض . وإنما رأى أن فرصته الوحيدة لكي يرى ويشخص الداء والدواء هي أن يظل في السجن . . فالسجن يصبح كما تريده أنت : صومعة . . معملاً . . مخبأ . . محجراً صحياً . .

وله عبارات شهيرة : من لا يدخل السجن ، لم يعرف معنى الحياة الكريمة خارجه !

وقال : لا بد من المستشفى ومن السجن . . في المستشفى علاج لجسمك . . في السجن علاج لروحك !

وكان هافل قد استقر في الشقة التي بناها والـده على نهر فلاتافا . واكتشفوا أنها لا تصلح إلا حظيرة للخنازير . وفي ذلك يقول هافل : عندما طلبوا مني أن أخرج من السجن رفضت . . فالزنزانة مجتمع صغير ، والمجتمع زنزانة كبيرة . . وفي الزنزانة أملك نفسي ، أما خارج السجن فيملكني كل رجال الشرطة . .

ولما رفض الرئيس هافل أن يغادر هذه الزنزانة ، أكدوا له أنهم سوف يجدون له مسكناً مناسباً على النهر نفسه ، وانتقل إلى قصر الرياسة . . وقال : من سجن صغير تحت الأرض ، إلى سجن كبير فخم فوقها !

وأعلن أنه سوف يبقى في موقعه إلى أن يختار الشعب رئيساً حقيقاً . .

لقد قرر أن يبقى ملكاً بلا فلسفـة ، حتى يجيء الملك ، فيعود إلى الفلسفة في خدمة الشعب .

لأنه لا يستطيـع أن يكون الفيلسـوف الملك . . إذ كيف يكون الإنسان شاباً متـدفقاً كـالاسكندر ، حكيـماً رزيناً مثـل أرسطو ـ إنها المعادلة الصعبة جداً والتي لم ينجح في تحقيقها إلا القليلون !

ويقال إن فتاة جميلة ذهبت إلى الأديب الإنجليزي الساخر قبيح الوجه برنارد شو . وقالت له : أريد أن أتزوجك فتكون لنا ابنة : لها جمال أمها وعقل أبيها . . فقال شو : أو يكون لها قبح أبيها وغباوة أمها !

فمن أدرانا أن تكون القوة حكيمة ، وتكون الحكمة قوية — صعب جداً !

فلم تجتمع الفلسفة والملك إلا مـرة واحدة . . في قطعة من الذهب اخترعها الأديب الفرنسي جان كوكتو . . لقد طلب من صديق له أن يصنـع له عملة ذهبيـة لها وجهـان : الاسكندر وارسطو . . لا ينفصلان ولا يطغى أحدهما على الآخر . . إنه حلـم الشعوب وهي تتطلع إلى رؤسائها ، وحلم الرؤساء وهـم ينظرون إلى شعوبهم !

أنا متطرف فقل لي كيف تحاكمني؟!

(١)

كلنا مؤمنون .

وكل واحد له طريقة في التعبير عن إيمانه بدينه أو بمذهبه السياسي . . وقد أكون متشدداً في ديني ؛ فلا أكتفي بأداء الفروض في أي وقت ، وإنما في مواعيدها تماماً . فإذا كنت طالباً خرجت من قاعة المحاضرات أو من المعمل لأصلي . . ولا أكتفي بأن أصلي وحدي . . وإنما أدعو الآخرين إلى صلاة جامعة . ومع أن الدين يعطيني رخصة أن أجمع بين العصر والمغرب وبين المغرب والعشاء . والدين يسر . فإني لا أستخدم هذا التصريح من الدين . وأؤدي الفروض في مواعيدها بالضبط . .

ومن الممكن أن أطلب إلى زوجتي وأمي وأولادي وإخوتي أن يفعلوا مثلي تماماً .

ومن الممكن أن أدعو جيراني أيضاً . . أو زملائي في الدراسة أو في العمل . فأنا هنا مؤمن متمسك بالدين وحريص على أن يكون ذلك سلوكاً عاماً عند الناس . . وقد أطلق

لحيتي . . وأدعو إخوتي وأبنائي إلى أن يفعلوا مثلي ، سنة عن رسول اللّه . . ومن الممكن أن أطلب إلى النساء والفتيات من أهل بيتي أن يتحجبن . وقد تتطوع واحدة منهن فتكون كاملة الحجاب فلا يظهر منها وجه ولا كف . ممكن . إنها الأخرى قد تشددت في مراعاة تعاليم دينها .

وكثير من الناس يمتنعون عن التدخين . لأن التدخين ضار بالصحة . هذه حقيقة علمية . ومن الممكن أن أدعو غيري لأن يكف مثلي عن التدخين . . ثم إنني لا أذهب إلى مطعم عام ، لأن المطاعم عندنا ما زالت مختلطة ــ أي فيها من يدخن ومن لا يدخن . ولذلك لا أذهب إليها . . ولا أركب الأتوبيس وأفضل أن أمشي على قدمي ــ ولنفس السبب أيضاً ! كل هذا ممكن !

وإيماناً مني بأضرار الخضراوات والفواكه التي لا تغسل غسلاً جيداً ، فإنني أغسلها بمواد مطهرة . ومن الممكن أن أغسل يدي بالماء والصابون بعد كل مصافحة لأي إنسان . ومن الممكن أن أغسل يدي بالكولونيا ، كل ذلك دليل على حرصي الشديد على النظافة وخوفي من العدوى . وأنا هنا أوصف بأنني نظيف . . أحب النظافة أو أنني موسوس . . أو أنني زودتها شوية . ولكني نظيف جداً ، وأدعو الآخرين إلى أن يكونوا مثلي !

(٢)

فإذا وجدت أن الصحف والإذاعة والتلفزيون تتهمني ــ وأمثالي ــ بأننا مجانين متخلفون . . وأن مكاننا الطبيعي هو مستشفى الأمراض العقلية أو السجون . . وأننا جهلة . وأننا

مضللون . . ففي نفس الوقت أنا وغيري نؤمن إيماناً مطلقاً بأننا لسنا كذلك . .

ولكن وسائل الإعلام هذه قد خلقت رأياً عاماً قوياً ضدي . . وأنا أرى ذلك في عيونهم وسخريتهم . . وفي الحديث معي والخوف مني . . كأنني أبو رجل مسلوخة . . كأنني الديناصور . . كأنني قاطع طريق . . قتال قتلة . . أخفي أنيابي في فمي ومخالبي وراء ظهري . . ولذلك فهم يعاملونني ، وغيري ، بحذر شديد . .

ويكون رد الفعل بسرعة أن أتخذ موقفاً دفاعياً . ويكون الموقف هو : محاولة مستمرة أن أبدو غير ذلك . وهي محاولة يائسة . .

ولا أملك في النهاية إلا أن استسلم للصورة التي رسموها ؛ فأنا سفاح كما أرادوا . . وأنا مخيف مرعب مجنون . . أفعل بالضبط كما أرادوني . . أكون عنيفاً مع الناس . . مخيفاً لهم . . متآمراً عليهم . . أكشف عن أنيابي ومخالبي . . مع أنني لم أكن كذلك في يوم من الأيام . . ولكن الرأي العام أرادني كذلك . . والرأي العام أقوى . . ومقاومته مستحيلة . . ولذلك فإنني أتحول عن إيماني القوي الهادىء فأكون عنيفاً . وفي حالة دفاع عن النفس . . بل في حالة تحفز ورغبة في الانقضاض والانتقام من الآخرين . . فمن الذي أرادني كذلك ؟

أنا لم أرد ! هم أرادوا . . أنا أحاول أن أزيح هذه الصورة التي رسموها لي . . أمحو معالمها . . أن أغير ألوانها ـ لا أستطيع . .

إذن فهـذه هي بطاقتي الشخصيـة . . ولا حيلة لي في أن أفعـل بالضبط مـا جـاء في هـذه البـطاقـة . . أو في صحيفـة السوابق . . مع أنني لا اعتديت على أحد ، ولا أهنت أحداً ، ولا فرضت رأياً على أحد . .

ولذلك فلا بد أن أفرض رأيي وأن أكون عنيفاً . . لأن هذا هو المطلوب مني ، وهذا هو الذي يتوقعه الناس . .

فلست كما أريد ، ولكن كـما أراد الناس . . لقـد زورني الناس . . زيفوني . . شوهوني . .

أنا مثل فرانكنشتين الذي «خلقه» أحد الأطباء . . عملاقاً بشعاً . . جعله مخيفاً ثم خاف منه . . وفي النهاية كان لا بد أن يعتدي على الطبيب الذي جعله بشعاً . . فرض عليه أن يكون متوحشاً . . فقد عذبته صورته الكاذبة ، وسلوكه الشرير . . ولم يسترح إلا بالقضاء على الطبيب ! .

فهـذا الفرانكنشتـين الذي هـو أنا ، من صنـع وسـائـل الإعلام . . من صنع رجـال الدين ورجـال الأمن . . والذين يزعمون أنهم يفكرون ، وأنني لا أفكر ، والذين يجتهدون وأنا لا أجتهد ، والذين يتمسكون بالدين ، وأنا أشوهه . .

فالمجتمع هو الذي صنع الوحش ، وأخاف منه الناس . . ثم انقلب على الوحش يقاتله ويقتله . .

ان المجتمع يحارب أوهامه . . وخرافاته . . ويصف هذه الحـرب بانها معـركـة بـين العقـل والجنـون ، بـين الاعتـدال والتطرف ، بين الإسلام وأعداء الإسلام ، بين الـديموقـراطية

و«الدينوقراطية» ـ أي حكم الدين ! من الذي قال ذلك ؟ إنهم كل الناس . . إلا أنا !

(٣)

الآن وقد أصبحت هذا (العفريت) فمن الذي يواجهني ؟ . . من الذي يقومني ؟ . . من الذي يعيدني إلى الصواب ؟

ليست الطائرات التي ترش حقول القطن بالمبيدات . . وليس الزبال بمقشته !

وليس رجل الشرطة ببندقيته . . ولا رجل الجيش برشاشته . .

فلا أنا دودة قطن . . ولا كوم تراب . . ولا أنا مهرب مخدرات . . ولا أنا عدو تسلل إلى أرض مصر . . ولا أنا مصاب بمرض الإيدز . .

ولا عندي أصبع سادسة في كفي تحتاج إلى عملية جراحية . .

ولا أنا أدعيت النبوة فهاجمني المشايخ والقساوسة في كل مكان . . ولا أدعيت أن الوحي قد استأنف نشاطه وجاءني بقرآن جديد . . أبداً . . لا قلت شيئاً من ذلك . . ولا في نيتي .

إذن فمن الذي يجلس في مواجهتي ويهزني لكي أفيق . . أو يهمس في أذني لكي يكسبني صديقاً أو خاً أو ابناً أو مواطناً صالحاً . .

إن «الغلطة الأم» التي أنجبت كل الأخطاء هي «معاملة» أمثالي من المتمسكين بدينهم . . إن مجرد رؤية رجل شرطة يقترب مني ويحاول أن يجري بيننا حديثاً أو حواراً مهما كان ودياً ، يجعلني أشعر فوراً أنني لص أو مجرم . كما أن اقتراب عدد من التمورجية ومعهم بالطو أبيض وسلاسل ، يجعلني أشعر أنني مجنون . . وإذا صحوت من نومي لأجد عمالقة غلاظاً ومعهم جلباب أحمر أدخلوني فيه بالقوة ، فمن الطبيعي أن أعتقد أنني ذاهب إلى المشنقة !

إن سلاح المقاومة يدل على نوع الجريمة والمجرم . . بمنتهى الصراحة لا بد أن أتمسك بصورتي التي رسمتها لنفسي وأن ألصقها فوق الصورة التي رسمتها الدولة بكل ما تملك من أقلام وميكروفونات وشاشات . ومن المؤكد أن صورتي التي رسمتها لنفسي وأهلي صغيرة باهتة شاحبة ضعيفة . . وأنا معذور إذا رحت أقلد الصورة الملونة البارزة الضخمة الفخمة التي ابدعتها الدولة . وأن أكون في النهاية ، لا كما أردت ولكن كما أرادت الدولة . فأنا ــ إذن ــ إرهابي متطرف سفاح أعمل على قلب نظام الحكم !

ثم أنني لست كذلك المجنون الذي وجدوه في مستشفى الأمراض العقلية يتكلم بالعقل والمنطق فأدهشهم ذلك . فسألوه : لماذا أنت هنا ؟! فأجاب : لسبب بسيط جداً . . أنا أقول إن الناس جميعاً مجانين ، والناس يقولون ءنني وحدي المجنون . . ولأنهم أقوى مني أتوا بي هنا ، ولأنني أضعف منهم لم أستطع أن آتي بهم هنا !

(٤)

لنترك هذه القصة الخطيرة لحظات لنعود إليها بعد ذلك . .

ما رأيك إذا وجدت رجلاً يقطع شجرة لكي يمسك عصفورة فوقها ؟

ما رأيك إذا وجدت رجلاً يمسك أحد مدافع الميدان ليقتل ذبابة ؟

ماذا تقول لوزير التموين الذي يلقي بكل حصتنا من السكر في البحر الأحمر ليكون حلواً ؟

هل يمكن أن توصف العصفورة أو الذبابة بانهما مجنونتان لأن الصياد قد استخدم اسلحة لا تتناسب مع حجم العصفورة والذبابة ؟!

هل لو علم الإمام في أحد المساجد أن الذين يصلون وراءه ثلاثة أو اثنان أو واحد . . فأصر على استخدام الميكروفون واستدعاء التليفزيون ، لتسجيل ذلك ، هل ترى المصلين مجانين ؟

إذن قل لي أرجوك هل أنا بهذه الخطورة . . فأجد في الإذاعة أربعين برنامجاً . . وفي التليفزيون عشرين برنامجاً . . وفي كل صحيفة باباً وفي كل مجلة باباً . . وفي كل مسجد خطيباً يسب ويلعن أمثالي من الناس الذين يصلون وراءه ؟

من أنا حتى تقام من أجلي مصانع في المدن الجديدة لإنتاج « الشوم » والخوذ الجلدية والحديدية ؟ من أنا حتى تتغطى مصر كلها بطبقة من اللعنات والوعيد والأغلال والجحيم ؟

بذمتك ودينك من هو المتطرف الآن ؟

أنا الذي لا أملك عصاً ولا بندقية أم هي الدولة التي تملك كل وسائل الدعاية والإعلام والبنادق والمدافع والمبيدات ؟

إن الدولة هي التي قالت : إنني خطير !

فصرت خطيراً !

هي التي قالت : التي أفسدت عقول الملايين . . فأطلقت المتحدثين والأقلام والخطباء على الملايين . . هي التي جعلت عند الناس شعوراً مزيفاً بأن الدين في خطر . . ولذلك كانت هذه الجرعة الهائلة من الأحاديث والتفسيرات . .

هل الدولة تعرف الآن أن الناس لم يعودوا قادرين على الاستماع لكل ذلك ؟

هل الدولة تعلم أن ضيق الناس بسبب الرغيف واللحم والمقعد في الأتوبيس والسرير في المستشفى ، وأنه ليس خوفهم على دينهم ، وإنما خوفهم من الذي يدعي أن هناك خوفاً على الدين ؟ إن أي إنسان ليس في حاجة إلى دين ليقول : آه . . إذا أغلق الباب على أصبعه . . وليس في حاجة إلى متطرفين يهدونه إذا «رزع» التليفون لأنه بلا حرارة . . ولا إذا لم يستطع شراء اللحم والطماطم ، أولم يجد له عملاً بعد أن تخرج في الجامعة . . ثم إن هؤلاء «المتطرفين» قد وجدوا في الدين ملجأ . . مخبأ . . مسكناً . . فهم بدينهم يخدمون الدولة أكثر من الذين لا دين لهم . .

(٥)

إن الذي يتهمني بأنني متطرف هو الذي يجعلني أقول : أنا مسلم جداً وسوف أبقى كذلك رغم أي أحد !

وما دمت قد قلت : إنني مسلم . . فمعنى ذلك أنني لست مسيحياً ولا يهودياً ولا بوذياً ولا ملحداً وأنا اعتز بذلك !

وهكذا أجد أن تطرفي قد خلق تطرفاً عند المسيحي . . فهو يقول : وأنا لست أقل تمسكاً بديني . . ولا أقل حرصاً على الدعوة له ، ولا الدفاع عنه ضد المسلمين . . ثم إنني لا أطيق هذه البرامج الدينية التي تحض المسلمين على أن يعادوا المسيحيين . .

إذن فالدولة قد خلقت نوعين من التطرف الإسلامي : تطرفاً عاماً ضد المتطرفين . . وتطرف المتطرفين أنفسهم ضد الدولة . .

وتطرف المسيحيين أيضاً ضد الدولة بأجهزتها وضد المسلمين وضد المتطرفين من المسلمين !

فهل رأيت النتيجة البشعة التي تولدت من مجموعة من الأفكار الخاطئة والتصورات المبالغ فيها ؟ كل ذلك لأنني تمسكت بديني . . وأطلت لحيتي . . فبالله عليك كيف تفرق بين مسلم له لحية ومسيحي ويهودي وفنان وشيوعي ؟ لماذا يكون كل من أطلق لحيته راسبوتين ، ولا يقال عن كل الذي أطلق شاربه ؟ ولماذا يقال على كل من أطالت ثوبها إنها سفاحة ، ولا يقال عن كل اللاتي يرتدين فساتين السواريه في الأفراح والليالي الملاح ؟

هل لأن ذات الثوب الطويل في النهـار غلبانـة ، وذات الثوب الطويل في الليل بنت ناس ؟

* * *

أعذرني لقد اختلطت كل الصور والألوان والأشكال في عيني وأذني . . فلا اعتديت على أحد من النـاس ، ولا في نيتي أن أفعل . . ولا أنا نادم على ذلك ولست السبب وحدي !

وبعد ذلك قل لي : كيف تحاكمني؟ وعلى أي أساس ؟ ولأي سبب ؟!

هــل اللعنـة الفرعونية أصابت الثورة الفرنـسـية ؟!

الزعيم الصيني ماوتسي تونج هو الذي قال : لا ثورة بغير شعر . . أي من غير جمال وموسيقى . .

أي من غير تذوق لحلو الكلام ، الذي سوف يكون رسولاً للتعبير والتمسك به . . ويكون صاحب الكلام الحلو هو الرسول الواجب الاتباع والتضحية في سبيله . .

ولكن ظهرت نظرية جديدة بمناسبة الاحتفال بمرور مائتي عام على الثورة الفرنسية . صاحبة هذه النظرية هي د . ماري ماتوسيان في كتابها الجديد «سموم التاريخ» .

تقول إنها عندما أعادت قراءة تاريخ الثورة الفرنسية لاحظت شيئاً غريباً . فالفلاحون الفرنسيون كانوا في حالة هيسترية . . يصرخون ويمزقون ملابسهم ويحطمون الأشجار ويهدمون البيوت ـ بيوتهم ـ قبل أن يحطموا ويحرقوا بيوت النبلاء . . وأنهم كانوا يصرخون ويبكون وينهارون على الأرض ـ وأدهشها ذلك . فليست هذه أعراض الغضب أو الفرحة بانتصار الشعب على الطغاة . . واكتشفت أن فرنسا في

ذلك الوقت كانت تعاني من نقص في الغلال . ولذلك أكل الفرنسيون قمحاً وشعيراً قديماً . أخرجوه من مخازنهم . واكتشفت أيضاً أن القمح الفاسد قد نبتت عليه فطريات هي فطريات الأرجوت التي هي المصدر الأول لكل عقاقير الهلوسة (ل . س . د) . . هذه الفطريات تصيب الإنسان بالهلوسة وتدفعه إلى العنف وإلى الفزع وتصيبه بالعقم والتسمم حتى الموت بعد ذلك !

فكل مظاهر الثورة الفرنسية كانت بسبب هذا الهذيان والعنف الذي أحدثه «الأرجوت» ـ وإنها وجدت في السجلات الفرنسية ما يؤكد ذلك !

ثم إن محاكم التفتيش في فرنسا وإسبانيا كانت تحكم بالإعدام على السحرة أو الذين يمارسون السحر . . وقد جاء في إعتراف السحرة والساحرات أمام المحاكم : إنهم يشعرون بالنار في أحشائهم . . وأن كرة من النار في بطونهم تتحرك من جانب إلى جانب . . وأنهم يرون أجساماً طائرة . . ويسمعون أصواتاً في الليل . . وأن بعضهم كان يربط نفسه بالحبال حتى لا يقتل نفسه .

وتقول د . ماري ماتوسيان : إن السحرة لم يكونوا مرضى النفس أو العقل . . وإنما كانوا مرضى المعدة والأمعاء . . والسبب هو هذه الفطريات التي ظهرت على غلال فاسدة .

* * *

أرجو أن تعود إلى كتاب من تأليفي بعنوان «لعنة الفراعنة» . في هذا الكتاب أعدت قراءة كل قصص العلماء

والأثريين المصريين والأجانب الذين ماتوا في ظروف غامضة . ولأنها غامضة فقد قيل إنها لعنة الفراعنة . . أي أن أرواح الفراعنة أو حراس قبورهم قد لاحقت كل الذين نبشوا توابيت الفراعنة وأقلقوا أرواحهم ، فأصابتهم بمرض قاتل . . أو أن هذه الأرواح دفعتهم إلى الموت دون أن يدروا .

ولكني اكتشفت أن هذه اللعنة ليست إلا أصابة بمواد سامة أو فطريات سامة أو إشعاعاً ذرياً . وقد اهتدى الكيميائيون الألمان إلى أن القبور التي تظل مغلقة بأحكام ألوف السنين تحتوي على بذور : قمح وشعير وحلبة وهذه البذور يصيبها التلف . فتظهر عليها الفطريات . وهذه الفطريات هي التي تسبب التسمم والهلوسة . . فالباحث عندما يفتح التابوت يدخل برأسه في المقبرة ويمضي وقتاً طويلاً كافياً لأن يمتلىء صدره بالسموم التي تنفذ إلى دمه . .

وبعض المواد الغذائية والمساحيق والمعادن كان لها إشعاع نووي سام وقاتل . . وهذا الإشعاع قد أصاب الكثيرين من الباحثين والعلماء . . ولذلك كان السرطان والضعف العام هو السبب القوي لموتهم المفاجىء أو لموتهم الذي لم يفلح معه أي علاج . وأكثر الذين ماتوا من العمال المصريين الذين كانوا أول من دخل المقابر وأقام فيها طويلاً عاشوا دون أن يدري بهم أحد وكما عاشوا ماتوا يضاً !

فنحن لم نعرف فقط إلا مشاهير العلماء والأثريين الذين أصابهم التسمم والسرطان !

وإذا ذهبت إلى الغرفة (٣٢) من الدور الأرضي للمتحف

المصري فسوف تجد تمثالين في غاية الجمال . . للأمير راحوبت ابن الملك سنفرو وزوجته الأميرة نفرت . . هذان التمثالان قد صنعهما المثال الفرعوني بمنتهى الواقعية . . الأمير له شارب رفيع . . والعيون تكاد تنطق بالحياة . . وكذلك الأميرة . .

ويقول العالم الأثري الفرنسي مارييت إن العمال عندما رأوا التمثالين هربوا من الخوف . فقد ظنوا الأمير وزوجته على قيد الحياة . ويقول مارييت مندهشاً ، دون أن يجد تفسيراً واضحاً : شيء غريب أصاب واحداً من العمال . . ظل يصرخ ويمزق ملابسه وينهال ضرباً على زوجته وأولاده . . حتى كاد يلقي بواحد من أطفاله في النيل . . ولم يمض وقت طويل حتى مات هذا العامل في ظروف غامضة !

إنها السموم التي ملأت المقابر من ألوف السينين !

* * *

وهناك سبب آخر للهذيان . .

فمن خمسين عاماً أصدر أمير شعراء بريطانيا روبرت جريفز كتاباً عن الأساطير الأغريقية . وقال في المقدمة : إن هذه الأساطير هذيان وهلوسة لا يمكن أن تكون من خيال سليم . . وإنما خيال المساطيل والحشاشين . وكان الأغريق يأكلون نبات البشنين أو اللوتس المائي . . وأنهم برعوا في تحضيره .

ويقول أمير شعراء الأنجليز : إن الأساطير التي تجعل الإنسان جبلاً والجبل نباتاً والنبات عروساً ، وتجعل الآلهة أبقاراً وأغناماً ، والأغنام آلهة . . لا يمكن أن تجيء إلا من عقول مسطولة تماماً !

وهناك التجربة الشهيرة التي قام بها العالم الإنجليزي ألدوسي هلكسلي : لقد حقن نفسه بمادة المسكالين وطلب إلى زوجته أن تراقب التغييرات على وجهه وأن تسجل كل ما يقوله . فكان يقول : أرى أنهاراً وغابات وفتيات جميلات . . وأوزاً وطيوراً خطراء صفراء زرقاء وأجدني طائراً في ثوب أبيض . . وأرى نفسي أوزة ثم عصفوراً ثم تمساحاً ثم ملكاً ثم برغوثاً . . الخ . .

وكذلك فعل الشاعر الفرنسي بودلير . .

والأديب الألماني هوفمان في أقاصيصه الشهيرة التي يتحول فيها الإنسان حيواناً ، والحيوان إنساناً ، ثم ناراً ثم جهنم ثم جبالاً من الجليد . .

* * *

ويرى أمير شعراء الإنجليز روبرت جريفز إن «الف ليلة وليلة» ليست إلا خيال حشاشين أيضاً . ففي قصص ألف ليلة وليلة (١٢٠ قصة) توجد الطيور التي تحمل الحيوانات وتوجد الحيوانات التي في حجم الجزر . . والإنسان يدخل بطن الحيوان والحيوان يتحول كما يريد إلى ماء ونار وجبال . . والعفاريت إلى بشر والبشر إلى طيور وإلى أي شكل يريده الإنسان . . إنها نفس الأساطير الأغريقية مع فارق واحد هو : إحترام الدين وتعاليم الإسلام . بينما الأساطير الأغريقية تجعل الإنسان قادراً على صنع الآلهة على صورته هو . . بينما الأديان السماوية تقول إن اللّه قد خلق الإنسان على صورته !

* * *

وفي كتاب د . ماري ماتوسيان إن الكثير من الفلاحين الذين جاءوا إلى العاصمة الفرنسية لم يكونوا يعرفون بالضبط ما الذي حدث في باريس . . وقد سجل أحد المؤرخين المعاصرين للثورة الفرنسية أنه سأل عدداً من الفلاحين إن كانوا يعرفون أحداً من زعماء الثورة فقالوا : أبداً . . إن كان أحد منهم له شكوى خاصة ضد أي أحد . . فقالوا : أبداً . . ولما وجد فتاة جميلة تمزق ملابسها سأل أمها : إن كانت قد فشلت في حبها ، إن كانت قد فشلت في زواجها ، إن كانت مريضة ولا تزال بلا علاج . . وكان الجواب : لا . . لا . . لا . .

وتقول د . ماري ماتوسيان : ومثل هذه الفتاة كثيرات وكثيرون في حالة غليان . . وهذيان وبلا قضية . .

فالقضية في داخلهم . . في معداتهم في أمعائهم . . ولكنهم لا يعرفون ذلك . .

وقد اكتشفت د . ماري أن عدداً هائلاً من الحوادث قد وقعت في الريف قبل إشتعال الثورة الفرنسية . . كأنها ثورات صغيرة . ولكن لا علاقة لها بالثورة . تماماً كما يقوم السكارى في إحدى الحانات بتحطيم الأكواب والمناضد وشنق صاحب الحانة . . لا لسبب إلا أنهم أسرفوا في الشراب . ولم يعد أحد قادراً على ضبط نفسه . .

وهذه «الثورات» الصغيرة لم تكن بسبب الغضب على حاشية الملك والغلاء والضرائب والقهر ، وإنما كانت لأسباب أخرى . .

وزعماء الثورة الفرنسية عندما أعلنوا أنهم تعلموا مبادىء

الثورة من أساتذتهم الفلاحين البسطاء ، وأن الفلاحين سبقوا الثوار إلى التمرد ، ربما كان الثوار صادقين في ذلك . وأن كانوا منافقين طبعاً . ولكن السبب الحقيقي هو هذه السموم التي ظهرت على القمح والشعير والشوفان في مخازن الغلال بالريف الفرنسي !

وتقول د . ماري أيضاً إن كل هذه الأعراض لم تظهر بنفس الصورة والدرجة على أهل باريس حيث اشتعلت الثورة !

إن د . ماري ماتوسيان في تفسيرها الكيميائي أو الطبي للتاريخ تفسد أجمل ما في النفس الإنسانية التي ترفض الظلم والقهر . . وترى أن الحياة تهون إذا كان لا خيار أمامها إلا الذل والعبودية !

ولا فلتقل لنا د . ماري ما اسم هذه الفطريات التي يتعاطاها جورباتشوف والتي هربها سراً إلى كل شعوب أوروبا الشرقية . ولماذا تنهار كل النظم بلا عنف في كل مكان إلا في رومانيا ولولا أن البوليس الموالي لشاوشيسكو قد قاوم عواصف التغيير ما انطلقت رصاصة ولا مات أحد من المواطنين . . فهل رومانيا وحدها هي التي تعاطت هذه الفطريات ، أما الدول الأوروبية الأخرى فهي في غاية اليقظة والصحوة . ففيها قامت الثورة بالعقل وبالهدوء . . فلم ينكسر فانوس واحد في المانيا الشرقية وتشكوسلوفاكيا والمجر وبلغاريا ومن قبلها جميعاً بولندا . .

ومن الظلم أن يقال إنهم الحشاشون المساطيل الذين يحركون عجلات التاريخ . .

ولكن يحدث أن يكون الثائر غاضباً كأنه مجنون ، وليس كذلك . . وأن يرى المستقبل الذي لا يراه أحد كأنه ساحر ، وليس كذلك . . وأن يضحي بحياته من أجل الآخرين ، كأنه لا يدري ماذا يفعل ، وفي الحقيقة يدري . .

وفي الثورات يلتقي الخيال والأمل والنبل والتضحية ، والعدل العنيف . .

* * *

أما انتشار المخدرات في زماننا فأحد الأسباب هو الهرب . . لأن الواقع موجع ، والحياة مملة ، والناس يريدون أن يهربوا . . والمخدرات هي أسرع المواصلات التي تنقلنا من عالمنا هذا إلى عالم مزيف . . أما التكاليف ففادحة : فساد ملايين الشبان وحذفهم من حساب القوى العاملة على تطوير الحياة الإنسانية جيوشاً للإبداع والسلام . .

وكما إن لدينا أروع مؤسسات للدواء ، فلدينا أبشع عصابات للفساد . . والحرب ضدها دائرة بادوات حديثة . وحب الحياة هو الذي ينتصر في النهاية . .

والإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يصنع أدوات حياته : الشوكة والسكين والمعلقة والسيارة والطيارة . . وأدوات موته أيضاً : المدفع والصاروخ والسموم والمخدرات . .

ولكن رحلات الإنسان إلى الكواكب الأخرى وعمليات السلام ووقف إطلاق النار . . كل ذلك يدل على أن العقلاء يتحكمون في المساطيل . .

وفي أمريكا نشهد أعظم دليل على ذلك : أنهم يحاكمـون رئيس جمهورية لأنه تاجر مخدرات . . أن إرادة الحياة هي التي تضع في السجن : الموت وإرادة الهذيان والدمار والفساد !

فن سرقة الفن
١- حاولنا ولم نفلح ؟!

في مكتبي لوحة كبيرة للفنان صلاح طاهر . اللوحة عن السلام . وهي اللوحة الوحيدة في مصر . فلم يحاول فنان آخر أن يتحدث عن السلام . رغم إن الفن سلام والسلام فن . وهي الوحيدة التي لم ينفرد بالتفكير في إبداعها . جلسنا معاً . وتحدثنا في الفلسفة والأدب واليوجا والتصوير تحت الماء والفقر الذي هو العنصر المشترك بيننا . وانتهينا إلى اليأس من أن يكون واحد منا غنياً . لأنه لا يوجد أي سبب معقول لذلك . . فلنطلب من اللّه الصحة . أما الفلوس فيجب أن نستحي من طلبها . لأن الإنسان يجب أن يكون معقولاً إذا توجه إلى اللّه . . وانتهينا إلى أن الستر أهم من كل شيء . والستر هو السلام مع النفس ومع الناس . والسلام بين الشعوب . فقد فضحتنا الهزائم العسكرية في ٤٨ و٥٦ و٦٧ . . وربنا سترها في ٧٣ . . وتحقق لنا السلام من يومها حتى الآن . وكانت هذه اللوحة !

وكاد صلاح طاهر أن يجعل أحد أشخاص هذه اللوحة شبه الرئيس السادات . ثم عدل عن ذلك . لأن ظهور السادات في هذه اللوحة تجعلها صورة عادية . . ولكن الرمز والإشارة إلى

ذلك هو الذي يجعلها إبداعاً فنياً . وهذا هو الفرق بـين الخبر والقصيدة . . أو بين الواقع والأمل . . بين الشخص المحدود والمعنى اللا محدود . .

وساومت صلاح طاهر واشتريتها بحـوالي ألف جنيه . . وهي تساوي الآن أضعاف هذا المبلغ التافـه لمثل هـذا العمل الرائع . وهي اللوحة الفنية الوحيدة في كل مؤسسة «دار المعارف وأكتوبر» . وكانت هذه المؤسسة من ١٢ عامـاً قد تعلقت من سقفها وجدرانها شعارات وهتافات غريبة كالتي كنا نجدها على مؤخرة السيارات أو التي نجدها قبل أو أثناء أو بعد الانتهاء من أحد الكبارى ، وقبل زيارة الرئيس : العمل شرف . القناعة كنز . . يد تبني ويد تحمل السلاح . . لا صوت يعلو على صوت الصراف . . كيف تنام وأنت مدين ؟!

ومؤسسـة «الأهرام» هي الـوحيـدة في العـالم العـربي التي تعلقت على جدرانها اللوحات الفنية الضخمـة لأكثر المبـدعين المصريـين . . وقد اشـترى الأهـرام هـذه اللوحـات بعشرات الألوف . . قال لي إبـراهيم نافـع رئيس التحريـر إنها تساوي الملايين . .

وكـانت مؤسسة «روز اليـوسف» قد علقت عـلى جدرانها وممراتها الضيقة لوحـات رسامي الكـاريكاتـير فأهم معـالمها : السخرية والنقد والشجاعة . . ولا أعرف إن كان قد بقي من كل ذلك شيء ! .

أما مؤسسة «أخبار اليوم» فقد حاولت كل ذلك . . ولكن لم يبق على جدرانها لا لـوحة ولا صـورة إلا نموذجـاً من «جرس

الحرية» وتمثال «علي أمين» . . وقد شاعت «أخبار اليوم» أن تظل المطبخ والمصنع للأخبار والأحداث . . ونسيت أو انشغلت تماماً عن كل مظاهر الخدمات الأخرى . . كالمطعم والنادي والصالونات . . وكانت أخبار اليوم صاحبة أعظم وأضخم أرشيف للمعلومات والصور ــ وكلها سرقت ونهبت بعد تأميم الصحافة !

وظهرت لوحة صلاح طاهر في كل صحف العالم بعد السلام مع إسرائيل وإسترداد مصر لسيناء . وفي اللوحة : شمس تضيء في هدوء . . وحمائم السلام وأذرع مرفوعة إلى السماء تطالب المزيد من السلام وأن يبقى الحب والخير والنور بين الناس . . أو بين الناس والسماء . .

وفي يوم زارتني سيدة ألمانية تبيع لوحات صلاح طاهر في أوروبا . رأت اللوحة . وسألت أن كان في الإمكان استردادها . فاعتذرت . وأن كانت ستدفع مبلغاً أكبر . فاعتذرت أيضاً . فما كان منها إلا أن قالت : إذن أفكر في سرقتها ؟

ثم عادت تقول : طبعاً بالاتفاق معك ومع صلاح طاهر !
ادهشني ذلك .

وقلت لعلها حيلة لكي ترفع سعر هذه اللوحة أو تغلي من قيمة بقية لوحات صلاح طاهر . وذلك بأن تنشر الصحف العالمية الفنية خبر السرقة . ثم تسأل النقاد والفنانين عن أهمية هذه اللوحة الوحيدة الفريدة ــ فكرة لا بأس بها .

قلت لها : ولكن كيف تسرقين اللوحة دون تعاون من السعاة أو الحراس ؟

ـ فاتني ذلك !.

قلت لها : سوف أسأل السعاة واحداً واحداً عن كيفية سرقة هذه اللوحة . .

واحد قال : نلقي بها من النافذة . .

وواحد قال : نخلع اللوحة من بروازها الخشبي ونلف فيها بعض الكتب ونهبط بها من السلم . .

وواحد رأى أن في الإمكان الإدلاء بها من الشباك الخلفي إلى الحارة الضيقة . . ويا دار ما دخلك شر !

ورأت هي أن السرقة يجب أن تتم في المعرض . . أي بعد خروجها من باب مؤسسة دار المعارف ، وعلى مرأى من الجميع . .

ويبدو أنها وجدت إن هذه الأفكار ساذجة تماماً لا ترقي إلى المستوى الرفيع لسرقات اللوحات العالمية من المتاحف . . وكيف يدخل اللصوص أثناء تغيير الحرس . . وكيف يستخدمون الأشعة والمغناطيس على النحو الذي رأيناه في أفلام كثيرة من مثل فيلم «توب كابي» . . وغيره .

وكان من رأيها أن أهم ما يساعد على سرقة هذه اللوحة أن أحداً لا يعرفها . . ولكن عندما تتم السرقة سوف تنشر هي صورة منها في تليفزيونات ومحلات أوروبا ! لا بأس !

وبعد أسبوع نشرت هذه اللوحة ومعها صاحبها غلافاً لمجلة أكتوبر . . لتطلبني السيدة الألمانية وتصرخ . . تك . . تك ـ

لقد أغلقت التليفون في وجهي . فقد انتشرت اللوحة الآن ، ولم تعد سراً !

* * *

وعلى ذكر الفقر اقترحت على صلاح طاهر أن يرسم صورة عارية جميلة جداً . وأن يكتب عليها تاريخاً قديماً ــ أي أنه رسمها عندما كان شاباً . وهذه اللوحة اختفت لسبب ما . ثم تظهر في أبوظبي . ويكون ظهورها حدثاً . وفي هذه الحالة تكون عملاً نادراً غريباً . . ويكون مهرها غالياً . . وفي ذلك حل لأزمة مالية مستحكمة . وضحكنا لهذه الفكرة . وفي إحدى الليالي وجدت صلاح طاهر يحكي هذا السر . ولم يعد سراً . وماتت فكرة خاطفة للحصول على مبلغ كبير من المال !

لم تبق إلا فكرة أخرى . وهذه الفكرة ليست جديدة . فقد حاول كثير من الفنانين أن يحصلوا على المال بأن تواروا . . اختفوا . . وأشيع أنهم ماتوا . . انتحروا ، والصحف ووسائل الإعلام تقول وتعيد وتزيد عن حياتهم وأعمالهم ومتاعبهم . وتاريخ فكرة الانتحار . . وفجأة تظهر لهم لوحات فنية . . وتباع بأغلى الأسعار . ويظل الفنان يرسم في الخفاء . . وزوجته أو أصدقاؤه يعرضون لوحاته . . وهكذا يعيش الفنان فقيراً ويموت غنياً . . ويبقى في حكم الميت ، لأنه إن أطل برأسه فسوف يدرك الناس أنه رجل نصاب وأنه خدعهم جميعاً !

وتشجع توفيق الحكيم وقال إنه مستعد أن يتولى هذه الأكذوبة مقابل «عمولة» معقولة . وسوف تكون هذه هي الكذبة الوحيدة في حياته . وأنه قادر على أن يدافع عن ذلك

لأسباب نبيلة . . أولاً أن يجد الفنان مبلغاً كبيراً من المال . وثانياً أن يتقاضى الحكيم عمولة مقابل هذا التسويق . . وثالثاً : أن أكتب أنـا هذه القصـة وأفضح الفنـان والأديب معاً بشرط أن أحصل منهما على موافقة كتابية بكل ذلك ! (لقد جعلت من هذه الفكرة فيلماً سينمائياً بعنوان : آسف للإزعاج . . بطولة صلاح ذو الفقار ورغدة) .

* * *

ولكني وجدت شيئاً أهم من كل ذلك وهو أن يذهب صلاح طاهر نفسه ويتسلل إلى المعرض الذي تقرر إقامته . . ويسرق هو لوحته . ويحاول الخروج بها . ولا يهم ما الذي سيقوله دفاعاً عن نفسه . . سوف يتولى توفيق الحكيم وأنا الدفاع عنه : إنه فنان يسرق أعماله الفنية . . إنه أحس بأن لوحته هذه عن السلام ليس مكانها في أي معرض مصري . . إنما يجب أن توضع إلى جوار لوحة «جورنيكا» للفنان بيكاسو في اليونسكو أو في الأمم المتحدة أو في متحف الاسكوريال بمدريد .

ولكن توفيق الحكيم أدخل تعديلاً على هذه السرقة ـــ وإن كان يرى أن سرقة الفنان لأعماله الفنية ليست سرقة ـــ وذلك بأن يتسلل صلاح طاهر وينزع اللوحـة من الجدار . . وأحملهـا أنا وهـو . . ويسبقني تـوفيق الحكيم إلى الخـروج . . فـإن ألقى الحراس القبض علينا فسوف يشغل هو الحارس ، حتى نتمكن من الهرب باللوحة أو من غيرها !

ولم نعرف ما الـذي يمكن أن نفعله إذا أفلحنا في الهـرب وأمسك الحراس بتوفيق الحكيم !

وفشلت هذه الفكرة . .

ثم طلب مني صلاح طاهر أن يستعير هذه اللوحة ليضعها في معرض سوف يفتتحه الرئيس السادات . وفي ذلك الوقت أعلنت الصحف عن سرقة لوحات عالمية من متحف محمد محمود خليل . ومن الغريب أن الذي جاء يتسلم هذه اللوحة هو المسئول عن متحف محمد محمود خليل ! ــ الأستاذ أحمد سامي ؟! ولم أعرف كيف أعطيه هذه اللوحة ، دون ضمان نعودتها إلى جدارها في مكتبي . واهتديت إلى حل هو تصويره مع اللوحة وهو يتسلمها مني أمام شهود . وكانت الصورة إيصالاً باستلام اللوحة ، أملاً في إعادتها ؟!

وكانت الصورة هي أغرب إيصال ملون وثيقة بشهادة الشهود على أن اللوحة قد أخذت من مكتبي : موظف المتحف والشهود ومصور أكتوبر وأنا !

وكنت قد حدثت الرئيس السادات عن هذه اللوحة الفريدة وعن انتشارها في كل الصحف والمجلات العالمية التي تحدثت عن السلام . ورآها الرئيس ووقف أمامها طويلاً . . وجاء من يهمس في أذنه . ولكن صلاح طاهر اعتذر بأن هذه اللوحة ملك لمجلة أكتوبر ولا يستطيع أن يهديها للرئيس . وجاء من يهمس بأنني لن أمانع !

وعندما التقيت بالرئيس السادات . قلت له : وما قيمة لوحة للسلام في بيت رجل الحرب والسلام ؟! فأنت الواقع واللوحة خيال !

وعادت اللوحة إلى جواري !

وجاءت السيدة الألمانية بفكرة جديدة . . ولكن صلاح طاهر لم يقتنع . فكان من رأيها أن يرسم صلاح طاهر لوحة أخرى وبنفس الحجم ويقول : إن هذه اللوحة هي الأصل ، أما التي في مكتبي فهي مزورة ، وأن أحد الفنانين الشبان قام بتقليدها !

وصرخ صلاح طاهر ليقول : تماماً كأن اعترف أمام الناس بأن ابني الوحيد ليس مني !

ثم إنه لا يستطيع أن يستحضر الحالة النفسية والوجدانية والعقلية التي كان بها .

وعادت السيدة الألمانية بفكرة أخرى ، وهي أن أعلن أنا أن صلاح طاهر كان قد رسم لوحتين من نفس المقاس ليهدي واحدة للرئيس السادات وواحدة للرئيس حسني مبارك . . وأن إحداهما قد سرقت . ولذلك فقد عدل صلاح طاهر عن فكرة الاهداء . . ثم أنني استطعت أن أحصل على هذه اللوحة وأضعها في مكتبي . . ثم تظهر لوحة جديدة مطابقة تماماً من رسم صلاح طاهر . . هي اللوحة التي تنتقل إلى أوروبا . . الخ .

وانكشفنا جميعاً : فلا نحن تجار ولا نحن لصوص ولا نحن قادرون على الكسب من أي طريق آخر غير العرق والعذاب ثم التعبير عن كل ذلك !

وآخر ما اهتدت إليه السيدة الألمانية ومعها بعض تجار

اللوحات الفنية هو أن يجلس ثلاثتنا : الحكيم وصلاح طاهر وأنا أمام هذه اللوحة ونتناول عشاءنا ونحن نتحدث . . ثم نصاب بتسمم أو نموت . . ويكون هذا هو «العشاء الأخير» . . وهكذا تكون وفاتنا عملاً فنياً : اللوحة والموت والجريمة . ما رأيكم ؟ طبعاً قلنا : لا .

وسألناها : ولماذا لا تموت هي وتكون أولى ضحايا السلام . . أو الفن من أجل السلام . . أو السلام من أجل الفن .

ولكنها رفضت تماماً !

* * *

قلت لتوفيق الحكيم : رويت للرئيس السادات هذه الحكايات . . فقال : لو سرقها توفيق الحكيم فسوف أتركها له . .

قال الحكيم : والله كتر خيره . . لكن المصيبة بعد ذلك . . سوف يقال إن صلاح طاهر هو البخيل وليس أنا . . لأنه صديقي ومع ذلك لم يشأ أن يعطيني لوحة عن السلام . . لا مانع . . ولكن سوف يقال أيضاً إن توفيق الحكيم إذا كان يسرق اللوحات في عز النهار ، فهو لص أصيل ، وهو قد سرق أفكار قصصه ومسرحياته من غيره من الأدباء . . وهذه اللوحة هي أكبر دليل على أنه لص ولص غشيم أيضاً . ومعنى ذلك أن الرئيس السادات بنكتة واحدة قد دمرنا جميعاً : صلاح طاهر بخيل وتوفيق الحكيم لص وأنت شاهد على ذلك . . والرئيس يريد أن يتسلى . يا نهار أسود ومنيل يعني نضيع جميعاً في نكتة !

قل للرئيس السادات أنني موافق على السرقة !

قلت : كيف ؟!

قال : ولا حاجة . . الآن لم أعد أخاف من السرقة . . فنحن جميعاً نعرف أنها نكتة . . فلماذا لا نضحك معاً ؟!

عدت أحكي للرئيس السادات ما قاله توفيق الحكيم فضحك قائلاً : توفيق طلع أخبث منا جميعاً !

* * *

واللوحة في مكانها التاريخي والفني على جدار إلى جوار مكتبي . . وقد عرضت عليك كل الحيل التي يمكن أن تؤدي إلى سرقتها . . فإن وجدت طريقة أجمل وألطف فسوف أترك لك مفتاح مكتبي مع الساعي . . وحلال عليك !

٢- لاتمسك الحرامي إنه قديس

كان الأديب الفرنسي بلزاك يسكن غرفة باردة فوق السطوح . جاءه لص . أحس به يفتح درج مكتبه . نهض الأديب وراح يضحك . فتوقف اللص يسأله : ماذا يضحكك ؟

قال الأديب : أريد أن أرى هذه المعجزة . . فأنا لا أجد فلوساً في مكتبي نهاراً ، فكيف تجدها أنت ليلاً ؟ !

وخرج اللص الفاشل . . ولو سرق بضع صفحات بخط الأديب لباعها أحفاده بعشرات الألوف ! فهذا اللص أكبر دليل على الفهم الخاطىء لصناعة الأدب . . فالناس يتصورون أن بقدر ما يكون الأديب مشهوراً ، بقدر ما يكون غنياً !

ويقال إن الأديب العظيم تولستوي ذهب يتفرج على معرض لفنان شاب . فسأله الشاب : ما رأيك ؟ قال تولستوي : لا رأي لي . . أنت قلت كل شيء فلم تترك لأحد رأياً . ولكن قل لي . . كيف تخلط هذه الألوان ؟

قال الفنان : سيدي العظيم إنني أخلطها بدمي !

قال تولستوي : ولكن دمك لا يكفي ؟

قال الفنان : وروحي !

قال تولتسوي : ولكن روحك لا تكفي !

قال الفنان : علمني أنت يا أستاذ الجميع !

قال تولتسوي : بل يجب أن تذوب في ألوانك .. حتى تكون أنت والألوان شيئاً واحداً ! فلا تأكل ولا تشرب ولا تتنفس .. بل تموت في صنع الحياة على الورق !

صح . ولذلك فالفن أن يموت الفنان لتعيش خطوطه وظلاله بعد ذلك !

وعندما سئل الفنان ترنر كيف رسم لوحته الخالدة : رجل في العاصفة !

قال : أبداً .. ذهبت إلى البحر . طلبت من أحد الصيادين أن يضعني في زورق ويربطني بشراع الزورق ويتركني فوق الموج في قلب العاصفة . وهبت العاصفة . وراحت الأمواج تضرب الزورق عالياً هابطاً . وتدقني في قاع الزورق .. ولم أعرف من أين تجيء العواصف .. ولا ما الفرق بين البحر والسماء .. ولا بيني وبين الزورق .. ولا بيننا جمعاً والعاصفة .. يومين حتى كدت أموت من الجوع والعطش والبرد .. فكانت هذه اللوحة !

* * *

ليس الصدق والصبر والتضحية فقط ، ولكن الحرية أيضاً ، أياً كانت النتائج !

فالرسام العظيم بيكاسو عندما جلس أمام الأديبة جرترود اشناين يرسمها . . بعد ساعات قال لها : لقد اقتربت كثيراً من وجهك حتى لم أعد أراه . . سوف أسافر إلى اسبانيا لأكمل اللوحة . . فأنت عندما تجلسين أمامي ، فإنني لا أراك . . ولكن أراك عندما لا تكونين أمامي . .

وقدم لها اللوحة . ولاحظت أنها لا تشبهها . .

قال بيكاسو : صحيح أن اللوحة لا تشبهك الآن . ولكن سوف يجيء وقت تشبهين فيه اللوحة !

ووقع على اللوحة التي بيعت بعد ذلك بمليون دولار لوصفها الدقيق لأعماق الأديبة ؟!

وبعد الحرب العالمية الثانية زاد الاقبال على اقتناء اللوحات الفنية . . فالناس يريدون أن يستمتعوا بالحياة بعد ويلات الحرب . . ونشطت الصناعة والتجارة . . وأقيمت القصور التي تعلقت على جدرانها الأعمال الفنية العظيمة . . وضاعف الفنانون انتاجهم . . وتزويرهم للوحات العباقرة . .

وامتدت الأيدي ترسم وتزور وتسرق وتهرب وتبيع من جديد . .

وتكونت عصابات للسرقة . . وبين العصابات رجال تدربوا على مكافحة الجريمة . الأغراء الأعظم هو الفلوس .

ففي سنة ١٩٦٢ تسلل اللصوص إلى أحد متاحف بريطانيا . . وكانت الأنوار كاشفة والكلاب صاحية ، ورجال

الأمن في كل مكان . . وخرجوا من المتحف بعشر لوحات للفنان الفرنسي سيزان !

وكان من بين اللصوص أحد أساتذة الجامعة في علم الكيمياء الحيوية . . فقد وضع في ملابس اللصوص رائحة للزهور قادرة على إخفاء رائحة الإنسان !

هؤلاء لصوص يريدون مالاً !

وهناك لصوص وطنيون . . فواحد من اللصوص سرق لوحة «يوم صيف» للفنان برت مرسور . اللوحة ثمنها عشرون ألفاً . وتحدث تليفونياً مع مدير المتحف البريطاني وقال له : اذهب إلى الغرفة الكبرى وانظر إلى الحائط على يمينك . لن تجد أجمل اللوحات . . هذه اللوحة ليس هنا مكانها . . مكانها في ايرلندا أيها الانجليز اللصوص !

وبعد أيام أعاد اللوحة . . فوضعها ملفوفة في ورق أنيف أمام باب المتحف !

ومن أشهر حوادث السرقات السياسية سرقة لوحة «موناليزا» للفنان العظيم دافنشي . . ولوحة موناليزا تمتاز بأنها صاحبة الابتسامة الابدية الجميلة . فأنت تراها تنظر إليك من كل ناحية . وابتسامتها عميقة . واختلف النقاد في تفسيرها . قالوا كان دافنشي قد أعد لها فرقة موسيقية تعزف لكي تسعدها . . وقالوا ــ وهذا آخر كلام ــ إنها كانت حاملاً . . ومن هنا كانت ابتسامتها الرقيقة التي لم تستطع إخفاءها ، وإن لم تبح بمعناها !

ففي يوم ٢١ أغسطس سنة ١٩١١ دخل المواطن الايطالي

فنشنزو بروجيا متحف اللوفر في باريس . وحملها في ملابسه وخرج وكان يتوكأ على عصا مدعياً أنه أعرج . أما اللحية البيضاء فكانت مستعارة وكذلك المنظار الغليظ . . والبقع الحمراء والسوداء على أصابعه وجوانب وجهه . . وأما البنت الصغيرة التي كانت تحمل له حقيبته فقد استعطفها أن ترافقه لكي يتمكن من إخفاء اللوحة في البالطو الذي يحمله . .

وبعد شهور أسلم نفسه للبوليس الذي قدمه للمحاكمة . وأمام القاضي اعترف بأنه لا يريد شيئاً . فقط أنه ايطالي وطني وجد من العار أن تكون إحدى لوحات دافنشي العبقري الايطالي معروضة في باريس . . ثم قدم اللوحة !

وكان حكم القاضي بسجنه عاماً !

وأصبح هذا الحكم «سابقة» عند كل القضاة والمحامين . فلا يكاد يعترف لص بسرقته ، حتى يسارع المحامون بتذكير القاضي بسرقة المواطن الايطالي الطيب بروجيا !

وفي سنة ١٩٦٠ تقدم عدد من الفرنسيين لسرقة لوحات فرنسية من المتاحف الايطالية . وأخفوها بعض الوقت . ثم كشفوا عن أنفسهم ليقفوا أمام القاضي ويقولوا : إن مكانها فرنسا وليس ايطاليا !

ولم يشأ القاضي أن يحكم بالسجن سنة ، وإنما سنتين . وقال في ذلك : إن الحكم بالسجن سنة على بروجيا قد شجع لصوصاً آخرين !

وبعد خمسين عاماً من سرقة لوحة «موناليزا» خرج أحد اللصوص بلوحة رائعة للفنان الاسباني جويا . . إنها لوحة «دوق

ولنجتون» القائد الذي هزم نابليون في معركة ووترلو . اللوحة كانت بالمتحف الوطني بلندن . والسارق اتصل بإحدى الصحف وقال : إنه لا يريد اتلافها أو بيعها . . فقط انه يريد «فدية» قدرها ١٤٠ ألف دولار . . تدفعها الدولة لإحدى الجمعيات الخيرية .

ثم حدد الجمعية الخيرية . .

ودفعت الدولة هذه الفدية . وبعد أيام أعيدت اللوحة . ولم يعرف أحد من الذي سرقها !

وكانت هذه اللوحة موضوعاً مثيراً للصحافة البريطانية والعالمية وقتاً طويلاً . ولم يفلح البوليس في الاهتداء إلى اللص . ولا اللص اعترف لأحد . . وذهب اللص مجهولاً في التاريخ . ولكن الباعث الأخلاقي هو الذي بقى . انه يريد أن يساعد إحدى الجمعيات الخيرية !

وفي أحد أفلام جيمس بوند رأينا لوحة الدوق ولنجتون على جدار مكتبه . . دليلاً على أن جيمس بوند قادر على أن يعرف أي شيء ، وأن ذراعه طويلة إلى كل متحف وكل بيت !

أما كيف أعيدت لوحة جويا هذه ؟ فقد نشرت صحيفة «ديلي ميرور» خطاباً جاءها من مجهول يقول انه أودع لفافة من الورق في إحدى محطات السكك الحديد . . وطلب أن يذهب أحد ليتسلم هذه اللفافة . . وفي الخطاب قال المجهول ويبدو من أسلوبه أنه أديب أو فنان : لا أريد مالاً . . فقط أريد مساعدة لجمعية خيرية ترعى كبار السن . . الذين لا يشاهدون التليفزيون !

وكان الناس في بريطانيا في ذلك الوقت لا بد أن يدفعوا أربعة عشر جنيهاً أجراً عن مشاهدة التليفزيون . وأنهى المجهول خطابه بأبيات للشاعر بيرون !

وبعد ذلك لم يطق السارق أن يبقى مجهول الهدف النبيل فقدم نفسه للبوليس . . الذي قدمه للمحكمة .

سأله القاضي : هل لديك أقوال أخرى ؟

قال اللص ؛ لا يا سيدي . . فكل الذي أردته تحقق . .

فحكم القاضي بحبسه ثلاثة شهور مع وقف التنفيذ !

* * *

وفي طوكيو كان للصوص دور آخر مختلف . . فأحد اللصوص سرق لوحة من المتحف القومي للفنان الفرنسي رنوار . . وبعث بخطاب إلى مدير المتحف يقول له ؛ عندك في هذا المتحف لوحات كل عظماء الفنانين في الدنيا . . لماذا لا تضع هذه اللوحة في متحف مدينة « . . » فليس في متحفها لوحة واحدة لفنان معروف . . وأنا أخذت هذه اللوحة . أرجو أن أقرأ وعداً منك بذلك . . وإلا فلن أعيدها !

ونشر مدير المتحف وعداً بذلك . .

واتصل به اللص المجهول وقال له : اللوحة ملفوفة بعناية في داخل سيارة آيس كريم تقف الآن أمام المتحف !

ولص ياباني آخر سرق لوحة لفتاة جميلة نصف عارية . . وبعث بخطاب إلى مدير المتحف يقول له : اللوحة عندي . . ونحن نعيش معاً حياة سعيدة . . أراها على الحائط وأتركها تنام

إلى جواري وأحلم بها في أحضاني . . وأعتقد انني بدأت أضيق بها . فهي لا تتكلم . . ورغم أنني حكيت لها قصة حياتي وفشلي في حبي الأول وزواجي الأول . . ولولاها لكنت انتحرت منذ شهور . . ولها الفضل في ذلك . ولكني لم أعد احتملها . . وسوف أعيدها إليك . . فلست إلا عاشقاً للجمال الذي يصنعه الإنسان . أما الجمال الذي أبدعه اللّه فأنا غير قادر على معايشته . . اللوحة الآن تحت شجرة في بيتك وحولها أكاليل الورد . . شكراً لها !

* * *

وفي سنة ١٩٦٦ اختفت لوحة للفنان بيكاسو من متحف ميونخ . وانتظر المتحف أن يتلقى خطاباً من اللص . . وكذلك الصحف والتليفزيون . وكلها طالبت اللص بأن يعلن عن مطالبه أو رغباته الخاصة . . وأنها سوف تكون مستجابة . مع رجاء خاص ألا يمس اللوحة . .

وأخيراً جاء خطاب من اللص المجهول يقول : إن لوحة بيكاسو تشبه الفتاة التي أحبها ثم خانته مع جار له . . وهو يحاول جاهداً ألا يمزق اللوحة . . وإنما التقط لها ألف صورة . . وكل يوم يضع إحدى الصور في النار . . وبعد ألف صورة وألف حريقة ، لم تخمد نار غيظه على هذه الفتاة . . ووعد المتحف بأنه عندما تنطفىء النار في داخله فسوف يعيد اللوحة إلى مكانها !

وتقدمت فتاة إلى إحدى الصحف تقول : إنه يقصدها !

وفتاة ثالثة ورابعة وخامسة وسادسة . وبعث اللص بخطاب يؤكد أن الخائنة ليست واحدة من هؤلاء . ويلفت نظر القراء إلى

كثرة الخائنات في هذه المدينة ! ونشرت الصحف الألمانية صورة لفتاة قتيلة ومعها صورة فوتوغرافية للوحة المسروقة . ولاحظوا أنه لا يوجد أدنى شبه بين الفتاة واللوحة ـ ولكن اللص هو وحده الذي وجد هذا التشابه . وعرفوا اللص . وهاجموا بيته ليجدوه هو أيضاً قد وضع لوحة بيكاسو المسروقة عند رأسه وهو غارق في دمه !

* * *

وفي يوليو سنة ١٩٦٤ نشرت صحيفة «أزفستيا» السوفيتية مقالاً تحليلياً عن اللصوص في الدول الرأسمالية . قالت : إن هؤلاء اللصوص عصابات تعمل لحساب شركات التأمين . فهم يسرقون لكي ترفع شركات التأمين أجرها عن حراسة اللوحات والمتاحف . . ولا يوجد أي تفسير لهؤلاء اللصوص الذين لا يبيعون اللوحات إلا أنهم عملاء لشركات من اللصوص !

ولكن ظهر اللصوص في روسيا نفسها . وكانوا من الروس . ففي سنة ١٩٦٤ سرق اللصوص سيفاً مرصعاً بالماس من متحف بوشكين في موسكو . وهذه السرقة لا معنى لها . فإن أحداً من الروس لا يملك متحفاً . ولا يملك مجموعة من المقتنيات النادرة . ولن يستطيع اللص أن يبيع السيف ولا أن يهرب به خارج الاتحاد السوفيتي . .

وبسرعة عثر الروس على السيف في إحدى الحدائق . .

وفي سنة ١٩٢٧ سرق اللصوص الروس لوحات من متحف أرميتاج في لينتجراد . . اللوحات كلها للفنانين العظماء :

رمبرانت وتسيـان وبيزانو وتنتوروتو . . وبعد أربع سنوات عثروا على اللوحات في أحد المطاعم . ولا بد أن اللصوص حاولوا تهريبها إلى خارج روسيا . ولكن لم يفلحوا . .

***

وفي مواجهة السرقات الدولية للأعمال الفنية النـادرة ، لا بد أن يكون الانتربول ـ أي البوليس الدولي ـ عـلى فهم تام لكل الأعمال الفنية الشهيرة في الدنيا . . فقد لجأ اللصوص إلى حيل كيمائية والكترونية من الصعب أن يكتشفها الانسان . . فبعض اللصوص يرسمون شخصيات صارخة الألوان على اللوحات الشهيرة . فإذا انتقلت اللوحة إلى خارج الحدود راحوا يزيلون الألوان التي لا تخدش اللوحة الأصلية . . ولذلك استحدثت الاجهزة الالكترونية وأشعة الليزر في كشف هذه الحيل !

٣- فنان ينصحك .. بأن تسرقه !

لم يعرف الفن رجلاً منظماً مثل الرسام السويسري باول كلي (١٨٧٥ ــ ١٩٤٠) . فكان كل شيء يرسمه سواء اكتمل أو ما يزال فكرة فإنه يكتب عنه في مذكراته : لوحة طولها عشرون سنتيمتراً وعرضها ١٤ سم باللون المائي . . موضوعها كذا لم أكملها بعد . . أو : كنت أزور صديقي فلاناً وأخرجت القلم ورسمت على ورقة بيضاء صورة لعاصفة تقترب . . ولم أكملها . وتركتها هناك . . طولها عشرة سنتيمترات وعرضها ٥،٥ سم ــ هدية . لن أطلبها منه بعد ذلك !

أو يقول : زرت كاميليا . . وجدت باب الشقة مفتوحاً . ناديت . لم يرد أحد . دخلت . أعددت لنفسي فنجاناً من القهوة . ووجدت عندها حلوى شهية وفاكهة . شربت وأكلت وجلست ورسمت لها لوحة لفنان جائع يأكل . . اللوحة بالقلم طولها ٢١ سم وعرضها ١٧ سم . أكملتها . ووقعت عليها بإمضائي وسجلت التاريخ . أعتقد أنها تساوي ضعف الوجبة اللذيذة !

وترك باول كلي أكثر من عشرة آلاف لوحة . سجلها كلها في تاريخها وفي أماكنها . . ونوع الورق ومساحته ونوع اللون الذي استخدمه . حتى أفكار اللوحات التي خطرت على باله ولم يكملها سجلها أيضاً ، أملاً في أن يعود إليها مرة أخرى ــ ولم يحدث أن سجل فكرة ثم عاد إليها ! !

مثلاً في مذكراته يقول : فكرة أن أعانق فتاة وأرفض أن أقبلها . . بينما كلبها الصغير ينظر في دهشة كأنه يستنكر ذلك !

ويقول تعليقاً : فعلاً فكرة سخيفة . . فما دمت قد عانقتها فلماذا لا أقبلها . . وإذا كان الكلب يرى أنني هكذا مغفل فلماذا لا يتبول علي أنا وحدي ؟!

فكرة : قابلت ليليان . . عانقتها ببرود . ولذلك يجب أن تكون الألوان سطحية وأن تكون ضربات الفرشاة خاطفة . . لا داعي لأن أصور ملامح وجهها . . كذاب كلب . خنزير . كيف أفعل ذلك وأنا الذي أمضيت الليل حائراً بين الباب والشباك في انتظارها . . في انتظار أن يبعث الهواء بعطرها . . عطرها الذي أحبه . . كذاب . . لماذا انتهز فرصة فرحتي بها ، وأبدو سافلاً كذاباً . الفكرة بايخة ولا يصح تسجيلها . . فليس فيها صدق !

فكرة : صاحبة البيت قصيرة القامة . مؤخرتها مليئة كبيرة . ملابسها قائمة . بايخة . . فأنا أريد أن أجعل مؤخرتها ضخمة لكي أؤكد لنفسي أنها لا تكاد ترى مقعداً حتى تجلس عليه . . كذاب . فأنا الذي أرجوها أن تجلس لكي أرسم وجهها الجميل . . وابتسامتها الأجمل !

***

عندما كان باول كلي شاباً احتار بين الموسيقى والرسم . ثم اختار الرسم لأنه موسيقى الألوان والانغام . ، ولأن الفن انسجام لوني ، ولحن حركي . .

أما الاديب والموسيقار كلاهما فلا نعرف نحن كيف يستخدم الاديب يده في الكتابة ولا من الضروري أن نعرف ذلك . ولكن أصابع الفنان وحركتها على الورق . . بل وأنفاسه وقطرات عرقه . . هذه كلها هي المعاني . . أما الأديب فكلماته رموز إلى معنى . أما خطوط الفنان وألوانه فهي المعنى . . !

ثم ذهب إلى ألمانيا وتعلم الرسم والتفت إليه عدد كبير من الفنانين . وتوقعوا له أن يكون شيئاً . فكان .

وعظمة باول كلي . . تتجلى في ألوانه . .

هذه الألوان اكتشفها عندما كان يتمشى في شوارع تونس . فجأة وجد البحر أزرق . والبيوت بيضاء . والشمس في السماء كانت ينبوعاً متفجراً من الألوان والقوة والعظمة . . هنا في تونس قفز الفنان السويسري باول كلي : من السحاب الأوروبي القاتم إلى الأرض الباهرة الألوان ، البربرية الموسيقى !

* * *

وفجأة في سنة ١٩٦١ برزت صورة باول كلي في كل الصحف الامريكية والالمانية . . وفجأة ظهرت إحدى لوحاته . . وتناول النقاد هذا الفنان الذي عبر المحيط الأطلنطي ليظهر ضاحكاً في الصحف الأمريكية . . ثم عبر المحيط ليظهر في المجلات الانجليزية والالمانية . ماذا حدث ؟ إن أحداً لم

يسمع عنه منذ طرده هتلر من ألمانيا بتهمة: أنه شخص هزيل يدعو إلى مرض الذوق ويشيع الضباب والسحاب بين الناس . . ويضع غمامة من الألوان على عيونهم وعقولهم أيضاً . اطردوه ! وطردوه إلى بلده . .

ماذا حدث ؟ لقد سرق طالب أمريكي لوحة للفنان باول كلي من مجموعة نادرة تملكها سيدة غنية في أحد قصورها في كليفورنيا . اللوحة اسمها : أشجار شابة . سافر بها الطالب إلى أوروبا . . وهناك عرضها على أحد تجار اللوحات . هذا التاجر أتى بأحد الخبراء . أكد الخبراء أن اللوحة حقيقية . وأنها للفنان السويسري كلي . لا شك في ذلك . قيل للطالب : كم تريد ؟ قال : خمسة آلاف دولار ! !

قبض المبلغ وعاد إلى أمريكا .

ولم تشأ صاحبة اللوحة أن تبلغ البوليس . انتظرت بعض الوقت . لعل اللص يتصل بها يعلن عن المبلغ الذي يريده . لم يفعل . ظهرت اللوحة في صدر إحدى الصحف الامريكية . رآها مدير متحف ميونخ . وبعث بخطاب إلى الصحيفة يقول لها : اللوحة موجودة عندنا في المتحف . أنا اشتريتها من بائع محترم جداً بمبلغ كذا . .

انتقل البوليس الامريكي إلى ألمانيا . اتصل بمدير المتحف والبائع الشهير . وعرفوا اسم الطالب . وبسرعة . عرفوا مكان والديه . أعلن الوالدان أن ابنهما يعيش وحده في مدينة كذا . . ولا يعرفان عنه إلا القليل . وأخيراً اهتدوا إلى الطالب . اعتقلوه . اعترف .

والمشكلة الآن : اللوحة الآن أصبحت من ممتلكات الحكومة الالمانية . واللوحة باعها أمريكي . فكيف تنقل اللوحة من حكومة إلى حكومة . لا بد أن تتصل وزارة العدل الامريكية بوزارة الخارجية الامريكية لتتصل بالسفير الامريكي في المانيا ويطالبها بإعادة اللوحة .:. مع استعداد الحكومة الامريكية لدفع الثمن وتكاليف النقل . .

ولكن هناك مشكلة . . أن مجلس الشيوخ الامريكي لا يسمح بدفع تأمينات عن أي شيء مهما كان ، إذا كان هذا الشيء خارج أمريكا . .

مشكلة : لنفرض أن أحداً دفع تأميناً للوحة ، ثم سرقت أثناء انتقالها من مكان إلى مكان ، فمن المسؤول ؟

ووافقت الحكومة الالمانية على إعادة اللوحة إلى صاحبتها . ولكن لم تجد أحداً يتقدم لتسلم اللوحة . فالحكومة الامريكية لا تملك هذا الحق . وإنما الذي يملك هذا الحق هو شركة التأمين عن كل التحف في بيت المليونيرة الامريكية . . وبعد ذلك اكتشفوا أنها ليست شركة التأمين ، وإنما البنك الذي دفع مبلغاً كبيراً لشركة التأمين . .

حتى البنك أعلن أنه لا يستطيع أن يتسلم اللوحة دون تأمين عليها . . ثم هناك مشكلة بين البنوك الامريكية والالمانية في قيمة التأمين . . فاللوحة بعد أن أصبحت مشهورة فالتأمين عليها أكبر . ولكن كم أصبح ثمن اللوحة ؟ لا أحد يعرف بالضبط . ولذلك فلا بد من رأي الخبراء . . ثم من الذي يدفع المكافأة لهؤلاء الخبراء . . وهل مكافأة الخبراء تضاف إلى ثمن

اللوحة أو تضاف إلى التأمين . . أو المخابرات هي التي تدفع كل ذلك ، حلاً لهذا الاشكال . . ونهاية لهذا الصراع الأمني والقضائي بين أمريكا والمانيا ؟

وفجأة ظهرت فتاة تعلن أن برواز اللوحة هي التي اشترته . وأن معها ايصالاً بذلك . . وأنه لا بد من استشارتها في كل ما يتعلق بهذه اللوحة . . فلولا هذا البرواز القوي لتمزقت . . واعترف الطالب بأن صديقته الطالبة هذه فعلاً هي التي اشترت البرواز . . وفجأة ظهر أحد المحامين يقول إن الطالبة قد وكلته . له . . لأنه يستحيل فصل البرواز عن اللوحة وإلا تمزقت تماماً . . فلا أحد يجرؤ أن ينزع هذا البرواز دون مخاطرة بحياة العمل الفني الجميل ؟!

وفجأة تقدم أحد تجار اللوحات يؤكد أن البرواز مسروق من متحفه . وأن البرواز من صنع الفنان العظيم رنوار . . وأن ثمن البرواز وحده لا يقل عن عشرة آلاف دولار !

تعقدت مشاكل لوحة باولي كلي . .

وظهر سارق البرواز واعترف بأنه اشتراه من أحد حراس قصر التاجر الكبير ــ ازدادت العقد والمشاكل القانونية والامنية والفنية والتأمينية والدولية !

فالذين طالبوا بملكية اللوحة سيدة واحدة ، والمطالبون بملكية البرواز عشرون !!

وأمام القاضي وقف سارق اللوحة ومدير المتحف الالماني والتاجر الالماني والخبير الامريكي وعدد من أساتذة الجامعات واللص الشاب .

ولم يعرف القضاء الامريكي جلسة بمثل هذه الروعة والجمال . فقد كان القاضي رساماً وخبيراً في الرسم والنحت والموسيقى . .

سأل القاضي مدير المتحف الألماني : أنت على يقين من أنها للرسام السويسري ؟

ــ نعم يا سيدي .

ــ ومن أين جاء هذا اليقين ؟

ــ من أربعين عاماً من الاهتمام باللوحات الفنية لكبار الفنانين في العالم ومن دراستي الجامعية . . ولأنني أيضاً رسام .

ــ وهل تقطع بأن هذه اللوحة رسمت بألوان الماء أو الزيت ؟

ــ بألوان الماء . .

ــ هل تستطيع أن تقول إن كان قد رسمها في جلسة واحدة ؟

ــ يبدو ذلك .

ــ وما الذي يجعلك لست متأكداً هكذا ؟

ــ لأن في اللوحة درجات لونية . . فبعضها باهت قليلاً وخاصة في الركن الايسر منها . .

وسأل القاضي التاجر الألماني : وأنت تقطع بأنها للرسام السويسري ؟

ــ نعم يا سيدي .

ـ ولماذا ؟

ـ أعرف الرسام شخصياً . . وعايشت لوحاته طويلاً ـ وهي بالماء .

ـ لا . . بالزيت يا سيدي . .

ـ تقول بالزيت ؟

ـ نعم .

ـ وكيف يختلط على الخبراء إن كانت بالزيت أو بالماء ؟

ـ إن هذا الفنان شديد القلق . . فهو يبدأ بالزيت وينتهي بالماء وأحياناً العكس . . وأحياناً يضع القليل من الزيت . .

ـ يعني أنت من رأيك إذا وضع الفنان القليل جداً من الزيت ، تعتبر لوحة زيتية !

ـ نعم .

ـ في تقديرك كم في المائة من الزيت يجعلها لوحة زيتية ؟

ـ ما يساوي ٥٪

ـ وهذه «الكشطة» في الركن الأعلى الأيسر ، حدثت واللوحة مبللة أو اللوحة جافة .

ـ أعتقد وهي جافة . . لأنها لو كانت مبللة لظهر ذلك في الدرجات اللونية في مكان واحد . . في مساحة محددة !

وسأل القاضي أحد أساتذة الفن : لماذا تقطع بأن هذه اللوحة ليست مزورة ؟

أجاب الأستاذ : الفن كما تعرف سيادتك عمل فريد . .

الفنان رسم لوحة واحدة ليس لها نظير . . فاللوحة ليست مثل نسخة من كتاب طبعت منه مائة ألف . . إنها نسخة فريدة وحيدة . . وليست اللوحات مثل علب العصير أو مثل قطع الصابون تستطيع أن تجد مثلها ملايين في أي مكان . . ولذلك فحركة الفرشاة على اللوحة هي هي الفنان نفسه . . ونحن على يقين من الفرشاة وحركتها . . تشبه كل اللوحات الأخرى في عناصر أسلوب الفنان . . أنها للفنان وحده لا شريك له !

وجاء دور اللص الطالب . فقال إن والديه قد اعترضنا على دراسته الفنية ولكنه أصر . فرفض الوالدان الانفاق عليه . فترك البيت ليعمل وينفق على دراسته وعلى الكتب وشراء اللوحات والألوان . . ولم يجد وسيلة أخرى إلا سرقة هذه اللوحة . . ثم قال : إن الفنان نفسه لا يعترض على أن يسرق أي انسان لوحة من لوحاته ما دام يحبها وفي حاجة إلى ثمنها . . لقد كتب ذلك في مذاكراته !

وتطلع إلى الشهود في القاعة ، فأكدوا صحة ما قاله الطالب . ولكن القاضي رأى أنها سرقة ولا شك . وطلب القاضي إلى المحلفين أن ينظروا إلى هذه القضية دون رحمة بالسارق ، مهما ظهرت أسبابه نبيلة . . فهو لص . .

وفجأة وقف أحد الأساتذة يستأذن القاضي إن كان يوافق على نشر حيثيات هذه القضية في كتاب ، باعتبارها مناقشة من صميم النقد وفلسفة الفن والجمال ، . فاعترض جميع الشهود . . لأنه لا بد أن يكون لهم نصيب من عائد الكتاب . . ولا بد أن يستأذنوا الناشرين إن كان هذا من حقهم ، ولا بد من استئذان

صاحبة اللوحة إن كانت توافق على نشر لوحتها بالألوان في هذا الكتاب .

وأعلن القاضي الحكم بالسجن ثلاث سنوات على الطالب . ورفض نشر هذه الحيثيات والمناقشات في أي كتاب من أي نوع دون موافقة ومشاركة الجميع في النشر والثمن !

***

وكانت المخابرات الامريكية هي التي تولت نقل اللوحة من المتحف الالماني إلى المحكمة في كليفورنيا على مسؤوليتها وضمانها ودفع تكاليف النقل والتأمين . أما صاحبة اللوحة فطلبت بيع اللوحة إلى من يشتريها . . واشتراها المتحف السويسري في مدينة جنيف . وانضمت إلى بقية أعمال الفنان الكبير باول كلي .

وفي اليوم التالي اختفت اللوحة في فبراير سنة ١٩٦٣ . ولم تظهر حتى الآن !

٤ـ لا فلوس ولا شهرة :
أكبر سرقة في التاريخ !

سنة ١٩٦٠ هي سنة أكبر وأعظم سرقة في تاريخ الفن . ففي اسبوع واحد اختفت ١٣٢ لوحة وسبعة تماثيل و١٧ بروازاً و٣٧ كوباً من الكريستال النادر !

بدأت السرقات يوم ١١ يناير . . وتوالت بعد ذلك في عدد من القصور والفيلات والمتاحف المعروفة في شاطىء الريفيرا الفرنسي !

فهذا الشاطىء هو تحفة أبدعها اللّه وصانها الانسان . . وجعلها جنة على الأرض . . أو كأنها الجنة من الحور العين . . والشباب والجمال والصحة والثروة والشهرة . فعلى هذه الشواطىء وفي أحضانها وفي سبيلها يعيش ويموت ألمع نجوم الدنيا . .

وقد أحس الناس جميعاً أنه في هذه الاماكن لا أحد يسرق أحداً ولا يقتله . . وإنما السعادة موفورة والراحة مضمونة . . فلا تمتد يد إلى ما في أيدي الآخرين . . فكل شيىء كالبحر : واسع رحب ولا يضيق بألوف المستحمين والنائمين والآكلين والشاربين والمحبين . .

وهم سعداء عندما يجدون الاشياء تبقى في أماكنها لا يمسها أحد . . فإذا ضاعت منك جاكتة أو كاميرا فلا يصح أن تستخدم كلمة «ضاعت» وإنما الأفضل أن تقول إنك نسيتها . . فاختفت عن عينيك . . أو أن عينيك نظرتا إلى ناحية أخرى . . وفي اليوم التالي سوف تجدها ومعها «بوسة» ــ ليست بوسة بالضبط . . ولكن سوف تجد فوقها أو إلى جوارها وردة . . هذه الوردة من فتاة جميلة تريد أن تقول : أنا وجدتها وتركتها . . وكما وجدت الجاكتة ، فحاول أن تجد صاحبة الوردة !

ولم تطلع شمس يوم ١١ يناير ، فقد كان الجو بارداً جداً . والغيوم سوداء قريبة من الأرض . . كأن الاشجار هي التي سحبت السحاب والغيوم لعلها تخفي هذه الجريمة النادرة والفضيحة العالمية . . لقد امتلأت هذه الجنة باللصوص . عشرة شبان . . ويقال خمسة عشر تسللوا إلى عدد من الفلل والقصور والمتاحف . والملاحظات الأولية تؤكد أن أكثرهم من المثقفين جداً . لأنهم لم يختاروا إلا أروع اللوحات الفنية . . ثم انهم لم يستخدموا العنف في نزع اللوحات أو كسر الأبواب . . ولم يحطموا شيئاً في طريق دخولهم أو خروجهم .

كلهم من الشبان ، وربما كانت بينهم فتاة واحدة ، فقد جلست أمام المرآة ووضعت الماكياج وسوّت شعرها ثم وضعت نوعاً جديداً من العطر . .

وعلى الرغم من أن السرقة تمت في الصباح فإن بعض اللصوص لم يفتهم أن يشربوا الشمبانيا والقهوة وبعض الكافيار !

وبعضهم اكتسحته السعادة فراح يرقص موسيقى هادئة .

ولم يعرف أحد أن سرقة تمت . ولكن اللصوص اتصلوا من باريس ببعض الصحف . وحددوا لها القصور والمتاحف وعدد اللوحات .

وسارع أصحاب الفلل ليجدوا المسروقات قد اختفت . ولاحظت إحدى سيدات القصور أنها كانت قد نسيت خاتماً من الماس في مكان ظاهر . ولكن أحداً لم يأخذه ــ كان في استطاعته لو أراد . ولكنه لم يرد !

ولاحظت إحدى السيدات أن اللصوص سرقوا صورة فوتوغرافية لكلب مكسيكي من نوع «شيواوا» . .

واللوحات كانت لكبار الفنانين : مودلياني وستين واتريللو وسزان ورنوار . .

أما أجمل اللوحات فهي التي سرقوها من فندق اسمه «الحمامة الذهبية» . وهذا الفندق قديم . وكان صاحبه يرحب بالفنانين . ولا يطلب إليهم أن يدفعوا نقوداً . . وإنما أن يتركوا له بعض أعمالهم الفنية : لوحات وتماثيل وقصائد . . وقد جمع عدداً كبيراً . . وعندما توفى تركها لابنه الوحيد . . وهذا الابن على عادة أهل هذه الجنة ، لم يتصور أن يسرقه أحد . . بل يكفي أن يزوره الناس ويتفرجوا على روائع الفنانين المفلسين الجياع . . وما الذي يصنعه الجوع بالمواهب . فالعبقرية لا تدين للمال بشيىء ، وإنما لنقص المال ، ولا تدين للتخمة بشيىء ، ولكن للجوع . .

ولذلك فهو لم يؤمن على هذه اللوحات جميعاً . فليس غريباً

ان تمتد إليها الأيدي وتختفي بها . واختفت بها كلها ـ ٤٢ لوحة لبيكاسو ودالي وبراك وفالاتان . . وغيرهم .

أما التقدير السريع لهذه اللوحات فهو سبعة ملايين دولار !

ولكن أجرأ وأضخم سرقة في التاريخ هي التي حدثت يوم ١٥ يوليو ـ غداة الاحتفال بيوم الثورة الفرنسية . . فالناس أكلوا وشربوا ورقصوا ، وكان لا بد أن يناموا طويلاً . . وناموا . وجاء اللصوص واختاروا المتحف الكبير في أجمل مدن الدنيا «سان تروبيز» مدينة الجمال والمال والدلال . . لقد اختار اللصوص هذا المتحف الذي يحرسه رجل في السبعين وزوجته . ومن عادة الرجل أن يصعد على أحد السلالم الخشبية ويقفل باب المتحف بالمفتاح . الباب كبير صفيق . والمفتاح كبير ، والحارس رجل كبير وزوجته كذلك . .

أما اللصوص فقد نشروا لسان القفل فانفتح الباب في هدوء . وخرجوا ومعهم ٧٥ لوحة ـ هذه اللوحات يستحيل بيعها لأنها لوحات شهيرة جداً . فإذا رآها أحد خارج المتحف فهو على يقين من أنها مسروقة . واللصوص أمامهم مشكلة أخرى ، وهي أن مدينة سان تروبيز لا تدفع فدية لأحد عن أحد أو عن شيء . . إذن فهذه اللوحات لا تصلح إلا لجريمة واحدة : أتلافها فقط !

فلا يستطيع أحد أن يبيعها لا في فرنسا ولا خارجها ، ولا أن يعلقها في بيته دون أن يراها أحد ، ويتحدث عنها فيسمع البوليس ذلك . والنتيجة معروفة !

إذن فما فائدة هذه السرقة الكبرى ؟!

واستغرقت هذه السرقة ساعة واحدة . ما بين انفتاح الباب ، وبين صوت موتور سيارة انطلقت بسرعة !

والتقى رجال الأمن ورجال المباحث وحراس المتاحف والأمن الجنائي وخبراء البصمات وبعض علماء النفس . وقرروا أن اللصوص فعلوا ذلك دون هدف مادي . فكل تصرفاتهم تدل على أنهم مثقفون وأنهم يعلمون مؤكداً أن اللوحات لا يمكن بيعها أو تهريبها . ثم إنهم لن يعترفوا . ولن يسلموا أنفسهم للبوليس . إذن فلا بد من إتاحة الفرصة لهم أن يتراجعوا . . ويعيدوا اللوحات إلى أماكنها . ولذلك يجب وقف النشر عن هذه القضية . . ويجب ألا يتوعد أحد هؤلاء الشبان . . وسوف يشعرون بأنهم «سخفاء» فقد ارتكبوا جريمة لا معنى ولا مبرر ولا ثمن لها . . حتى الشهرة الرخيصة لن ينالوها ، لأنهم لن يكشفوا عن وجوههم . .

ورأى الخبراء أن اللصوص سوف يبعثون بهذه اللوحات إلى أماكن متفرقة في فرنسا حتى لا يهتدي أحد إليهم . . ومن المؤكد أن هذه اللوحات سوف تبقى مصونة سليمة . وربما بعث اللصوص باعتذار ، فقد أزعجوا كل الناس !

وكان أول الخيط أن بحث رجال الأمن عن عدد الذين يملكون كلاباً من نوع شيواوا . . أو كانت عندهم كلاب . . ثم ماتت . . أو فقدت . فلعل اللص يكون واحداً من هؤلاء . . وكان من رأى رجال الأمن أن الفتاة التي وضعت الماكياج ربما كانت هي التي أخذت معها صورة الكلب . ولكن لم يصل رجال الأمن إلى شيء !

ولقد عثر رجال الأمن على فردة حذاء بالقرب من المتحف . ولكن لم تؤد إلى شيء . فما أكثر الأحذية والشباشب على البلاجات !

وأول ما تلقى البوليس : صورة الكلب ومعها رسالة رقيقة بخط فتاة تقول : لم أستطع أن أراه كثيراً . فقد كان عندي كلب ومات بين يدي وأنا في الطائرة !

مات متى ؟ وأية طائرة ؟

إنها نفس الفتاة التي جلست إلى المرآة ورأت أمامها خاتماً من الماس فامتدت يدها إلى صورة الكلب !

وتلقى بوليس باريس رسالة من لندن تقول : في مدخل فندق مريديان ومنذ ثلاثة أيام تجد لفة من الورق البني عند موظف الاستعلامات . اللفة باسم (. .) وفي هذه اللفة كل اللوحات الصغيرة المسروقة من قصر المليونير (. .) .

وذهب البوليس ووجد اللوحات سليمة لم يمسسها سوء !

وبعد أسبوع تلقى بوليس باريس مكالمة بصوت سيدة هامسة حاولت أن تخفي معالم صوتها ومكانها تقول : في غابة بولونيا توجد لوحات في عربة طفلة . الطفلة اسمها مرجريت . . أدركوا الطفلة لأنني أراها تلعب وحدها قرب البحيرة . وأخشى أن تسقط العربة واللوحات في الماء . أمها استدرجناها بعيداً !

وبسرعة انطلقت سيارات الأمن إلى غابة بولونيا . . وكانت في الغابة عشرات من عربات الأطفال . . فاليوم كان الأحد . .

ولا بد أن يكون بين الأطفال أكثر من واحدة اسمها مرجريت . . وراح رجال الأمن ينادون في الميكروفونات كل طفلة اسمها مرجريت . ومن الغريب ألا تكون طفلة واحدة اسمها مرجريت في ذلك اليوم . وانتشر رجال الأمن حول البحيرة يراقبونها بعناية دقيقة ويمنعون من الاقتراب منها . . وفجأة نزلت عربة طفلة من إحدى الاشجار كانت مربوطة بحبل . . ولا بد أن أحداً قد سحب الحبل من بعيد وكانت اللوحات في عربة الطفلة سليمة تماماً !

وفجأة نشر الأديب الفرنسي اندريه مالرو ، وكان وزير للثقافة ، مقالاً تحدث فيه عن هذه السرقات وعن نوعية اللصوص . وقال : أنا لا أستبعد أن يكون من بين هؤلاء اللصوص ثلاثة أو أربعة من قرائي . لأن مزاجهم يشبه مزاجي تماماً . ولو كنت قد قررت سرقة هذه اللوحات ما اخترت غير الذي اختاروا ــ فيما عدا انني لا أحب الشمبانيا والقهوة صباحاً !

وتلقى مالرو وزير الثقافة خطاباً بتوقيع أربعة : بالحروف الأولى من أسمائهم . اعترفوا بأنهم من أشد الناس اعجاباً به وبما يكتبه وأنهم أحبوا الفن بسببه . وأنه لو كان استاذاً في الجامعة لجلسوا عند قدميه . . ويكفي أن رجلاً عظيماً مثله ، يتفق معهم في ذوقهم الفني . ولذلك قرروا أن يعيدوا اللوحات في أسرع وقت . وكانوا قد حددوا موعداً بعيداً . واستأذنوا الأديب مالرو في أن يتأخروا بعض الوقت لأنهم مشغولون الآن بتأمين سفرهم إلى الخارج بعيداً عن الأمن الفرنسي !

ونجح الأربعة في الهرب إلى أمريكا وبريطانيا والبرازيل . ولكن أصدقاءهم في فرنسا هم الذين سيقومون بتسليم اللوحات بالطريقة التي اتفقوا عليها . .

أما التماثيل فقد وضعوها في حديقة اندريه مالرو ولم يتنبه حراسها لذلك !

وقد أقام مالرو حفل عشاء لعدد من الفنانين والنقاد ورجال الأمن وقدم لهم التماثيل !

وبقية اللوحات كانت نوعاً من العذاب لرجال الأمن . . فهم يخطرونهم بها واحدة واحدة . . واحدة في باريس وواحدة في بلد تبعد عنها مئات الأميال . . في بيت صغير أو معلقة في شجرة أو في غرفة قسيس بإحدى الكنائس . . أو كفن أحد الموتى . .

وقد أدت هذه الألاعيب إلى ازعاج السلطات . وكان اللصوص قد اكتسبوا أول الأمر نوعاً من التقدير الشعبي . . فهم شبان ولهم نزوات . . ولم يبغوا مالاً أو شهرة . . فقط أن يداعبوا السلطان وأن يزعجوا عدداً من أصحاب الملايين . . أما هذا الذي فعلوه أخيراً من تشتيت رجال الأمن وإضاعة وقتهم وحرق أعصابهم ، فقد جعل رجال الأمن يضيقون بهم ويتوعدونهم . . ثم يعلنون ذلك في الصحف . .

حتى ظهر مقال آخر للأديب أندريه مالرو يقول : انهم ــ أي الشبان ــ يلعبون بكرات من الفضة على أرضية من البلور يحاولون أن يصيبوا أكواباً من الكريستال دون أن يكسروها ــ أي كأنهم يفعلون ذلك .

هذا ما قصده وزير ثقافة فرنسا . ومعنى ذلك أنه يرجوهم أن يكفوا عن التلاعب !

وبعثوا برسائل يعدون فيها بذلك . . ولكن ليس قبل أن . . — ولم يوضحوا ما الذي يقصدونه .

بعد خمسة أسابيع عرف العالم ما الذي يقصدونه بأن يعيدوا أربع لوحات لبيكاسو وبراك ودالي واتريللو . .

أسابيع طويلة من الصمت . . لا تليفونات لا برقيات . .

أول ما تبادر إلى رجال الأمن أن هؤلاء الشبان يستعدون للهرب . . أو لعمل جنوني مثل إحراق هذه اللوحات وإرسال صور الحريق في فيلم لوزير الداخلية . . أو وضع اللوحات كلها في إحدى الطائرات المتجهة إلى الشرق الأقصى وتركها هناك . . أو وضع كل لوحة في طائرة متجهة إلى قارة من القارات . .

وقد حدث أن تطوع شبان آخرون ، غير اللصوص ، بإرسال خطابات يضللون بها الأمن . . ثم مكالمات تليفونية لوكالات الأنباء في ساعات متأخرة من الليل عن وجود اللوحات أو هرب بعض الشبان أو حاجتهم إلى فلوس أو فدية . . وقد أدى ذلك كله إلى إزعاج اللصوص أنفسهم . . فلم يكن من أهدافهم مثل هذا العبث الصبياني . انهم قرروا إعادة اللوحات ، ولكن «ليس قبل أن . .» ولم يحددوا بالضبط ما الذي سوف يحدث . . ولكن هذه الشوشرة قد أعطتهم متسعاً من الوقت للوصول إلى ما يريدون !

وفي يوم ١٤ يوليو — عيد الثورة الفرنسية — تلقى وزير

الداخلية مكالمة من أمريكا . . المتكلم يقول له : سيادة الوزير أنت الوحيد الذي يعرف أين اللوحات الآن . . وأنت الوحيد الـذي سوف يتسلمهـا مع تفسـير واعتذار عن ذلـك . شكراً وآسفون عن كل ما حدث . لقد كنت أنت شاباً يوماً ما ، ونحن ما نزال شباناً . وابنتك شابة مثلنا !

وكانت ابنته تدرس في أمريكا . واتصل الأب بابنته . فلم يجدها . فعاود الاتصال بها . وإذا بها تصرخ : كان في نيتي أن أطلبك حالاً .

ــ لماذا ؟

ــ انهم وضعوا أربع لوحات في شقتي . . نعم اللوحـات الأربع التي تبحث عنها . وكيف ؟! لا أدري !

أما عدد الذين عملوا في البحث عن هؤلاء اللصوص من رجال الأمن والنيابة والخبراء والمخابرات فقد بلغ عددهم ١٢١٥ رجلاً وامرأة في فرنسا وأوروبا وأمريكا !

٥ - النافذة الزجاجية : سرقها نابليون وهتلر !

إحدى مدن بلجيكا اسمها جنت . بها كنيسة . أهم ما في الكنيسة نافذة زجاجية من ١١ قطعة . رسمها الأخوان فان ايك . على اللوحة يظهر الرب والعذراء وهي تتلقى البشارة وإلى جوارها يوحنا المعمدان ، ومن حولهم الملائكة يعزفون والحواريون والأنبياء وفرسان المسيح وآدم وحواء . . ثم الرجل الذي أنفق على هذه اللوحة ومعه زوجته !

واستولى الفرنسيون في القرن ١٨ على هذه المدينة وعلى الكنيسة . وأخذوا النافذة الزجاجية .

ثم أعادوها بعد ذلك . .

ولكن القسيس وكان ألماني الأصل ، سرق هذه النافذة وباعها لأحد التجار الألمان !

هذه النافذة من عمل الأخوين : يان فان ايك وهوبير فان ايك . ولكن اسم الفنان في ذلك الوقت لم يكن هاماً . فهي نافذة تاريخية والسلام . وقد أكمل الأخوان عملهما البديع سنة ١٤٣٢ ، وكان عرضها ١٤،٥ قدم وارتفاعها ١١،٥ قدم .

وفي يوم ٢١ أغسطس سنة ١٥٦٦ هاجم البروتستانت هذه الكنيسة ، وحاولوا نهب هذه النافذة . فما كان من القسيس إلا أن أخفى ألواح النافذة في برج الكنيسة . . ثم نقلها سراً إلى أحد مخازن البلدية . ولما تحولت مدينة جنت إلى المذهب الروتستانتي فكر أبناء المدينة في إهداء هذه النافذة إلى الملكة اليزابث الثانية ملكة بريطانيا . فقد كانت راعية البروتستانتية وهذه المدينة أيضاً .

ولكن أحفاد الرجل الذي أنفق على رسم هذه اللوحة رفضوا نقلها . . ولذلك بقيت في مكانها من الكنيسة .

ولم يعد أحد يسمع عن هذه النافذة ، حتى جاءت سنة ١٧٨١ عندما زار الكاتدرائية الامبراطور يوسف الثاني ملك بوهيمبا والمجر . ورأى النافذة . وأعجبته جداً . . لولا أنه تضايق من أن يبدو آدم عارياً وحواء . ولذلك نزعوا آدم وحواء من النافذة ووضعوهما في الأرشيف !

وفي سنة ١٧٩٤ جاءت قوات نابليون ودخلت الكنيسة . ونزعت ألواح النافذة الزجاجية ونقلوها إلى متحف باريس !

وحاول مدير المحف أن يحصل على بقية النافذة ــ آدم وحواء ــ مقابل لوحات فنية أخرى . ولكن الكنيسة رفضت .

وظلت النافذة ٢٢ سنة أخرى في متحف باريس ! غير أن لويس الثامن عشر الذي هرب إلى هذه المدينة خوفاً من نابليون الذي هرب من منفاه في جزيرة ألبا ، قد أعاد النافذة امتناناً لها ــ وذلك بعد هزيمة نابليون في موقعة ووترلو سنة ١٨١٥ .

ولم تكد النافذة تستقر في موقعها من الكنسية ، حتى سرقها قسيسها الفرنسي ، ، وباعها إلى تاجر فرنسي باعها للامبراطور الألماني فريدريش فلهلهم الثالث . . وكان هذا الأمبراطور يحلم بأن تكون لديه مجموعة فنية أكبر من التي يملكها الفرنسيون في متحف اللوفر . . ونقل النافذة إلى متحف فريدريش في برلين . وغضب البلجيكيون . وطالبوا بعنق القسيس الذي أنكر علمه بهذه السرقة !

وفي سنة ١٨٦١ اتفقت حكومة بلجيكا مع هذه الكنيسة على شراء هذه النافذة ، وبذلك تصبح من ممتلكات الدولة . على أن تبقى النافذة في مكانها بالكنيسة . ودفعت الحكومة المبلغ ، وتم توقيع عقد بهذا المعنى . ثم قررت الحكومة نقل هذه النافذة مؤقتاً إلى متحف الفنون الجميلة في مدينة بروكسل .

ويوم استقرت النافذة في هذا المتحف ، أحس أحد الحراس بأن هناك حركة غير عادية . وراح يتجول في كل جوانب المتحف . لم يجد شيئاً أو أحداً . ولفت نظره أن هناك لفافة كبيرة في جانب من المتحف . وعندما اقترب من اللفافة وجد رجلاً اختفى وراءها . . لم يكن لصاً وإنما واحد أراد أن يتأكد بنفسه أن كانت هذه النافذة تضيء ليلاً !

وبعد ذلك بأيام فوجىء مدير المتحف بأسرة كاملة قد اختفت في إحدى غرف المتحف : رجل وزوجته وثلاثة أطفال وسيدة عجوز . . ولم يكونوا لصوصاً . وإنما قيل لهم إن ضوءاً يخرج من هذه اللوحة يشفي المريض . ولذلك جاءوا بهذه العجوز لعل العذراء تشفيها إذا هي أشرقت عليها !

ونشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، وتنازعت على النافذة ثلاث مدن ، بروكسل وجنت وبرلين . . فكل واحدة تقول إن النافذة ملك لها . . بروكسل العاصمة ترى أن الدولة قد اشترتها . . وجنت المدينة الصغيرة تقول إنها صاحبة الحق التاريخي . . وبرلين تقول إنها دفعت فيها مبلغاً كبيراً . . وقررت مدينة جنت أن تنزع النافذة من مكانها وأن تخفيها تماماً حتى تنتهي الحرب . ووجدوا صعوبة في إرسالها خارج البلاد . ولذلك اهتدوا إلى حيلة . . فقد حصلوا من وزارة الفنون على خطاب بإرسالها إلى بريطانيا . ولكنهم نقلوها في أربعة صناديق وأخفوها في أحد البيوت بعيداً عن الكنيسة . وحدث ما توقعوه فقد جاءت القوت الألمانية تسأل عن النافذة . . فعرضوا عليها خطاب وزارة الفنون . ولم يكن غريباً أن تنتقل أعمال فنية إلى بريطانيا . . ففيها الكثير مما تملكه بلجيكا . . ولكن الألمان لم يصدقوا . وجاء القسيس وأقسم أنه لا يعرف أين هي . وكان القسيس قد طلب من أهل المدينة أن يخفوا النافذة دون أن يدلوه على مكانها حتى إذا أقسم أنه لا يعرف كان صادقاً .

وكادت النافذة تقع في أيدي الألمان وتقع من أيديهم أيضاً . . فقد حاصروا منطقة وراحوا يقلبون البيوت ويهدمونها بحثاً عن النافذة . . ولكنهم لم يهتدوا إليها . . فجاء أهل المدينة ونقلوها سنة ١٩١٨ إلى مكان آخر في عربة تحمل المخلفات القديمة من الخشب والحديد . .

وانتهت الحرب . ووقعت ألمانيا اتفاقية فرساى ــ ٤٤٠ مادة !

ولكن المادة ٢٤٧ هي التي أغاظت الألمان . فهذه المادة تطالب الألمان بإعادة كل اللوحات الفنية والتماثيل والتحف والكتب والمخطوطات التي سرقوها . وبمقتضى هذه المادة أعاد الألمان جانباً من النافذة إلى بلجيكا . وأعادوا أيضاً لوحة اسمها «العشاء الأخير» كان قد رسمها الفنان ديريك بوتس . . وأعادوا لفرنسا مئات اللوحات والتماثيل !

ويوم أقامت ألمانيا معرضاً للفنان البلجيكي فان ايك وضعوا لوحة بيضاء كتبوا عليها : هذا المكان كان مخصصاً للوحات التي اشتريناها واستردتها بلجيكا بمقتضى معاهدة فرساى !!

وكان عيداً قومياً يوم عادت اللوحات والتماثيل المشهورة إلى بلجيكا : الطبل والزمر وأجراس الكنائس والنشيد الوطني في كل مكان . . والزهور تلقى على العربات التي نقلت اللوحات من برلين والدموع في العيون والأطفال على أكتاف الآباء والأمهات والمرضى في النوافذ !

وتشددت الحراسة على الكنيسة في مدينة جنت ، التي أصبحت أشهر كنيسة في التاريخ . . والتي أصبحت نافذتها الزجاجية أكثر التحف انتقالاً في الحرب والسلام بين العواصم الأوروبية !

ويوم ١٠ ابريل سنة ١٩٣٤ تسلل لص إلى كنيسة مدينة جنت وسرق لوحة زجاجية اسمها «القضاة العدول» وهرب . ولم يعرف أحد من الذي سرقها . ولا لماذا ؟ ولكن رجلاً مريضاً اتصل بالقس وقال له : أنا الوحيد الذي يعرف مكان هذه اللوحة . أنا فلان الفلاني .

وعندما جاءه القسيس . كان الرجل قد مات . وأيقن أولاده أنه هو الذي سرقها . ولم تظهر اللوحة حتى اليوم !

وفي سنة ١٩٤٠ عادت القوات الألمانية بالحرب العالمية الثانية ودخلت بلجيكا . فقررت مدينة جنت نزع النافذة الزجاجية وارسالها إلى الفاتيكان في ايطاليا . ولكن إيطاليا دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا ـ مشكلة لا حل لها !

فطلب مدير متحف اللوفر في باريس استضافة النافذة في باريس . ثم نقلها إلى متحف دبو في مارسليا . ونقلت النافذة . ولكن القوات الألمانية قد دخلت فرنسا أيضاً . وتقدم مدير اللوفر يطلب من القوات الألمانية تأمين متحف مرسليا إلى نهاية الحرب .

ووافق الألمان . ولكن كانت موافقة على الورق فقط . .

وفي اليوم التالي للموافقة الكتابية انتقلت معظم مقتنيات متحف مارسيليا إلى باريس . ومنها إلى مكان مجهول .

وذهب مدير متحف اللوفر إلى ايزنهاور قائد قوات الحلفاء . فأصدر ايزنهاور أمراً لكل قواده : نحن جئنا إلى أوروبا لإنقاذ الحضارة الانسانية من الهمجية النازية . ومن مظاهر الحضارة : اللوحات والتماثيل وغيرها من إبداعات الإنسان . ولذلك يجب أن نحمي كل الذي جئنا من أجله . وكل القواد مسؤوليتهم كاملة عن سلامة هذه الآثار . وسوف أحاسبهم شخصياً . وهي أمانة عظمى . ونحن قادرون على حمل هذه الأمانة . وردها إلى أهلها . .

* * *

وبدأت أكبر عملية بحث عن التحف التي سرقها الألمان من كـل المتاحف والقصـور . وتكـونت كتيبـة الفنـون من العلماء والخبراء والتجار تبحث في كل مكان وتسأل كل الذين لهم صلة بالفن وتجارته وترميمه وتسويقه .

وشاءت الصدفـة أن يلتقى خبير أمـريكي بطبيب أسنـان ألماني . هذا الطبيب كان من «قوة العاصفة» وهي القوة ذات المهام الخاصة والتي ترتبط مباشرة بهتلر . هذا الطبيب قال للخبير الأمريكي : سوف أساعدك بشرط أن تضمن حياتي أنا زوجتي وأولادي . فـأنا لا أخـاف من الأمريكـان . وإنما أخـاف من الألمان . فلو عرفوا لقتلوني .

ولكن الأمريكي لم يعد بشيء . فهو قد تسلل إلى النمسا سراً . وما تزال النمسا بعيدة عن قوات الحلفـاء . ولكن هذا الطبيب أعطاه خريطة بمواقع مخابىء اللوحات الفنية . .

ودخلت قـوات الحلفاء الأراضي النمسـاوية . واهتـدى الخبير الأمريكي إلى المكان الخرافي الـذي أخفى فيـه هتلر كنوز أوروبا المسروقة . هناك في مناجم الملح . . هذه المناجم تعمل منذ قرون وتتوارثها أسرة توقف نموهـا الجسمي بسبب حياتهـا المستمرة في المناجم . حتى أصبحوا جميعاً من الأقزام . ولم يكد الخبير الأمريكي وحـراسه يـدخلون هذه المنـاجم حت وجدوا عجباً . لقد تحولت الكهوف إلى مخازن فخمة ضخمة . الأرض مغطاة والجدران أيضاً . ثم إنها مضاءة . وقد امتلأت بصناديق من خشب وحديد من كل حجم ولون . . ما هذا ؟ لقد عرف الحلفاء فيما بعد الحرب أن هتلر كان قد قرر أن ينقل كل هذه

الكنوز إلى مدينة «لنس» النمساوية ، وهي المدينة التي ولد فيها . وقرر هتلر أن يجعلها أم الدنيا . أروع وأعظم مدينة في العالم . أليست المدينة التي تشرفت بولادته ؟!

أما عدد اللوحات التي سرقها الألمان من العواصم الأوروبية فقد بلغت تسعة آلاف لوحة :

ـ ٦٥٧٧ لوحة بالزيت . .

ـ ٧٣٠ لوحة بالماء . .

ـ ١٣٧ تمثالاً . .

ـ ١٢٨ درعاً من ذهب . .

ـ ١٧٩ سلة بها قطع ديكور نزعت من القصور . .

ـ ١٥٠٠ صندوق كتب . .

ـ ٥٠٠ صندوق مخطوطات . .

ـ ٣٨٧ قطعة أثاث . .

ـ ١٢٠٠ سجادة . .

ـ ٣٥٠٠ نجفة . .

وعدد كبير من التماثيل الفرعونية والجعارين والنقوش المنزوعة من المعابد والمقابر المصرية القديمة ؟!

***

أما طبيب الأسنان الألماني فقد أطلق على زوجته وأولاده وعلى نفسه النار ـ خوفاً من انتقام الألمان . وهذا الطبيب هو أعظم انسان ظهر في أوروبا ، فهو الذي أنقذ كل هذه الكنوز . ولم يكتف بذلك ، بل انه هو الذي أنقذ مناجم الملح من الدمار . فقد دل الأمريكان على صناديق بها قنابل وديناميت قد

أعدها الألمان لنسف المنجم إذا ما وقع في أيدي الحلفاء . وقد وجدوا القنابل والديناميت كما وصفها هذا الطبيب المجهول !

***

وكان الخبر الأمريكي مكلفاً بإعادة الآثار والتحف البلجيكية . ولذلك عندما وجد النافذة الزجاجية لكاتدرائية مدينة جنت نقلها إلى إحدى الطائرات . ولم تكد الطائرة ترتفع في الجو حتى صادفتها عاصفة عاتية . وكان لا بد أن تعود إلى ألمانيا . غير أنه أصر على ألا يعود إلى ألمانيا . ولذلك هبط في أحد المطارات الحربية البريطانية . . في فرنسا . . ثم انتقل بالسيارة إلى بلجيكا . . إلى القصر الملكي . وقدم بطاقته للحراس . وطلب أن يقابل الملك شخصياً . فليس عنده وقت . وكان ذلك عند منتصف الليل . ونزل الملك بالبجاما والروب والملكة بالروب أيضاً . وأمام رقة الخبير الأمريكي وباقة الورد التي يحملها وتحيات خاصة من الجنرال ايزنهاور قائد قوات الحلفاء قدم له النافذة الزجاجية لكاتدرائية مدينة جنت . . وظهرت السعادة على وجه الملك والملكة . .

وقام بفتح الصناديق . . وبرفع الألواح الزجاجية ووضعها على المائدة . . وقامت الملكة بنفسها وفتحت زجاجة شمبانيا وقدمت للخبير الأمريكي ومساعديه ، ابتهاجاً بأعظم ثمرات النصر واقتراب السلام الذي أنقذ الحضارة الإنسانية ، والذي أطل من هذه النافذة التاريخية !

٦- المحامون قالوا : إنه وطني والقاضي قال : ولكنه لصّ !

يوم الاثنين ٢١ أغسطس نة ١٩١١ اختفت أجمل لوحة لصاحبة أجمل ابتسامة في التاريخ .

اللوحة اسمها «موناليزا» كانت معلقة في «الصالون المربع» . .

ونشرت الصحف الفرنسية الخبر الذي لم يصدقه أحد . وقالوا : نكتة سخيفة . . ان الصحف تريد ان يرتفع توزيعها . . ولذلك كان الناس يقرأون الخبر ويلقون بالصحف دون أن يشتروها عقاباً لها !

وقال أناس ليس بعيداً أن يسرقها أحد الألمان . .

وألقى القبض على اثنين من الألمان ، ثم أطلق سراحهما . .

وكان متحف اللوفر قد تعرض لسرقات كثيرة في المائة عام الماضية . . والناس لا يستبعدون أن تكون السرقة قد حدثت . . وأن اللص أمريكاني هرب بها إلى بلاده . . فليس

معقولاً أن يسرقها أحد الأوروبيين . . لأنه لا فائدة من سرقة لوحة مشهورة . . من الذي يشتريها . . وإذا اشتراها فأين يضعها ؟

وتناول الأدباء هذا الحادث . فواحد كتب قصة بعنوان «السرقة» عن لص سرقها . . ولكنه أعادها في اليوم التالي لأن موناليزا لا تكف عن النظر إليه . .

وواحد كتب قصة أخرى تقول ان السارقة سيدة . . وانها وضعت هذه اللوحة في غرفة نومها ، لتظل موناليزا تنظر إليها وتبتسم . . لقد أحاطت صاحبتها بستار شاعري من الابتسام !

وفي اليوم التالي احتشد الناس أمام متحف اللوفر وقيل انه مغلق للاصلاحات ! والحقيقة أنهم أغلقوه بسبب هذه السرقة . والمتحف انشيء سنة ١٧٩٣ ومساحته ٤٩ فداناً . وهو يحتاج من رجال الأمن إلى اسبوعين أو ثلاثة لكي يتمكنوا من تفتيش كل مكان وتقليب كل لوحة وتمثال . .

وقيل للناس أيضاً إن المتحف مغلق بسبب انفجار إحدى أنابيب المياه . .

أما الصالون المربع فقد خلا من اللوحة ووقف فيه المدير والإداريون ورجال الأمن والخبراء وأساتذة الجامعات والدموع في عيونهم والحسرة في قلوبهم . . وهذا الصالون المربع هو الذي تزوج فيه نابليون سنة ١٨١٠ من الأميرة النمساوية ماري لويزة . . وفي هذا الصالون أروع التحف الفنية لعباقرة الفن : دافنشي وتيسيان ورافائيل وفيرونيزة وفان ايك وروبنز ورمبرانت وهولباين وفيلاسكويث . .

وانطلق خيال الناس يبحثون عن كيفية السرقة : كيف دخل اللص وكيف خرج بعد ان نزع برواز اللوحة . . وكيف تسلق السقايل ؟ . . ولا بد أن يكون قد ارتدى ملابس الحراس . . ولا بد أن يكون قد درس الدخول والخروج ! . .

وكان متحف اللوفر قد غطى لوحة الموناليزا بلوح زجاجي . . بعد أن تهجمت سيدة مجنونة على إحدى اللوحات فمزقتها . .

وقالوا إن اللوحة الأصلية ليست هي التي سرقت . وإنما صورة لها ! وقد ظهرت لها نسخة مزورة ، حتى أيام رسمها دافنشي . . وكانت هذه الصورة عظيمة الاتقان . . ولذلك فكل اللوحات المعروضة في المتاحف مختومة في ظهرها بأختام دقيقة شديدة التعقيد . فلا يكاد أحد الخبراء يمسك لوحة ، حتى ينظر إلى ظهرها بسرعة ليرى الأختام والأرقام والتواريخ وتوقيعات الخبراء عليها . .

ونشرت الصحف أفكار القراء . وتسابقت الصحف والمجلات في رصد المكافآت لمن يدل على اللص . . بل وعدت باعطاء اللص مكافأة كبيرة جداً ، مع تأمين سلامته . . ووعدت بأنها لن تسأل اللص من هو ولا أين هو ؟ . . وإنما تعطيه المال الذي يطلبه دون أن تعترف عليه . .

وظهرت الرسوم الكاريكاتورية تسخر من المتحف ورجاله ورجال الأمن ومن المدير ومن الخبراء . نشرت صحيفة «باريس جورنال» في صفحتها الأولى هذا النداء إلى القراء :

من أجل الفن وسلامة المتحف ولوحاته النادرة نرجو إيقاظ الحراس ان وجدتهم نائمين !

نشرت صحيفة أخرى تقول : سرق اللصوص برج كنيسة نوتردام . فمن يجده فله الحلاوة !

أما الجمهور فراح يضع باقات الورود أمام المكان الخالي من لوحة موناليزا . . . وكانت هذه الورود سخرية من إدارة اللوفر . . فمعناها ان اللوحة «ماتت» ولن تعود . . ولذلك كان رجال الإدارة يعجلون بإلقاء الورود في الشارع !

أما اللوحة نفسها فقد رسمها الفنان العظيم دافنشي في سنة ١٥٠٣ . صاحبة اللوحة زوجة رجل غني . . السيدة اسمها موناليزا . . وزوجها اسمها فرانشيسكو دل جيوكندو ـ ولذلك سميت اللوحة بالجوكندا أيضاً . .

وقالوا انها عشيقة الفنان دافنشي . .

وفي القرن السابع عشر استقرت هذه اللوحة في متحف اللوفر . فقد اشتراها الملك فرنسوا الأول .

وفي سنة ١٨٠٠ انتقلت اللوحة إلى غرفة نوم نابليون في قصر التويلري . .

ثم نقلت سنة ١٨٠٤ إلى متحف اللوفر . .

ولم تترك المتحف إلى أن سرقت منه يوم ٢١ أغسطس سنة ١٩١١ . .

وقبل ذلك بوقت قصير كانت فضيحة التماثيل . . فضيحة أدبية . .

فقد ألقى البوليس القبض على الشاعر أبولونير (١٨٨٠ ـ ١٩١٨) صديقة الفنان بيكاسو (١٨٨١ ـ ١٩٧٣) بتهمة سرقة تماثيل من اللوفر . . أما الشاعر أبولونير وكان مجهولاً في ذلك الوقت فقد سرق عدداً من التماثيل الفرعونية . . ولما استدعى صديقه العزيز بيكاسو أنكر أنه يعرفه . . ووجد البوليس تمثالاً في حوزة بيكاسو ـ التماثيل كلها مسروقة !

أما سبب السرقة فهو ان الشاعر كان مجنوناً بالتماثيل الفرعونية ، وأما الفنان بيكاسو فقد أحب تمثالاً يونانياً جميلاً وتمنى أن يعيش معه .

* * *

ثم تلقى الناقد الإيطالي «جيري» خطاباً من شاب ايطالي اسمه : ليوناردو يقول ان لوحة موناليزا عنده . وانه مستعد ان يردها . ثم ترك عنوانه .

ولم يصدق الناقد الكبير ان تظهر اللوحة بهذه السهولة . وذهب مع ليوناردو إلى أحد الفنادق . . ووجد اللوحة تحت السرير . هي . . لا شك في ذلك .

كان ذلك يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٣ . . واستدعى عدداً من تجار اللوحات ومن الخبراء . وأجمعوا ان للوحة صحيحة .

وطلب ليوناردو مائة ألف دولار ثمناً لهذه اللوحة . . وهو لا يريد الأموال لنفسه أنه فقط يريد أن يقدمها هدية لوالديه . فهما عجوزان .

أما الإسم الحقيقي للص فهو : فنشنزو بروجيا ، وكان

يعمل نقاشاً في متحف اللوفر لحساب أحد المقاولين . وانه قد ارتدى ملابس رجال الأمن ونزع اللوحة من مكانها واخفاها في ملابسه وألقى ببروازها وخرج بها دون أن يلتفت إليه أحد .

ومن الغريب أن رجال الأمن قد سألوه في أول يوم لاختفاء اللوحة . ونفى علاقته أو معرفته أو اهتمامه بهذه اللوحة . .

أما أسباب السرقة : فانه ايطالي . وهذه اللوحة ايطالية . وقد سرقت من ايطاليا . ونابليون قد سرق الكثير من بلاده . وأودع المسروقات متحف اللوفر . ولا بد ان تعود اللوحات إلى اصحابها . وانه هو تولى بنفسه إعادة أجمل اللوحات . فالدافع على السرقة هو الانتقام لايطاليا من فرنسا !

وبسرعة انتشر الخبر في ايطاليا وفرنسا والعالم .

وكان أول من علم بالعثور على اللوحة : الملك أماثويلو الثالث ثم البابا بيوس العاشر . .

وأعلنت ايطاليا أنها سوف تعيد اللوحة إلى فرنسا . ولكنها ترجو ان تعرض هذه اللوحة على الجمهور الايطالي في مدينتها فلورنسا وفي ميلانو ثم في روما . وبعد ذلك تعيدها في حراسة ايطالية مشددة إلى الحدود الفرنسية وتسلمها إلى حراسة فرنسية أكثر تشدداً !

وقالت الصحف ان هناك قصة غرامية وراء هذه اللوحة . فاللص كان يحب فتاة اسمها «ماتيلدا جالي» . . وماتيلدا تشبه الجوكندا . وقد خانته ماتيلده فقرر أن ينتقم من صورتها . . ولكن ضميره تيقظ في آخر لحظة . . ولم يمس اللوحة بسوء !

وقالوا : ان اللوحة قد ظهرت بها خدوش . . وان اللوفر قد ساعاد على السرقة ، ليتهم اللص بأنه هو الذي أصابها بالخدوش وليس اهمال الخبراء في المتحف !

وقيل ان اللوحة قد سرقت بالاتفاق مع الحكومة لاخفاء كارثة وزارية . فيوم سرقت اللوحة تشكلت وزارة كايو . . ويوم أعيدت اللوحة سقطت أغادير المغربية حيث توجد حامية فرنسية !

ويوم رأس سنة ١٩١٣ ، كانت لوحة «موناليزا» على الحدود الفرنسية . وكان مائة من العلماء والخبراء والاساتذة والمديرين ورجال الأمن في انتظارها . . وكانت اللوحة ملفوفة لفاً لا يلفت النظر حتى لا تمتد إليها يد الجمارك !

وغضبت الصحف الإيطالية من تسليم اللوحة بلا مقابل ، فطالبت بإعادة البوابة الحديدية لمدينة روما التي سرقها المريشال الفرنسي ماليفان سنة ١٨٤٩ والمعروضة حالياً في متحف الانفاليد بباريس !

واستقرت موناليزا في مكانها التاريخي في الصالون المربع يوم ٤ يناير سنة ١٩١٤ .

وفي ذلك اليوم شاهدها نصف مليون متفرج !

وأصبحت موضة المرأة في ذلك العام هي الماكياج الذي يجعل الوجه شاحباً والابتسامة عابرة !

ودخل اللص السجن يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩١٣ ليحاكم يوم ٢ يونيو سنة ١٩١٤ .

ولم يفلح المحامون في اقناع القاضي بأن اللص شاب نبيل . وانه سرق لأسباب وطنية . ولم يقتنع القاضي بأن هناك سرقات نبيلة وسرقات دنيئة . فاللص هو اللص . وحكم القاضي بسجنه سنة و١٥ يوماً . وهو حكم مخفف مراعاة للأسباب التي ذكرها اللص . وفي الأيام الأولى من السجن كان يتلقى الهدايا والورد والحلوى والفلوس والصور . . وبعد ذلك تقلصت موجات الحماسة . وخرج اللص من السجن ليجد نفسه مطلوباً للخدمة العسكرية . ودخل الجيش . وخرج ليتقدم لفتاة أحبها . . فخطبها . . ثم تزوجها . . وبعد ثلاثة شهور سافر مع عروسه إلى باريس .

وفي أول ساعة من وصولهما للعاصمة الفرنسية ، اتجها مباشرة إلى متحف اللوفر ليقفا معاً أمام موناليزا . . هو يبتسم لكل ما حدث ، وعروسه تبتسم لأنها أيضاً حامل ! .

٧ـ في عينيها: مائة وعد ووعد!

كانوا يسمونه «ذلك الرجل الغني» . . فإذا ركب الإنسان عربة وطلب من السائق أن يذهب إليه يقول لـه : إلى ذلك الرجل الغني !

وهذا يكفي . فوراً تتجه العربـة إلى حيث يسكن السيد روتشيلد أغنى أغنيـاء اليهـود ، وإلى جـواره يسكـن رئيس الوزراء . . أما ذلك الرجل الغني فهو الـذي يسكن في البيت المجاور له تمـاماً . . ومن النـظر إلى ملابس ووجـوه الناس ــ النساء خصوصاً ــ تعرف أن البيت ليس مثل كل البيوت . . إنه بيت رجل غني جداً وضيوفة أغنياء جداً . . وأنهم حريصون على الذهاب إليه فهناك الشمبانيا حتى الصباح والقمار والذهب والماس والمواعيد . . فلا الشمبانيا تنتهي ، ولا الفلوس على مائدة القمار تختفي . . إنه ذلك الرجل الغني !

أما الأسم فهو مستر رينولدز ، أمريكي جاء إلى لندن ليعمل في بيع وشراء أي شيء .

أما رجال المباحث الإنجليز فيعرفون أنه اللص الخطير آدم

ورث الذي دخل وخرج من سجون بلجيكا وأمريكا عدة مرات . ولكن ليس عندهم دليل واحد على أنه لص . . وهذا الرجل الغني قد سرق بما يساوي عشرة ملايين دولار في سبعينات وثمانينات القرن الماضي . ولكن خرج نظيف اليدين . .

وقد إلتحق بالجندية وشارك في الحرب الأهلية في أمريكا . . وكلما إرتكب سرقة ، فإنه بسرعة يلتحق بالجيش ، الذي يبعث به إلى مكان بعيد . ثم يخرج من الخدمة العسكرية ومعه بعض العناوين . وبعد أن تتم السرقة يتطوع في صفوف القوات المسلحة . . وله عبارة مشهورة : صحيح أن القوات المسلحة عبارة عن أناس جياع عندهم شرف ، ولكن بين صفوفهم يمكن إخفاء مال قارون !

وكانت شقة إدم ورث في لندن هي المركز الدولي لرسم وتنفيذ عشرات من حوادث السطور والسرقة من البنوك والقطارات والسفن وقصور الأغنياء . هو الذي يخطط ويدبر وهو الذي يخرج كالشعرة من العجين ، نظيفاً خفيفاً . وهو الذي يفوز بنصيب الأسد . أليس هو صاحب الفكرة ؟ أليس هو واضع الخطة ؟ أليس هو الذي قام بتمويل المشروع . .

وكان يساعد الفقراء والمحتاجين . . وكان يؤمن إيماناً قاطعاً بأنك إذا أردت أن تكسب ، أن تسرق ، أن تخون ، أن تتجسس ، فلا بد أن تعتمد على المرأة . والمرأة لا قلب لها ـــ صدقني ـــ هو الذي يقول . لأن قلب المرأة هو ذلك القلب المصنوع من الذهب على صدرها . قلبها من ذهب . أي قلبها

قطعة من المعدن يكبر ويصغر ويتألق ويتألم حسب حجم وعدد الأحجار الكريمة التي ترصع بها هـذا القلب ــ صدقني ــ هـو الذي يقول بعد تجربة ومعاشرة ألوف النساء !

أما هو فقصير القامـة كبير الـرأس لامع العينـين . ناعم الصوت . والصوت الناعم المبحوح خصوصاً هو أهم الأساليب السحرية إلى قلب المرأة . وقلب المرأة في عينيها وأذنيها . . قل لها أجمل الكلام ، وأستدرجها إلى أكبر محـلات المجوهـرات ، والباقي سوف يجيء من تلقاء نفسه !

فوجيء بأن أخاه قد دخل السجن بتهمة تزوير العملات . وكان يقول لرجاله ــ أي اللصوص الذين لا يعرفهم أحد ــ إن أخاه هذا حمار . . لأن الإنسان لا يدخل السجن بسبب سرقة تافهة . . ولا يصح للحرامي الممتاز أن يستخدم يديه إلا في فتح الخزائن أو جمع المجوهرات . . ولكن لا يزور الفلوس ولا يقلد الإمضاء . . فالحرامي العظيم هو الذي لا يستخدم إلا عقله . . ولذلك فلم يحدث أن أستخدم آدم ورث العنف . . لا بيده ولا بالعصا ولا بالمسدس . . وله عبارة مشهورة : إذا كان الأدب يحتم عليك ألا تقذف المرأة بوردة . . فالحكمة تقول لا ترم رجل المباحث بورقة من وردة . . فسوف يأخذهـا دليلاً عليـك . . وسوف يجد في بصماتك على الوردة مـا يرفـع عنقك إلى حبـل المشنقة !

وكان يريد أن يجد حلاً لإخراج أخيه من السجن ، حتى لا يفضحـه . . وطـرح رجـالـه من اللصـوص عشرين حـلاً :

الخطف . . القتل . . الرشوة . . السم . . كل ذلك من أجل أن يخرج أخوه من السجن !

ولكنه لم يجد في هذه الحلول إلا تأكيداً على سذاجة وبلاهة معاونيه . . وفي يوم طلب منهم أن يكتبوا إقتراحاتهم بالتفصيل . كتبوها . وضعوها تحت جزمته كما طلب منهم . وإلتفت إليهم يقول : هل ترون هذه الإقتراحات قد أضافت إلى قامتي سنتيمتراً واحداً ؟ هل هذه الإقتراحات إذا نفذت ونجحت تضيف إلى مجدي كلص عظيم ، شيئاً أباهي به الناس في زماني ويتفاخرون به من بعدي ؟

لا أحد يرد . والمعنى أنهم تافهون . وأن هذه الحلول لا تستحق أن يلتفت إليها . لأنه ليس لصاً عادياً . أنه لص يريد أن يكون له مجد . أن يدخل التاريخ مثل قتلة الأنبياء والملوك !

أما هو فقد وجد الحل . . ولم يضايقه أن ضاعفت المباحث البريطانية عدد الجنود الذين يرقبون الداخلين والخارجين . . ويحرصون على معرفة أسمائهم . . وعلى التنصت عليهم . أنهم في غاية السذاجة . . فما الذي يمكن أن يقوله اللصوص وهم يشربون ويرقصون . أو عندما يلعبون القمار . . ولا كلمة عن مشاريعهم في السطو على خزائن بنوك أوروبا وقطاراتها وسفنها . . فإن هذه المشاريع توضع وتدرس في غرف أخرى !

كان يوم ٢٥ مايو سنة ١٨٧٦ عندما إختار أطول رجل من معاونيه . وقال له : أنت تقف هنا . . سوف أصعد على كتفيك . . وأدخل هذه النافذة . انتظرني . كلها ثلاث دقائق !

كان الهدف هو التسلل إلى أحد المتاحف. وفي هذا المتحف توجد أروع لوحة لأجمل سيدة نبيلة في القرن التاسع عشر .. اللوحة أسمها «الدوقة» للرسام الإنجليزي جينزيروه .

تسلل آدم ورث بسهولة من النافذة .. وأخرج شمعة من جيبه وأشعلها . عرف مكان اللوحة . نزع بروازها .. ثم لف اللوحة وعاد إلى النافذة ووضع قدمه على كتف الرجل الطويل . وعاد إلى البيت ليراها في ضوء الشموع .. تحفة فنية . أنها أجمل السيدات في لندن .. الوجه مليان جميل .. والعينان لامعتان تنظران إليك .. والبرنيطة على الرأس سوداء يخرج منها الريش الرمادي .. والفستان أبيض حرير .. والبلوزة زرقاء .. والشعر كستنائي يتدلى على الكتفين .. أما يداها فقد لفتهما حول صدرها .. ووراءها السماء زرقاء والأشجار في كل مكان ، طولها ٦٠ × ٤٥ بوصة ..

وأدخل اللوحة في إحدى المراتب اختفت اللوحة . وظلت في هذا المكان ٢٥ عاماً !

وضجت لندن بأخبار هذه السرقة .. كيف ومتى ومن يكون وما الذي سوف يفعله باللوحة ؟ وهل تبقى في بريطانيا ؟ .. هل يهربها اللصوص إلى أمريكا ؟ كيف ومتى ؟

أما مباحث بريطانيا فعلى يقين من أنه هو الذي سرقها لأنه لا يوجد أي أثر على الدخول والخروج .. ولا أثر على الحائط أو على الأرض .. ولا بد أن تكون السرقة قد تمت بسرعة هائلة . ولكن لم يخطر على البال أنه إستخدم لصاً طويلاً تسلق كتفيه حتى

دخـل قاعـة المتحف . . ولكن لا بد أن يكـون آدم ورث هو اللص . لا أحد سواه . .

أما الهدف من سرقة اللوحة فهو أن يساوم عليها : خروج أخيـه من السجن مقابـل تسليم هذه اللوحـة . . وبدأ يفكـر ويخطط في المساومـة ، ومن الذي يتـوسط بينه وبـين أصحاب اللوحة ؟ وأين وكيف ؟ . .

عندما وقعت مفاجأة . فقد أفلح محامي أخيه أن يدلل على براءته . . ونجح . وأصدرت المحكمة قرارها بأن يغادر أخوه البلاد في مدى أربعة أسابيع . . ولكن أخاه غادر بريطانيا في أقل من أربع ساعات . !

ووجد آدم وورث أنه في مطب . . فأخوه خرج ، واللوحة لا معنى لها ولا ضرورة . . فهو لا يستطيع أن يعلقها في بيته ولا يستطيع أن يبيعها لأحد من الناس . ولو عرضها فلن يشتريها أحد !

وكان همه الأكبر أن تهرب اللوحة من بريطانيا إلى أمريكا . هذا هو التفكير العادي . وهـذاما يتـوقعه رجـال المباحث . ولذلك قام بعكس ما يتصور الناس . ترك اللوحة وسافر هو إلى أمريكا . . وكـان على يقين من أن البوليس يتابع كل حركاته وكل علاقاته . . وأنهم يتبعونه إلى أي مكان يذهب إليه وبسرعة يجيئون إلى أي مكان خرج منه . . ولذلك جعل كثيرين يعرفون بسفره بحراً . . وأن السبب هو كثرة ديونه وأنه يريد أن يجد له عملاً في مكان آخر . . وإفتعل خناقة مع أحد أتباعه . وكان سبب الخناقة أن ديونه قـد زادت ، وأنه غـير قادر عـلى سداد

الديون . . وأنه أصبح مثل عجوز مشلولة . . وأنه لذلك يستحق الصدقة . . ولكن نوعية اللصوص الذين يقترض منهم هم بالضبط من يسرقون طعام المرضى واليتامى ـ سفلة ولا خلاق لهم ولا إمتنان عندهم للرجل الذي أطعمهم ورفع مستواهم الوظيفي من نشالين هواة إلى لصوص محترفين تعمل لهم الدولة ألف حساب !

ولكي يحمي رحلته إلى أمريكا بعث إلى أصحاب اللوحة بقطعة منها في خطاب ومعه هذه العبارة : هذه عينة من اللوحة فإن أعجبتكم تقاضيت فديه قدرها عشرة آلاف جنيه ، قابلة للزيادة والنقص . . أريد أن أعرف رأيكم . لا تكتبوا رأيكم . . فقط تحدثوا بصوت مرتفع . . فعندي آذان في كل مكان !

وبدأ أصحاب اللوحة يتشككون في الخدم وفي أصدقائهم المترددين عليهم . . وظنوا أن من بينهم أناساً يتعاونون معه !

ثم أرسل خطاباً آخر ومعه قطعة من اللوحة . . ومعها هذه العبارة: وهذه عينة أخرى . . ولكن لم أسمع بوضوح رأيكم في الحصول على بقية اللوحة . ليس في نيتي تدميرها مطلقاً . وإلا فلماذا سرقتها ؟ إرفعوا أصواتكم قليلاً ، أريد أن أسمعكم !

ووصل إلى أمريكا . . وحشر نفسه بين الناس . فالذين يهاجرون إلى أمريكا عادة : زبالة القارات الأخرى وعباقرتها . ولكن لسبب ما ، شاء اللّه أن يجعل جانباً من عبقريته هو الذي يعمل . . أما بقية العبقرية فتتفرج على ذلك !

وكان له صديق قديم . ذهب إلى مكان عمله . ورصده

تماماً عشرين ثلاثين أربعين مرة . كان يتمنى أن يعرفه هذا الصديق . ولكن لم يفلح . . عرف مكتبه . وعرف بيته وعرف الناس الكثيرين الذين يترددون عليه . . كاد يصطدم به . ورآه صديقه ولكنه لم يعرفه . . فقد تقدمت به السن وزاد كهولة وإنحنى قليلاً . إنه غير اللص العبقري الذي كان زينة المجتمع في لندن ، وقائد اللصوص الأذكياء في كل أوروبا . . ولذلك قرر أن يكتب له . وكتب وأطال . ثم قال لصديقه : إذا أردت أن تعرف أكثر ، فلتكن طريقتنا إلى الحوار أن تنشر في الصحف ردوداً غامضة على رسائلي في باب «الإعلانات المبوبة» . وليكن إسمي : نيويورك !

وفي اليوم التالي جاء في الإعلانات المبوبة : نيويورك . قرأت . وعرفت . أهلاً بك في بلدك . ماذا عندك ؟

وجاءه خطاب من آدم ورث : عندي شيء أنت وحدك الذي يمكن أن تكون أميناً عليه . ولكني في حاجة إلى فلوس . ولن تأسف على ذلك . أنت تعرفني جيداً . ونشرت صحيفة هيرالد تربيون رداً هذا نصه : نيويورك أنا عرفت . أطمئن . ولكن كيف تتلقى الفلوس ؟

جاءه في اليوم التالي : أمام بيتك شحاذ . أعطه ظرفاً مغلقاً . وقف إلى جواره وإسمع إليه فعنده قصة طريفة يرويها لك . . لن يطول وقوفك .

ونشرت الصحيفة في اليوم التالي : نيويورك : موافق .

وخرج الرجل ومعه الظرف به مئات من الدولارات .

إعترضه الشحاذ . أخذ الظرف وفي سرعة البرق جاء كلب وخطف الظرف وإختفي . وقال له الشحاذ : طبعاً تريد أن تعرف تفسيراً لما حدث . وحياتك ما عندي أي تفسير وإنما أنا عبد مأمور . مع السلامة !

وفي الإعلانات وجد هذا التعليق : نيويورك كويسة !

وأرسل إلى صديقه خطاباً يقول : إعذرني . فأنت لص مثلي . ولا أمان لأحد . أري أن أراك . فعندي اللوحة المسروقة . . لوحة « الدوقة » فلا تبلغ البوليس ولا أصحابها الآن !

ونشرت الصحيفة : نيويورك موافق . . ولك الأمان . وأرسل لصديقه خطاباً يقول فيه : بعد منتصف الليل في بيتك . أنت تعرف ما هو ضروري وما هو واجب الإحتياط في مثل هذه الظروف .

ونشرت الصحيفة ؛ نيويورك . في إنتظارك . وفهمت كل ما تريد .

وبعد منتصف الليل وجد الباب مفتوحاً . والباب الذي يليه مفتوحاً . ولكنه دخل البيت من الباب الخلفي . ولم تكن مفاجأة للصديق ، فقد ترك الأبواب الخلفية مفتوحة . ووقف الرجلان وجهاً لوجه : يا آدم ما الذي غيرك هكذا ؟ . . أنت أصبحت نصف آدم . . أين النشاط والحيوية والذكاء ؟ . . أين المال والجاه والقوة ؟ كل ذلك ذهب ؟

فقال آدم ورث : ليس كل ذلك . . فما يزال عندي بعض الذكاء . ندخل في الموضوع . عندي اللوحة . فقد نقلتها من

لندن إلى نيويورك . وأريد أن أعيدها إلى أصحابها . . وأنا في حاجة شديدة إلى المال . .

قال صديقه : كم تريد ؟

ــ أريد ما يجعل سيدة تبدو أنيقة في جنازة رجل غني . وتعود بعد الجنازة قادرة على أن تكون زوجة محترمة لرجل غني وتزف إليه بثوب يشبه فستان «الدوقة» في هذه اللوحة . .

ــ قل لي كلاماً أوضح !

ــ لست في حاجة إلى المال . . ولكن صديقتي كاترين أنت تعرفها . . وعدتها بالزواج . فصدقتني ثلاثين عاماً . ونسيت أنا في زحمة الأحداث الجليلة أن أفي بوعدي . وكان يعجبني فيها جمالها التقليدي وفضائلها التقليدية أيضاً : فهي تؤمن بأن الرجل لا يكذب . . لأنه ليس مضطراً إلى ذلك . . وبأن الرجل إذا وعد لا بد أن يفي ، ما دام رجلاً . . وأنه سوف يتزوجني طال الزمن أو قصر . . هذه إرادتها وتصميمها ولا أعرف من أين تأتي بكل هذا اليقين . . هذه هي مشكلتي !

وذهبت البرقيات وجاءت بين لندن ونيويورك . . وجاء واحد من أصحاب هذه اللوحة . . وقد أمسك عينة من اللوحة . وقال عن يقين : إنها هي . ولا شك !

وكان آدم ورث قد طلب من صديقه أن يحضر ثلاثين ألف جنيه أسترليني وأن يجعلها في سلة صغيرة . . وحدد له مقاساتها . ولا بد أن تكون للسلة يد كبيرة دائرية محاطة بالورد . لا بد أنه هو شخصياً الذي سيجيء يحملها بنفسه إلى خارج

البيت . ووعـد بأن هـذه السيدة سـوف تحضر بنفسها . فهـو يريدها أن تعرف صديقه . فقد تحتاج إليه .

وجـاء واللوحـة معـه . ولم يكن هنـاك أحـد من رجـال البوليـس ، كما اتفقا ، وأمـا الفلوس فكانـت قد وضعـت في السلة الوردية . وجلس الرجلان وجهاً لوجه .

وعندما نشر اللوحة أمامه على الأرض ، دخل كلب كبير وأمسك السلة بأسنانه وخرج مسرعاً إلى الشارع . . وطلب من صديقه أن يبقى إلى جوار اللوحة لا يتحرك نصف ساعة ، حتى يتمكن هو من الإختفاء !

وجاء أصحاب اللوحـة ورجال الأمن والصحـافة . . إنها اللوحة المفقودة . لا يزال الوجه جميلاً . ولا تزال إبتسامتها هي إبتسامة المائة وعد ووعد . . فكل شيىء في نظرتها يدعوك إلى مائة شيىء وشيىء !

وسافرت اللوحة إلى لندن وبعدها بعشرة شهور توفى آدم ورث ولم تمش كـاتـرين في جنـازتـه . . فقـد حدثت أكـثر من مفاجأة . . فالكلب والفلوس وقعت في أيدي رجال البوليس . ولا أحد يعرف من الذي كان سيأخذ الفلوس ليحولها إلى كاترين في لندن . . ثم إن كاترين هذه لم تضيِّع وقتها . فقد تزوجت رجلاً غنياً . . وكانت هديته لها في أول يوم من أيام شهر العسل أن يذهبا إلى عشاء فخم ليرى معاً لوحة «الدوقة» العائدة من لندن !

٨ـ في الزنـزانة : لوحـة أروع !

كان هتلر وموسليني قد أبرما حلفاً عسكرياً مقدساً . وكانت ألمانيا قد ضمت إليها النمسا وإحتلت تشكوسلوفاكيا . وبريطانيا وفرنسا تتسلحان إستعداداً لمواجهة العدوان النازي !

في ذلك الوقت دخل شاب إلى متحف اللوفر ونزع لوحة «الـلامبالي» للرسـام الفرنسي واتـو ، وخرج من المتحف . ولم يسأله أحد . بل إن صديقته قابلته عند الخروج وسألته : ما هذه اللوحة . قال إنه لم يفرغ من رسمها بعد . . وجلسا معاً ساعتين في إحدئ الحدائق . كان ذلك يـوم ١١ يونيـو سنة ١٩٣٩ . . وكانت هذه اللوحة في مكانها هـذا منذ ١٨٦٩ . وهي لـوحة صغيرة ٨ × ١٠ بوصات . ومن السهل إخفاؤها في البالطو أو تحت البلوفر .

واللوحة تصور شاباً قد نشر ذراعيه والحزن واضح عـلى وجهه . واللوحة قد رسمها أنطوان واتو سنة ١٧١٠ . وكانت هذه اللوحة ضمن مجموعة مدام بومبادور في القرن الثامن عشر

وإنتقلت منها إلى سيدات وسادة غيرها حتى إستقرت آخر الأمر في متحف اللوفر . .

وبسرعـة أغلقت أبواب متحف اللوفـر . بعد أن أطلقت صفارات الإنذار . وفتشوا كل السياح الأمريكان والإنجليز . .

وبدأت الحكايات عن كيفية السرقة .

قال أحد الحراس : إن القاعة كانت قد إمتلأت بعدد كبير من الزوار . نصفهم طلب منه أن يشرح بعض اللوحات على الحائط الآخر في مواجهة اللوحة المسروقة . . ولا بد أن يكون النصف الآخر هم مجموعة من اللصوص قد إختاروا من بينهم واحداً سرق اللوحة وتستروا عليه . . إنها أغرب سرقة جماعية سمع عنها في حياته !

ونشرت الصحف هذه الفضيحة . .

ونشرت الصحف أن متحف اللوڤر به ٩٠٠ غرفة يحرسها ٤٠٠ حارس . ومن الطبيعي أن تختفى هـذه اللوحة وغـيرها . وشرت الصحف رسائل للسياح الأجانب تقول لهم تعالوا إلى باريس لتحصلوا على أروع لوحة في اللوڤر ـ مجاناً !

ونشرت الصحف : أن الحكومة وقفت لا مبالية أمام لوحة «اللامبالي» !

ونشرت الصحف أن الدولة تنفق الملايين على تجديد وترميم كثير من الصور التاريخية ، فكيف تهمل في حراسة متحف اللوڤر الذي يضم كنوزاً نـادرة . ولماذا لا تستخـدم فرنسـا نفس نظم الحراسة المتبعة في أمريكا .

وأخـطرت الموانى والمـطارات والمحطات . وقـامت أجهزة الأمن بتفتيش كل شيء يخرج من فرنسا إلى أية دولة براً وبحراً وجواً .

وطارد البوليس الفنانين الأمريكان والإنجليز الذين جاءوا ورسموا نسخاً للوحات الفنان واتو

ووصف النقاد هذه السرقة : بأنها أجرأ وأسهل سرقـة في التاريخ !

طلبت أجهزة الأمن من إدارة متحف اللوفر أن يكف عن نشر صور اللوحات وتحـديد أمـاكنها بـالضبط في غرف وعلى جدران المتحف .

غير أن الإدارة رفضت قائلة : ولكن لماذا ؟ إن عشاق الفن أكبر عدداً من اللصوص !

ولما طالبت الصحف بإخراج مدير متحف اللوفر . وقامت المظاهرات ، أعلن مدير المتحف أنه قد طلب من الحكومة قبل بضعة شهور تشديد الحراسة . . وطلب ميزانية أكـبر ، ولكن الحكومة كانت لا مبالية تماماً !

وبدأت الصحف تناقش من يكون هذا اللص ؟

هل هو لص عادي جداً ؟ ولكن مـا الذي يفعله بلوحـة مشهورة . . إنه لا يستطيع أن يبيعها . ولا يستطيع أن يطلب فدية ، دون أن يلقي عقاباً على ذلك . . هل هو رسام مجنـون عاشق لصاحب اللوحة ؟ وسوف يتأملها بعض الـوقت . . ويبيع اللوحة التي رسمها بدلاً من اللوحة الأصلية . . ومن يدري ربما

أحرقها بعد ذلك . . هل هو فنان مجنون أراد أن يبعث بلوحته التي نقلها عن اللوحة الأصلية ، ثم يطلب من إدارة متحف اللوڤر أن تعلق اللوحة في مكان اللوحة المسروقة إلى أن يتم إكتشافها . . فقط يريد أن يرى لوحته وقد علقت في اللوڤر ؟

وجاء الحراس يقولون إنهم رأوا شاباً نحيفاً ومعه سيدة تساعده على حمل اللوحة والألوان . . وهذا الشاب قد رسم اللوحة رسماً دقيقاً جداً . .

في ذلك الوقت تلقى البوليس الفرنسي مكالمة من البوليس السويسري تقول :

إنهم ألقوا القبض على رسام إيطالي معه صور من رسمه هو ، لكثير من اللوحات العالمية . ولكن ليس من بين لوحاته واحدة لواتو .

ثم طغت أخبار الحرب على كل شيء . ولم يعد أحد يفكر مطلقاً في الفن واللوحات أو السرقات . . فالحرب والموت والدمار والضياع على الأبواب . .

وذهب مندوب مجلة «باري ماتش» ومعه مصور . وخلع لوحة من الحائط . وحملها معه إلى خارج متحف اللوڤر . ولم يسأله أحد من الحراس . وعند الباب الخارجي كشف عن هويته للحارس وقدم له اللوحة ! فليس أسهل من سرقة لوحة من اللوفر في أي وقت ـ إن الحراس قد أصيبوا بذهول . . وأكثر الموظفين في إجازة !

وفي يوم ١٤ أغسطس سنة ١٩٣٩ نشرت الصحف هذه

الرسالة : سوف تجدون في «قصر العدالة» شيئاً مثيراً جداً . . اليوم يوم مشهود . صدقوني . إذهبوا إلى هناك . إنتظروني . . انتظرونا فنحن خمسة . وأنا سوف أقف وسطهم !

وفي «قصر العدالة» وقف أربعة محامين يتوسطهم شاب نحيل شاحب بني الشعر لامع العينين . . وفي يده لوحة واتو . لقد جاء هذا الشاب يسلم نفسه ومعه اللوحة . . الشاب اسمه سرج بوجو سلانسكي (٢٤ سنة) أبوه روسي وأمه فرنسية . . والصحفيون أطلقوا عليه اسم (بوج) وطلبوا تصويره من جميع الجهات فوافق ووضع اللوحة على صدره ووقف في بهجة وذهول وكبرياء !

وفي المحكمة روى حكايته . . إنه كان يتردد على المتحف سنة كاملة . . وقد رأى أن هذه اللوحة قد أفسدها الذين رمموها . . فقد وضعوا عليها كميات من البوية أفسدت الوجه والشعر والذراعين . وأوراق الشجر . . إنها جريمة فنية . . وإنه وحده الذي يجب أن يصلح هذا الخطأ . وأنه عاشق للرسام وأتو ويرى أنه أعظم فنان في التاريخ . . وكان قد قرأ عنه في كتب الشاعر الفرنسي بودلير . . وعندما فكر في سرقة اللوحة كان يذهب إلى المتحف كل يوم ويفك السلك الذي يربطها بالمسمار . . كل يوم يفك بعض السلك . . حتى أفلح في النهاية من فك كل العقد . . وأصبحت اللوحة معلقة يسهل على أي إنسان حملها . ورفعها من فوق المسمار . ورآه أحد الزوار . . وسأله : ماذا تعمل ؟

قال : أقوم بترميم هذه اللوحة .

سأله : حتى في يوم الأحد ؟
أجاب : سوء حظ !

ولم يشك في هذا الرجل أن هذا الذي خلع اللوحة لص ، وإنما ظنه واحداً من موظفي اللوڤر . . وهذا الشخص لم يظهر في المحكمة يدلي بشهادته هذه وإنما هو الآخر كان لا مبالياً !

وحكى أنه أخذ اللوحة في البيت وأزال الألوان التي وضعت على اللوحة الأصلية . على الوجه وعلى الشعر وعند الذراعين وإحدى الساقين . . وأنه أعاد لها الحياة والشفافية . وأنه بذلك قد أدى عملاً جليلاً . ثم إنه ألف كتاباً عن ذلك عنوانه «لماذا إستعرت لوحة اللامبالي من متحف اللوڤر ؟» .

أما الأسباب التي دعته إلى إعادتها فهي : أنه أراد أن يعطل مدير متحف اللوفر عن القيام بإجازته بعض الوقت . . وأنه أراد ألا يرهق المخابرات البريطانية في البحث عن هذه اللوحة . وأهم من ذلك أنه أراد ألا يشغل البوليس الفرنسي لأن عليه واجباً أخطر هو حماية الأمن القومي في زمن الحرب . . ولهذه الأسباب فإن المحامين الأربعة يطلبون له الرأفة . لأن هذا الشاب الساذج قد عمل ما يراه هو الأحس . . فهو قد حقق أمنية عاشق ولهان . قام بواجبه . وسلم نفسه لكي تقوم العدالة بواجبها .

وفي المحكمة يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٩٣٩ بعد أن إستمع القاضي إلى قصة اللص «بوج» أعلن أنه لص عادي جداً . . سرق لوحة أراد أن يبيعها ، ولكن عندما لم يجد أحداً يشتريها

إدعى كل هذه الأكاذيب . فحكم عليه بالسجن سنتين والغرامة . .

ولكن المحامين إستأنفوا هذا الحكم القاسي . . فعاد القاضي ووجد أن سجنه سنتين مخفف جداً . . ولذلك قرر حبسه أربع سنوات !

ومن الغريب أن هذه هي اللوحة الوحيدة التي خرجت من اللوفر ورآها الناس في ذلك الوقت . . فقد أخفيت كل لوحات اللوفر في أماكن مختلفة من فرنسا بسبب الحرب العالمية الثانية !

* * *

وعندما عرضت هذه اللوحة على كبار النقاد وتجار اللوحات أكدوا أنها فعلاً اللوحة الأصلية ، ولكنها أهدرت تماماً . . فقد أفسد هذا اللص الساذج الكثير من معالمها ــ وأنه هو الذي غطاها بطبقة كثيفة من الألوان والأصباغ التي أضاعت معالم اللوحة الأصلية . . وأنه يستحق أقصى العقوبة لهذا «الإفساد» البشع لعمل فني جميل !

وفي اليوم التالي لصدور الحكم تقدم رسام وصديقته الرسامة لوكيل النيابة يعترفان بأنهما أيضاً كانا يفكران في سرقة هذه اللوحة . . ولوحات أخرى من متحف اللوفر . .

وأحالهما القاضي إلى أحد القساوسة يعترفان أمامه . فالمحاكم لا تقاضي من كان في نيته أن يسرق !

وهنا قدم الإثنان لوكيل النيابة لوحة مسروقة للفنان دلكروا . . واعتراف أنهما سرقا هذه اللوحة من سبعة شهور من

أحـد القصور . . ولكن أحـداً لم يكتشف ذلك بسبب هجـرة الناس للقصور على الحدود بين فرنسا وألمانيا . .

ثم أستاذنا وكيـل النيابـة في أن يأتيـا ببقية اللوحـات . . وانتظر وكيل النيابة عودتهما . ولكنهما لم يعودا حتى الآن !

ومن السجن أرسل «بوج» هذه الرسالة إلى القاضي يطلب الـرحمة بسبب زوجتـه المريضـة وابنـه الـذي تـركـه في أحـد الملاجىء . . وأنقاذاً لحياة فتاة يحبها وتحبه وهي في غيبوبة . . ولو عرفت أنه في السجن فسوف تنتحر . . ثم بعث بإسم الفتاة ومكانها . وذهب البوليس إلى العنوان فوجـد فتاة قـد إرتدت ملابس «اللامبالي» وتعلقت من السقف . . ماتت منذ أيام ولم ينتبه أحد إلى أنها إنتحرت !

وأعيـدت محـاكمـة «بـوج» وسـألـه القـاضي عن ظـروف الإنتحار .

فقال بوج : ولكن ليست هـذه هي الوحيـدة التي سوف تنتحر . إن هناك إثنتين أخريين .

ثم قال : سيدي القاضي إنني لا أتدخل في عملك . وأنا لا أفهم في القانون . . وكذلك أنت لا تفهم في الفن وفي جنون الفنانين بعضهم ببعض . . ولا أنت تعرف معنى الحياة والموت عندنا . . مثلاً هل تعرف إنني ميت . . هل تعرف أنني معلق من زنزانتي في السجن . . وأنني روح الشهيد بوج الذي مات ضحية الفن والقانون . . سيدي القاضي أنت لا تصدقني . .

إذهب الآن إلى السجن وانظر إلى سقف زنزانتي سوف تجدني معلقاً هناك !

وأفرج عنه القاضي ، فقد أصيب الشاب بالجنون . . ولكن ذهب البوليس لمشاهدة الزنزانة في اليوم التالي ، فوجدوه قد إرتدى ملابس «اللامبالي» وتعلق من الزنزانة . . وتعلقت منه ورقة تقول : هذه اللوحة أروع من لوحة واتو . . إنها لوحة أصلية ومن إبداعي أنا وحدي !

٩ ـ من تأليف وإخـــراج المباحث

إثنان من الشبان جلسا في إحدى الكنائس . يتطلعان إلى المسيح فوق الصليب ويطلبان المساعدة في أن يجمع قلبهما على الحب والزواج وعشرات الأولاد : يا رب !

قالت له : كيف يتحقق لنا كل ذلك ؟

قالت : طريقة واحدة لا ثاني لها !

سألته : ما هي ؟

أجاب : أن نسرق . فالإنسان ولد لصاً . لأنه ولد عارياً ، لا بد أن يسرق ملابسه . . جـائعاً لأبد أن يسرق طعـامـه . . عاشقاً لأبد أن يسرق محبوبته .

ـ تقول أنك لص ؟

ـ أنا ؟ وأنت أيضاً . . والقسيس !

ـ هل هذا معقول !

ـ هذا هو الشيىء المعقول الوحيد في هذه الدنيا . . فعند الإغريق أنه الإله برومثيوس سرق نور الشمس وأعطاه للإنسان

فحكموا عليه بالعذاب إلى الأبد . . ربطوه في حجر وأتوا بالنسور تأكل قلبه . . وكلما أكلوا قلبه ظهر له قلب جديد . . تأكله النسور وهكذا إلى الأبد . . هذا اللص شاعر عاشق ليس له إلا قلب .

ولذلك فالنسور تنهش قلبه . . ولو كان حيواناً غبياً لأكلت النسور معدته . . ولكنه صاحب قلب ولذلك لا يموت أبداً . . إنه واحد منا . . إنه لص شاعر مقدس . . ونحن كذلك ولدنا لصوصاً ولكل منا قلب . . والنسر الذي يأكل قلوبنا هو الحب والجوع !

ـ يعني لن نتزوج إلا إذا سرقنا ؟
ـ بالضبط .
ـ وماذا نسرق ؟

ـ انظري حولك . . كل هذه اللوحات قد علقت على جدران الكنيسة لكي نسرقها ونبيعها ثم نجيء إلى هنا لكي يعقد القسيس زواجنا المقدس أمام الله ! لا أسئلة ! لا كلمة واحدة . ولدنا لصوصاً وسوف نتزوج لصوصاً ونموت لصوصاً . انتهى . هذا قدرنا . ويجب أنّ نصلي له لكي يغفر لنا خطايانا . صلى معي . . يا رب اغفر لنا ذنوبنا . . فنحن لم نختر أن نكون عشاقاً لنا قلوب ، ولا أن نكون فقراء بلا جيوب !

* * *

وعند منتصف ليلة ١٣ نوفمبر سنة ١٩٥٢ دخل القسيس يلقي نظرة أخيرة على الكنسية . . أطفأ الأنوار وراح يراجع

أجهزة التدفئة . ففي اليوم التالي سوف يقام قداس كبير . . وكان من عادة القسيس أن يلقي نظرة على كل شيء يراه هاماً . وهو لم يستبعد أن يجيء لص جريء ويسرق الصليب نفسه . . فهذه مدينة نيو أرليانز الأمريكية التي امتلأت بالأيدي الطويلة والسكاكين الطائرة والدماء السائلة . . من يدري . . وبسرعة لاحظ أن سلماً قد استند إلى الحائط . . هذا السلم ليس من مقتنيات الكنيسة . وكيف جاء ؟ وبسرعة لاحظ أن الحائط قد خلا من اللوحات . تسع لوحات . . وبرواز قد تدلى من الحائط . . ولاحظ أن كل البراويز فارغة وملقاة على الأرض . . سرقة هائلة . . وبسرعة نادي كبير الأساقفة . جاء رجال المباحث الإتحادية الأمريكية .

أما السلم فقد جاء من عمارة مجاورة لم يتم بناؤها بعد . ولم يترك اللصوص أثراً على أي برواز . فقد استخرجوا اللوحات بالسكين وتركوا البراويز خالية . فقط بعض البصمات على أحد أجهزة التدفئة .

وبدأ رجال المباحث يستمعون إلى أقوال الشهود . . واحد قال إنه لاحظ سيارتين إحداهما برتقالية تنطلق بالقرب من الكنيسة عند منتصف الليل . . وواحدة قالت إن اللصوص أطلقوا عدداً من القطط والكلاب تطارد بعضها البعض وانتهزوا الفرصة وأداروا محرك إحدى السيارات القديمة . . وكان ذلك بعد منتصف الليل بساعتين . . وقالت سيدة بل إنها فوجئت عند منتصف الليل بثلاثة من السكارى رجل وإمرأتين . . وكان الرجل يعانق السيدتين وهما تتساندان عليه ثم يقعون جميعاً على

الأرض ويتقلبون ويضحكون عندما مرت سيارة مسرعة ألقت عليهم بلفافة بيضاء . .

وقال القسيس إنه سمع وقع أقدام . . ولكنه أستبعد أن تكون أقداماً . . وإنما قال لعله الخشب القديم يطلق هذه الأصوات التي نعرفها في الليل . . .

* * *

ولكن رجال المباحث لهم طرق خاصة في معرفة اللصوص . . فلهم عيون وآذان في كل مكان . .

ورن جرس التليفون في بيت شاب صغير . وكان الشاب جالساً مع صديقة له . . ولما رفع السماعة قيل له : إسمع يا ماكس . . لقد سرقت تسع لوحات من الكنيسة الكبرى أنزل الآن إلى أقرب بار يتجمع فيه طلبة الجامعة . . لا بد أن يكون اللص واحداً منهم . . وسوف أذكر لك الأسباب التي جعلتني أقطع بأن اللص طالب . . الفلوس سوف تجدها في البار . . إستدع صديقتك دون أن تخبرها . . العشاء على حسابنا . . اطلب أفخر طعام وشراب . . ولا يهمك . لا تنس البدلة الجديدة . . ولا تنس أنك ذاهب للإحتفال بمناسة خاصة جداً . فقد صادف الأمس أن يكون مرور ست سنوات على رؤيتك لصديقتك . . وبقية الأكاذيب أنت تعرفها !

وذهب ماكس إلى صديقته . . وقال لها بالضبط كل ما سمع من التليفون وكانت سعيدة أنه تذكر ذلك اليوم . ولم تتخيل أنه رومانسي إلى هذه الدرجة . ولكن أسعدها أن يظهر هذا الجانب الرقيق من نفسه . . . إذن فهو يحاول أن يخفي ذلك . . حتى لا

يبدو ضعيفاً . وحتى لا يبدو أنه يحبها أكثر مما تحبه . . فالرجال لا يحبون أن يكونوا ضعافاً . أنهم يفضلون أن تجري المرأة وراءهم ، لا أن يطاردوها . . ولكنها هي تحب الرقة في الحب . . تكره العنف . تحب الرجل الذي يحبها أكثر . . وقالت له إنها مستعدة أن تموت من أجله . ما دام هكذا رقيقاً صادقاً في عواطفه .

وكان من عادة ماكس أن يتردد على البار الذي إمتلأ باللصوص والمهربين . فقد رأوه كثيراً . وإذا تغيب يوماً أو إثنين سألوه : وأين كنت ؟

ــ صيد جديد !

ــ عصفور أو ديك رومي ؟

ــ عربة ديوك رومية !

ــ والمحصول ؟

ــ ستون ألفاً . .

ــ معك منها شيء الآن ؟

ــ ماذا تريد ؟

ــ مائة دولار

ــ خذ خمسين ولا تردها .

ــ . . .

* * *

أو يسأله واحد آخر بنفس أسلوب اللصوص :

ــ عصفور جديد ؟!

ــ هذه الفتاة التي معي ليست عصفوراً أنها أفعى سمها في نظراتها . . ابتعد عنها .

ــ أنت تعرف أن من يدخل هنا فهو ملك للجميع .

ــ إلا هذه . .

ــ خدعتك ؟ صدقت أن هناك فتاة شريفة في أي مكان في الدنيا . .

ــ قلت لك إلا هذه . .

ــ آه . . آه . .

لقد ركلته الفتاة بحذائها المدبب في بطنه . فسقط على الأرض . . وتركوه في مكانه وصفقوا للفتاة التي مضت تدخن وتشرب النبيذ وتأكل الفول السوداني !

في ذلك اليوم اقتربت فتيات شقراوات وسمراوات وزنجيات . فقال لهن : ضيوفي . . أنتن جميعاً . فعندي مناسبة سعيدة .

قالت واحدة : وهذه الفتاة التي معك هي المناسبة السعيدة !

قال : نعم . .

سألتها واحدة : مبروك يا أختي . . حمل ؟. إجهاض ؟ ولادة ؟ طلاق ؟

قالت صديقته : زفاف !

ــ في أي سجن ؟

ــ في الكنسية !

ــ شريفة يعني . . يخس عليك وعلى شرفك . . يا خونة يا أولاد ال . .

فانتقل ماكس بصديقته إلى مكان آخر من البار . عندما إقترب شاب ومعه صديقة أيضاً . وبسرعة دار بينهما هذا الحوار .

ــ فلوس يا جون . .

ــ أبداً . . أنه حمل ثقيل !

ــ نقتسمه ؟

ــ من أجل هذا جئت أبحث عنك .

ــ مخدرات ؟

ــ لا . .

ــ أوراق مالية مزورة ؟

ــ جثة ؟

ــ لا . .

ــ هل نفذت الخطة أو تفكر في ذلك ؟

ــ نفذت !

ــ إذن لا ترفع صوتك . . دعنا نذهب إلى مكان آخر .

ــ هذه أول مرة . . وأرجو أن تكن آخر مرة . .

ــ نادم ؟

ــ لا . . لست نادماً ولكن أعتقد أن الصفقة سوف تجعلني غنياً سنتين على الأقل . وهي مدة كافية لكي أبحث لي عن عمل آخر . . زهقت !

وخـرج ماكس واتصـل برجـال المبـاحث وطلب تغـطيتـه وحمـايته . وأكـدوا له ذلـك . وفي اليوم التـالي إلتقى مـاكس وصديقه جون . والبوليس حولهما . ابتدأ ماكس الحديث قائلاً إنني وجدت أحسن تجارة هي سرقة اللوحات من الكنائس .

كانت مفاجأة . فقال له جون : وأنت أيضاً . وماذا فعلت باللوحات !

إذن فجـون هو الـذي سرق الكنيسة . . واتصـل ماكس وأخبر المباحث بأنه قد وجد اللص . وطالب مزيداً من الحماية . وطلبت منه المباحث أن يتزوج بسرعة وأن يكون ذلك في فندق إختاروه . وأن يدعي أكثر أصدقائه في البار . وإلا يطلب إليهم أن يجيئوا في وقت محدد . وإنما أن يقول لهم إن الدعوة مفتوحة من الثامنة حتى منتصف الليل . فهؤلاء اللصوص يتشككـون عادة في كل شيء وكل أحد . . وطلبوا إليه أن يخيف جـون ويقول له : إنه يشعر بأن أحداً يراقبهما ولذلك فأفضل مكـان للمفاوضة والإتفاق على بيـع اللوحات ومنـاقشة الـذين سوف يشترونها يجب أن يكون تحت غطاء حفلة الزفاف .

وفي حفلة الزفاف جلس جون . . وتقدم ثلاثة من رجال المباحث على أنهم قادمون من نيـويورك وتفـاوضوا عـلى شراء اللوحات . وعلى أن يتم البيع والتسليم والدفع أثناء الزفاف . . ولسبب مـا قررت المبـاحث أن يجيء رجل آخـر يشتري كـل اللوحات مرة واحدة ويدفع ثمنها ويهرب بها إلى نيويورك قبل أن يتنبـه أحد لـذلك . . لأن سفينـة سوف تبحـر إلى أوروبا . . ولذلك يجب أن يختفي في أسرع وقت . . وجاء رجل عملاق من

المباحث ومعه سيارة كاديلاك . . وخرج جون وهذا العملاق ومروا على بيت جون . . وأخذوا اللوحات وذهبوا إلى الفندق ليتسلم جون بقية حسابه . . ويحصل ماكس على عمولته من التاجر . .

أما اللوحات فهيَ :

لوحة «القديس برثو لميو طائراً» من رسم الفنان العظيم روبنز واللوحة الثانية هي . «تتويج العذراء مريم» للرسام العالمي «موريلو» واللوحة الثالثة هي «نزول الروح القدس» للرسام الكبير فإن ايك أما اللوحات الست الأخيرة فهي لفنانين أقل قدراً .

وعندما خرج جون من الفندق ومعه الفلوس ألقى البوليس القبض عليه . . وعلى ماكس أيضاً . وبعد ذلك أطلق سراح ماكس . وأعطوه مكافأة كبيرة . فقد ساعد البوليس على إكتشاف اللص . وطلبوا إليه أن يمضي أسبوعاً من شهر العسل بعيداً . أما هذه اللوحات فقد إكتشف خبراء الفن . أنها ليست لوحات أصلية . وأنه ليس صحيحاً أن الملك الفرنسي لويس فيليب قد أهداها للكنيسة . . ولا حتى الملك فرانس الأول ملك صقلية . وإنما هذه اللوحات قد أخذت عن اللوحات الأصلية ، ولكن منذ وقت طويل . . وأنها لا تساوي المبالغ الكبيرة التي دفعت ثمناً لها ـ طبعاً إسترد البوليس هذه المبالغ !

هذه هي المفاجأة الأولى . .

أما المفاجأة الثانية فعندما عاد ماكس وعروسه من أسبوع

شهر العسل ذهب ضابط المباحث يدق بابه . فتح العـروسان الباب . وكان ضابط المباحث يحمل معه باقة من الورد . فطلب منه العروسان أن يتفضل ويشرب معهما الشمبانيا والقهوة . وعندما نهضا لتوديع ضابط المباحث قال له : أريد أن أستعير زوجتك لبعض الوقت .

فسأله ماكس : ولكن لماذا ؟

قال الضباط : لأنها إشتركت مع جون في السرقة ؟

ويوم جلست العروس مع ماكس في الكنيسة مندهشة من أنه قرر أن يسرق الكنيسـة . . كان سبب الـدهشة أنها نفس فكرتها مع جون : أن يسرقـا ويهربـا . . فهي تحب جون وأن كانت قد تزوجت ماكس !

ونظر ماكس إلى عروسه . فهزت رأسها بـأن الذي قـاله الضابط صحيح !

أما المفاجأة الثالثة فقد أخبره ضابط المباحث بأن زواجهما ليس صحيحاً . فالقسيس الذي عقد زواجهما كان واحداً من رجال المباحث . . فالزواج باطل !

والمفاجأة الرابعة أن ضابط المباحث طلب إليه أن يتخلص من العمولة التي حصل عليها . . لأنها دولارات مزيفة !

ولكن ماكس رذر فورد (٢٧ سنة) وقد أصابه يأس شديد قال لضباط المباحث : أما المفاجأة الخامسة فعندي أنا . .

وظهر ضابط مـباحـث آخر يقول له : تفضل معنا !

فقد كان ماكس هو الذي سرق إحدى الكنائس . . إنتزع الصليب البرنزي والصليب الذهبي وباعهما لسوء حظه لأحد رجال المباحث . . ولكن جاءت التعليمات بإرجاء القبض عليه حتى تتم عملية اللوحات التسع وتمت العملية . .

والتفت أحد ضباط المباحث إلى الفتاة وقال لها : بقيت مفاجأة أخيرة . . ثم أخرج مسدساً صغيراً من جيبه ووضعه على كفه وقال لها : وهذا مسدسك ؟

وخطفت المسدس لتطلق النار على ماكس . . وكان المسدس خالياً !

***

الأديب الأمريكي مارك توين هو الذي لخص كل محاولات سرقة اللوحات العالمية في هذه العبارة : من السهل أن تسرق فيلاً أبيض . ولكن من الصعب أن تتخلص منه !

جلسنا تحت أشجار جوز الهند . . والقرود تقفز حولنا . . ولكن واحداً منها لا يقترب . . والأعشاب تتحرك تحتنا ، ويقال إنها الثعابين تروح وتجيء ولا تؤذي الإنسان إلا إذا حاول هو ذلك . . ولكن كيف تعرف أنني لا أحاول ايذاءها؟! والجواب : أن العشرة الطويلة مع الإنسان قد علمت الثعابين إن كان أحد يريد قتلها أو لا يريد . . فالثعابين تعرف بالضبط ماذا يدور في رؤوس الهنود . . ولكن كيف تعرف الذي في روءس الأجانب ؟ يقولون : إنها تعرف كل شيء !

أي لا داعي للخوف وإنما من الواجب أن أمد يدي إلى الأرز المخلوط بمربة جوز الهند وأبتلع وأنا ساكت . . وكان الأرز قد وضعوه على أوراق الموز ــ فالأوراق هي الأطباق . . والشوك والساكين هي الأصابع . . وبسرعة اختفى الأرز وغسلوا أوراق الموز وعلقوها لإستعمالها مرة أخرى . .

هذا القرف الذي أشعر به سببه طعم الأرز وشكل الأصابع

والخوف من الثعابين تحت أقدامنا والقرود فوق رؤوسنا . . والغربان التي تخصصت في نقر عيون الناس . . خاصة عيون الأجانب . لماذا ؟ لا أحد يعرف . هل الهنود دربوا الغربان كما دربوا الثعابين على إقتلاع الأجانب من بلادهم ابتداء من عيونهم ؟! لا أحد يفسر ذلك . .

ولا أعرف كيف إنتهى الغذاء . ولا ما الذي قلته عن إنتخابات الهند في ذلك الوقت . ولا كيف إستطاع الحزب الشيوعي في جنوب الهند أن يفوز بالأغلبية ، فهي أول حكومة شيوعية في تاريخ الهند . . وقد فزع العالم كله . . لأنهم رأوا في فوز هذه الحكومة دليلاً على النفوذ الشيوعي الصيني الروسي . . وأنه لن يمضي وقت طويل حتى تكون الشيوعية قد أكلت الهند وأضافتها إلى الصين أو روسيا ، وحذفتها من الأمبراطورية الإستعمارية الأمريكية البريطانية . . ولذلك جاء إلى مدينة ترفندروم عاصمة ولاية كيرالا أكثر من ألف صحفي في يوليو سنة ١٩٥٩ . . ومن أجل هذا جئت أنا أيضاً . .

ولما أوصلني صديقي الصحفي الهندي إلى أطراف الحديقة طلبت إليه أن يتركني أعود إلى الفندق ماشياً . . وفي الشوارع وجدت مظاهرات صاخبة . . أناس صبغوا وجوههم بالطين والزفت ويصرخون . . ويتهجمون على الناس يخيفونهم . . وبعد ذلك يلقون بأنفسهم في الماء . . لتظهر جماعات أخرى . . وسألت فقالوا ؛ كل سنة وأنت طيب إنها عاشوراء !!

فهؤلاء من الشيعة المسلمين يحتفلون بذكرى مقتل الحسين بن علي . . بالبكاء عليه والصوات واللطم وإرهاب

الناس . . وفجأة سقطت الأمطار . . ولم يكن مطراً وإنما السحاب وقع على الأرض . . أو كأن نهراً في السماء حول اتجاهه ، ثم هبط فوق المدينة ، وتحولت الشوارع إلى قنوات . . ثم تساقطت البيوت أمام إنهيار الأنهار السماوية . . ونظرت إلى السماء ، فكان لونها أسود أزرق . . وأحياناً أحمر . . ثم أسود . . فكأن السماء قد غضبت فجأة على هذا الذي يفعله الشيعة الهنود ، فقررت غسل وجوههم وأفعالهم في وقت واحد . . وفجأة إختفت الأرصفة من الشوراع ، فالمياه قد إرتفعت إلى ما تحت الركبة . . وسرت إلى الفندق أخوض في الوحل . . وعلى سطح الماء بدأت تسبح الملابس والألواح الخشبية والأطفال ، وتعالت الصيحات والعويل . . الشيعة والمنبوذون والرهبان والثعابين والكلاب . . وعطست وعطست . وأدركت أنني مقبل على كارثة صحية . . ووضعت الصحف على صدري تحت ملابسي حتى لا أصاب بإلتهاب رئوي.

وفجأة وجدت كل شيء أبيض . . الوجوه والملابس والزجاج والجدران والماء حتى الغربان كان لونها أبيض . . أما الثعابين فكانت شقراء . . ووجدتها تقترب من رأسي ومن فمي ثم تسحب الغطاء على وجهي ــ لقد فتحت عيني على غرفة في أحد المستشفيات . . وعرفت فيما بعد أنني وصلت إلى الفندق مريضاً محموماً . . ويقال إنني وقعت على الأرض . . وإنهم لذلك نقلوني في سيارة إسعاف . . فقد كان البرد والمطر والخوف والمغص أقوى من إحتمالي . .

وكنت قد قابلت رئيس الوزراء الجديد قبلها بيوم ، وقد

عـرف الفندق ذلـك . . فكانت عنـايتهـم مركـزة . . وعندمـا إستعدت وعيي ، وعرفت أن الورد إلى جوار سريري تحية من رئيس الوزراء ووزير الخـارجية . . ومن السيـدة العجوز التي ساعدتها حتى وصلت إلى الفندق . . وهي التي ساعدتني على دخول المستشفى . .

أما كيف ماتت العجوز ، فقد دعتني بعد أن خرجت من المستشفى إلى قضـاء أيام في عـزبتها . . فـلا رأت عيني جمالاً للغابات والطيور والحيوانات كالذي رأيته عندهـا ، ولا رأيت غرفة نوم في فخامة هذه الغرفة . . وكان من عادتي أن أنام في الظلام . . إلا هذه المرة . فلم أستطع . . فالسرير عليه تماثيل لفتيات جميلات على إستعداد لأن يفعلن أي شيىء من أجـل راحتك . . ولكن الخشب الوردي الذي هو سجن لهن ، حرم عليهن تحقيق هذا الأمل . . ولم أخرج من هذا القصر الفخم إلا لنمشي في جنازة صاحبة القصر ، ونقف إحترامـاً وإجلالاً لهـا وجسمها يحترق والدخان يسـحق الأنف ويطمس العين ويقطع القلب ــ يرحمها ربها أو أربابها !

● **وهذا ما قـرأت !**

لقـد نشرت الصحف الفرنسيـة أخيراً إعـلاناً عن شركـة الإخوة هارون بباريس أنهم يبحثون عن تحفـة فنية إختفت في الخمسينات من هذا القرن . هذه التحفـة تساوي الآن مـائتي مليون دولار !

في أبريل سنة ١٨٨٢ تلقت شركة الإخوة هارون خطاباً من أحد أمراء الهنـد ، يطلب صنع سرير من الخشب الـداكن .

ويكون هذا السرير مطعماً بالفضة والذهب ، من كل الجوانب . وأن تكون الحروف الأولى من إسمه واضحة لكل من يراها من أي إتجاه .

وطلب أن تكون هناك أربعة تماثيل لفتيات جميلات . واحدة من إيطاليا وواحدة من فرنسا وواحدة من أسبانيا والرابعة من اليونان ــ أجمل بنات الدنيا كلها . ولم يشأ أن يطلب صنع تمثال لبنات الهند ، فعنده الكثيرات حول السرير وعليه وتحته . .

وطلب أن تصدر عن السرير ألحان موسيقية جميلة لمدة نصف ساعة . ثم إختار هذه الألحان الناعمة الساحرة . . وعاد فطلب تغييراً لهذه الألحان .

وإختار أن تصدر عن السرير ألحان موسيقية نشطة عندما يغادر الفراش . . وإشترط أن تكون هذه الألحان فاتحة للشهية ولا تكون مثيرة أو مزعجة أو عسكرية . .

وأخيراً طلب أن يكون للفتيات شعر طبيعي : أحمر للإيطالية ، وكستنائي للفرنسية ، وأسود للأسبانية وأشقر لليونانية . .

وبسرعة وضعت شركة هارون خطة للعمل . . فجاءوا بالفنانين الذين رسموا السرير والذين صمموا الزخارف الفضية والذهبية . . وأتوا بأعظم مثال في فرنسا وصنع الفتيات الجميلات الشقراوات . . وإختاروا المقطوعات الموسيقية من أوبرا «فاوست» للموسيقار الفرنسي جونو . . وأتوا بعدد من الرسامين ليجعلوا لون البشرة طبيعياً . . وأتوا بحلاق يختار

الشعر المناسب لكل واحدة من الشقراوات .

وعرضوا خطة العملة على الأمير الذي طلب ألا يعرف أحد إسمه ، فأعجبه كل الذي رآه . . وأدخل تعديلاً بسيطاً وهو أن تكون الفتاة اليونانية شاحبة الوجه ذليلة كأنها تطلب الرحمة . . أنه طردها في منتصف الليل فجاءت تبكي على الباب عند قدميه . . لماذا ؟ هذا ما طلبه . . والزبون على حق دائماً !

أما وزن السرير فقد بلغ ١٧٠ رطلاً .

وجاء الأمير يوم ١٥ ديسمبر ١٨٨٢ ورأى وأنبهر . ونام على السرير ، فلم يكد يضغط بجسمه على المراتب ، حتى انطلقت الموسيقى الحالمة . . أما الشقراوات فقد تحركت أيديهن بالمراوح المصنوعة من ريش النعام ، يطردن عنه البعوض والذباب ـ وقد صنعوا الذراع المتحركة من الألمنيوم ، ولكن جعلوها في لون البشرة .

وعندما ينهض من الفراش ، ويضغط بقدميه على الطرفالآخر من السرير تنطلق موسيقى نشطة . .

ويوم ٢٥ يناير سنة ١٨٨٣ شحن السرير من باريس إلى ليفربول في بريطانيا . . ومنها إلى الهند .

ونشرت صحيفة «الفيجارو» الفرنسية في ذلك اليوم حكاية هذه الأسطورة الفنية التي لا يصدقها العقل . . ولم تذكر اسم الأمير الذي سوف ينام على سرير صنع من خشب الورد مزركش بالفضة والذهب ، وقامت على سعادته أجمل جميلات أوروبا للتحرك مع أجمل الألحان حتى ينام الأمير هانئاً ويصحو أكثر سعادة . . ليلة . . وألف ليلة !

ونقل السرير من ميناء بومباي إلى كراتشي فوق عربة تجرها الثيران .

وقد عرف المؤرخون فيما بعد من قراءة الحروف الأولى من إسم الأمير المنقوشة على السرير أنه الأمير الهندي المسلم نواب صادق محمد خان الرابع حاكم ولاية بهاولبور فيما بين ١٨٧٩ و١٨٩٩ . وبعد وفاته آلت ثروته للورثة : ٢٣ أميراً !

ولم ير أحد هذا السرير منذ ذلك الحين . فقط صحفية إيطالية رأته في سنة ١٩٥٤ . وكتبت عنه مقالاً وصفته بأنه أعجوبة الدنيا كلها . . ولكن لم تسمع الموسيقى التي تصدر من أركان السرير . . وإن كانت رأت الشقراوات ما يزلن يطردن الذباب . . ما عدا الشقراء اليونانية فحركاتها عصبية ــ لا بد أن خللاً أصاب الجهاز الذي يحركها أو أن أحداً همس في أذنها بالعقوبة التي فرضها عليها الأمير !

وكان الأمير قد دفع ثمناً لهذا السرير ربع مليون فرنك ــ أي ما يعادل الآن أكثر من مليون دولار . .

وقد رصدت شركة الأخوة هارون مليون دولار لمن يدلي بأية معلومات تؤدي إلى العثور على أجمل وأروع تحفة فنية أبدعتها باريس !

● **وهذا ما تمنيت !**

وبسرعة عادت بي الذاكرة إلى ما رأيت في يوليو سنة ١٩٥٩ في مدينة ترافندروم . . وتؤكد ذاكرتي أن السرير الذي نمت عليه مريضاً أو في حالة النقاهة هو هذا السرير . .

ثم عدت بالذاكرة لأتأكد من مسار الأحداث . . فقد أكلت الأرز بالموز وبجوز الهند . . وقد أصابني هذيان . . هذا الهذيان ليس بسبب الإصابة بالزكام من جراء السيول . . ولا من جراء الحمى . . ولكن لأنها أول مرة أتناول فيها هذه التركيبة الغربية من الينسون وخلاصة الموز ولبن الموز مع الشطة . . وقد عرفت أنها تؤدي إلى الهذيان الشديد . . وبعد ذلك إلى الهذيان المتقطع . .

وكنت قد قرأت في مذاكرات «جوروكير» سكرتير حاكم جزيرة سانت هيلانة التي نفى إليها الأمبراطور نابليون من سنة ١٨١٥ حتى سنة ١٨٢١ . . وقد وصف حالات الصراخ والغضب والهلوسة التي كانت تصيب الأمبراطور من حين إلى حين . . وكان يفسرونها بأنها الإسراف في الشراب . . ولم يكن نابليون سكيراً ! وقيل في تفسيرها إنها التوابل التي كانوا يصعونها في الأكل . . وقيل أيضاً أن الإنجليز قد قتلوا نابليون عندما وضعوا له الزرنيخ في طعامه بكميات قليلة ، حتى مات في هدوء وقد تأكد ذلك طبياً عندما حللوا خصلة الشعر التي أهداها نابليون للشعب الفرنسي . . فوجدوا الزرنيخ في شعره بكميات كبيرة ، فهي ــ إذن ــ هلوسة سموم . . وكان من مظاهر هذه الهلوسة أن ينهض نابليون من فراشه ويتخيل أنه في ميدان الكونكورد في باريس : الجنود أمامه وكل جميلات فرنسا وألمانيا وروسيا يقفن وراءه ويحملنه على أكتافهن ليتزحلق إلى صدورهن إلى سيقانهن . والموسيقى تعيده إلى مكانه من الأكتاف ، ثم ترده إلى مكانه من السيقان . . وتقفز به فوق حصانه في مقدمة جيوشه المنتصرة !

فهل أنا رأيت السرير حقاً أو هي هلوسة لبن الموز ، أو هي الهلوسة عند قراءة هذا الإعلان والمكافأة التي أستحقها إن جاءت معلوماتي صحيحة ؟ ثم كيف أفسر لنفسي أنني عندما كتبت عن الهند وعن ولاية كيرالا وعن مدينة ترفندروم لم أذكر كلمة واحدة عن هذا السرير ؟! هل لأن السرير أخافني ؟ . هل لأن منظر السيدة العجوز وهي تحترق جعلني أنا الآخر ألقي معها في النار : بيتها وسريرها واليوم الأسود الذي دعتنى فيه إلى غاباتها وحيواناتها ؟ يجوز !

* * *

ولذلك جاء خطابي إلى الإخوة هارون موجزاً . . قلت :

السادة الأعزاء

عندي معلومات عن هذا السرير ترجع إلى سنة ١٩٥٩ عندما كنت في الهند . . وأنا على يقين مما رأيت . . فإن أردتم تفصيلات أكثر ، فليكن مع مندوب لكم بحضور إثنين من المحامين : واحد من عندكم وواحد من عندي .

وأنا مستعد أن أذهب مع من ترون من رجالكم إلى نفس المدينة ولبضعة أيام . . فإن أدى هذا البحث وهذه المعلومات إلى العثور على السرير فإنني أستحق الجائزة ولكم عظيم الإحترام والإمتنان . .

يولد الإنسان فقيراً
ليموت كذلك!

الأصل في كل شيء هو ؛ الفقر . .

وليس الثراء . . فالإنسان يولد عارياً عاجزاً . وبعد ذلك يصبح أقوى ويتغطى بالملابس . ويكون له ظهر وعضـلات . ويكون أسرة ويرث صفات الأبوين وأموالهما . .

وبعد ذلك يعود الإنسان إلى التراب . . لقد ولـد وطولـه قدمان ودفن وطوله خمسة أقدام ـــ فهل كـل هذا العناء من أجل ثلاثة أقدام ؟!

ويبدو أنه مكتوب على الإنسان وعلى الإنسانية أن تعيش في حالة من الضعف والموت والفقر . فـدفاعـاً عن الضعف تقام ترسانات السلاح والمصانع والجيوش . . وتتكلف الجيوش الكثير جداً من الأموال التي يحتاجها الناس . . فالناس من أجل المدفع تختصر حجم الـرغيف ، ومن أجل الـرغيف تبـالـغ في حجم المدافع والقنابل . . ومن أجل الشعور بالأمان تقوم بتطوير كل أنواع الأسلحة ومع ذلك لا يتحقق الأمان . .

وفي العصور القديمة أقام فراعنة مصر الأهرامات والمعابد ،

فاستنزفت أموالهم وطاقتهم . وحرمت الشعب من حياة الرفاهية من أجل بناء أشهر المقابر في التاريخ .

والصين أقامت حائطها العظيم بأيدي الملايين ، ليحرم الملايين من الطعام والشراب أيضاً . .

وأميركا وروسيا أقامتا قواعد لسفن الفضاء وأنفقا ألوف الملايين من أجل أن تيسر لسكان الأرض هجرتهم إلى الكواكب الأخرى . . أما هذا الكوكب فقد امتلأ بالخوف والرعب والجوع والمجاعة . ولو وجهت الدول الأوروبية الأخرى أموالها لأطعام فقراء أميركا وروسيا ودول العالم الثالث لعاش الناس في سعادة وعافية وأمان . . ولكن إتجهت الدول الكبرى إلى إحاطة الأرض بسور عظيم من الأقمار الصناعية وأقاموا أهرامات من القواعد لإطلاقها إلى الفضاء الخارجي . .

وكأن هذه المؤسسات الشامخة لم تبدد أموال الشعوب بدرجة كافية ، فظهرت الأمراض من كل نوع . . ظهر التلوث الكيميائي في الماء والهواء والطعام . وانتقلت أمراض الخلايا السرطانية في العالم وفي الحيوان والأسماك . . كما أدى التطور الصناعي الهائل إلى إحداث ثقب في غطاء الأرض ــ أي في طبقة الأوزون التي تلف الأرض وتحميها من أشعة الموت ــ الفوق البنفسجية التي اتجهت إلى الحيوانات البرية والبحرية . . وإلى إصابة جلد الإنسان بالسرطان . .

فسفن الفضاء تتجه إلى الفضاء الخارجي ، والموت يتجه إلى الفضاء الداخلي إلى خلايا الدم . .

فالإنسان بعقله يقضي على عقله وعلى قلبه . . والإنسان

بأمواله يخترع مصادر لأنفاق أمواله حتى يعيش في فقر دائم . فقر إلى الصحة والأمان والطعام والشراب والراحة . . وبذلك تتحول الكرة الأرضية إلى قمر صناعي يدور حول نفسه وحول الشمس ومعه ألوف ملايين الموتى . . أو الذين سوف يموتونه بأيديهم . . تماماً كما أطلق الروس قمراً به الكلبة لايكا . . فكان القمر أشهر نعش في التاريخ . . نعش يدور حول خمسة آلاف مليون إنسان من المشيعين وقد وقفوا يتفرجون عليه ـ الجنازة حارة والميت كلب !

ولكن الإنسان على الأرض لن تكون له جنازة . . وإنما ستصبح الأرض نعشاً يدور ويدور . . بلا مشيعين ! فقد إختار الإنسان أن يعيش بالعقل وأن يموت بالعقل . فالحياة الخطرة من إختياره ، والموت بعد ذلك من قراره ـ فلا حول ولا قوة إلا بالله !

البناء والبناء ثم البناء

في السعودية يسألونك وهم يعرفون الإجابة مقدماً : متى آخر مرة كنت في المملكة ؟

ــ من عشر سنوات . .

ــ أوه . . طبعاً الدنيا تغيرت ؟!

ــ جداً جداً !!

وإذا قلت إنك كنت هنا في العام الماضي ، فيكون التعليق على ذلك : طبعاً الدنيا تغيرت . ويكون ردك : جداً تغيرت . .

وهذا صحيح . فأهم معالم المملكة السعودية البناء . . البناء والإنشاء في كل مكان . . مع حرص كل مدينة على أن يكون لها طابع خاص . . فالعلامات الجمالية في مدينة جدة بوضع التماثيل من كل المدارس الفنية . . وكذلك المصابيح وأعمدة النور والميادين والحدائق ، تجعلك تحس أن المدينة تقع على شاطىء الأطلنطي في أميركا أو في البرازيل . . وفي مدينة الرياض انطلقت الأرض في كل الإتجاهات . . والإنطلاق اتخذ شكل الشوارع الواسعة جداً المستقيمة جداً . . وعلى جانبيها

الأشجار وعلامات المرور . . واللافتات إلى المدن . . كل ذلك يبهرك . . البيوت السكنية لا ترتفع كثيراً عن الأرض . . فالمعمار هنا يمتد بالعرض وليس بالطول . . فلا توجد ناطحات سحاب هنا . . لأن العمارات التي تنطح السحاب قد اخترعها الإنسان في جزيرة نيويورك حيث الأرض ضيقة فلا مجال أمام إبداع المهندس إلا أن يعلو ويعلو وينطح السحاب ، لا أن يتمدد على الأرض الفسيحة . . وفي مكة المكرمة يتركز الإبداع والتوسعة في الحرم الشريف . . وفي الشوارع حوله وفي تهذيب الجبال . . وفي المدينة المنورة إتسع مسجدالرسول عليه الصلاة والسلام حتى أصبح المسجد مساوياً بالضبط للمدينة على أيام الرسول عليه السلام . . وأضيقت الأنوار وأجهزة التكييف . . واتسعت الأرض حول مسجد الرسول . . ويقال ويقال عن الأرض التي تثرثر بالقمح والفاكهة وعلى ملايين البيض الذي يخرج من مزارع الدواجن . . ويقال عن نويبع وعن جبيل ويقال عن القصيم وعسير . . وبسرعة تقام المدن . . كأنهم يزيلون عنها الرمال فقط . . فإذا هي قد ظهرت أنيقة فخمة على سطح الأرض . . شيىء غريب أن تجد الناس منضبطين تماماً . . السائق لا يمشي والعلامة حمراء رغم أن الساعة الثالثة صباحاً ، ولا أحد وراءنا وأمامنا . . وهو يغفل ذلك لا على سبيل التظاهر بالنظام . ولكن لأن الناس قد إعتادوا على الضبط والربط وإحترام القانون . . ويدخلون المحلات من باب الدخول ، ويخرجون من باب الخروج ـ والأطفال يفعلون ذلك !

سألت واحد مداعباً : سيادتك سعودي مستورد ؟

فقال : سعودي مقيم : والنظام هو الذي إستوردناه . . ونحن استوردناه لأننا قررنا أن نحترم النظام والقانون . .

ثم أشار بيده . . فوجدت المحلات كلها قد أغلقت أبوابها بسرعة فقد حان موعد صلاة العشاء . . وفهمت أن النظام قد نبع من الدين والإيمان . .

وأين هو الإنسان العادي ؟!

نحن نسرف في إستخدام كلمة «المواطن العادي» . . أي «الإنسان العادي» . . أي «الإنسان البسيط» . . أي «رجل الشارع» . .

وأرجو أن تعود إلى كل هذه التعبيرات السابقة وتحاول أن تجد لها معنى . .

فهل قابلت في حياتك أي واحد عادي . . وما هي صفات الإنسان العادي . . ومن الذي إذا جلست معه قلت لنفسك : أنه عادي . .

وما هو الفرق بين العادي وبين غير العادي . . أي ما هي الصفات التي إذا توفرت في إنسان قلت : إنه عادي . . وإذا لم تجدها قلت : أنه غير عادي . .

وما هو تعريف كلمة البسيط . .

وما هو رجل الشارع . . هل هو الذي يمشي في الشارع . . يمشي على قدميه ؟ . أو بسيارته ؟ . فإذا لم يمش في الشارع فمن يكون ؟ . هل نصف الذين يركبون الطائرات ويضعون

أقدامهم فوق رؤوسنا بألوف الأقدام ، هل هم عاديون أو غير عاديين أو فوق مستوى البشر . . هل هو الوضع الجغرافي الذي يحدد قيمة أي إنسان . . فالذي نزل على القمر هو نبي ؟ أو هو نصف آلة . هل هو الذي إرتفع ؟ أو أنها أجهزة جبارة يعمل بها عشرات الألوف من الناس هم الذين «شحنوه» وربطوه وأطلقوه مثل الصاروخ . والمكوك الذي يحتمي وراء طبقة من الطوب الذي لا يحترق . . إن أي رائد فضاء ليس إلا سائقاً لسيارة . . عجلة قيادتها وفراملها على اورض . . وهو كأي شيىء آخر «محطوط» فوق . .

أما أنا فلم أصادف في حياتي كلها إنساناً «عادياً» . ولا رجل شارع . . ولا أحد بسيطاً . . أبداً . . لأنه لا يوجد أحد بهذه المواصفات في أي مكان . . فلا أحد عادياً ، ولا أحد بسيطاً ، ولا أحد شوارعياً . . وإنما هي مسميات نطلقها بغير دقة وبغير علم . . ثم أنها انتشرت بحيث أصبح من الصعب أن نسحبها من الصحف والكتب !

وإذا أردنا أن نقول أن الإنسان العادي هو المتوسط الحال ، القليل الثقافة . . فهل ينطبق هذا على العامل أو على الفلاح؟ وما القول إذا كان العامل قد درس ثم أصبحت لديه قدرة خاصة على العمل في الأجهزة الدقيقة ؟ . . وماذا نقول عن الفلاح الذي يركب الجرار ويدير السيارات الكهربية ويخلط المواد المخصبة بالمبيدات الحشرية بحساب ، فهل لا يزال إنساناً بسيطاً أيضاً ؟ . . وهل نقول ذلك على الصيادين الذين يعملون في الحقول السمكية ؟

أن أحد لم يعد يفرق بين العامل والفلاح . . الفلاح الذي يعمل في الحقول ، والعامل الذي يفلح المزارع السمكيـة . . والكاتب الذي هو مهندس العلاقات الإجتماعية ، والمهنـدس الذي هو طبيب العلاقات المادية ، والطبيب الذي هو موسيقار وظائف الجسم . فلا فوارق بين المهندس والفلاح والـطبيب والعامل . .

وقد دارت مناقشات في البرلمان المصري إستمرت سنوات ولم نهتد بعد إلى من هو العامل ومن هو الفلاح .

وإذا كان المطار إسمه «الميناء الجوي» فهل الذين يقودون الطائرات : طيارون أو ملاحون ؟!

أحسن حل : ألا نوجع دماغنا بحثاً عن حل ــ خليها على اللّه !

أمـراض المثقـفين

ما هي أمراض المثقفين ؟

كثيرة. ويمكن أن تضاف اليها ككل أمراض الناس الذين لا ينشغلون بالثقافة ، لا يحصلونها ولا يتاجرون فيها أو يعيشون عليها . .

فمن أمراض العصر الحديث : القلق والأرق وضغط الدم وتسوس الأسنان ووجع القلب والمعدة .

ثم أضف إليها شيئاً ليس مرضاً ولكنه كالمرض أو من الممكن أن يؤدي إلى أمراض كثيرة : الأمساك !

وفي التاريخ أناس عاشوا وماتوا يتعذبون صباح مساء . ومن مظاهر العذاب وجع المصارين . . ثم الصداع وقلة النوم وإنسداد النفس والتوتر العصبي . .

أهم هؤلاء المساكين : الرئيسان جيفرسون وهاريسون والزعيم الفرنسي روبسبير ونابليون والأديب هنري جيمس والعالم النفسي فرويد والزعيم غاندي والموسيقار جرشوين

والممثلة مارلين مونرو . . والأستاذ عباس العقاد . . وكاتب هذه السطور !

ولهم جميعاً صفة واحدة يشتركون فيها أنهم عصبيـون . . عصبيون لأنهم في حالة إمساك ، أو أنهم في حالة إمساك لأنهم عصبيون . والعلاج ؟

أولاً : لا بد من الرياضة . وخاصة رياضة المشي . وأنا لا أفعل ذلك .

ثانياً : لا بد من الجلوس قليلاً لا كثيراً ولا طويلاً . . فإذا كنت تكتب فلا بد أن تتحرك في الغرفة أو خارجها . لا بد . ولكني لا أفعل . فالقراءة أو الكتابـة تستغرقني فـأظل جـالساً هكذا عشر ساعات !

ثالثاً : ممنوع شرب الشاي أو القهوة على الريق . . وهذا مستحيل في حالتي .

فأنا أصحو في الرابعة صباحاً من كل يوم . وأحيانـاً قبل ذلك . ولا بد أن أشرب شاياً وقهـوة لكي أنشط . . أو أفتح عيني وفمي أيضاً . ولا أستطيع أن أتناول طعام الإفطار وبعد ذلك أصبح قادراً على القراءة والكتابة !

رابعاً : أحسن علاج للإمساك أن تنـام طويـلاً وعميقاً . نصيحة للسيدات : أن النوم أحسن علاج للبشرة .

ولذلك فكثير من السيدات ينمن طويلاً وعميقاً من أجل جمال البشرة . ولكن كثيراً من السيـدات لكي يسعدن بـالنوم الطويل يتعاطين الحبوب المهدئة أو المنومة . وهذه الحبوب هي

أكبر مسببات الإمساك ويحتفظ بكثير من السموم في الجسم فتنتقل إلى الدم وتفسد البشرة !!

وهذا الشرط صعب جداً أيضاً . . فأنا لا أستطيع أن أنام هكذا طويلاً حتى لو تعاطيت الحبوب المنومة . .

خامساً : عند النوم يجب أن تستمع إلى أغنية رقيقة حلوة الكلمات تحدثك عن الأمل وحلاوة الدنيا . . تضحك عليك ، ويسعدك ذلك فتنام !

وهذا مستحيل أيضاً : فإن أية أغنية إذا كان فيها كلام فأنها توقظني . لأن الأغنية عادة تحكي حكاية . . قصة . . مأساة . . تعرض قضية إثنين من العشاق . . ومطلوب مني أن أكون قاضياً ولا أستطيع أن أكون قاضياً للغرام دون أن أتربع في سريري ويذهب النوم ويجيء الإمساك !

سادساً : وأنت نائم على ظهرك حاول أن تدلك بطنك بيدك في حركة دائرية . . من اليمين إلى الشمال . . فإن هذا يساعد على تنشيط الأمعاء . . ولكن قرأت أن الحركة الصحيحة من الشمال إلى اليمين . . ولكن قرأت أن الحركة الصحيحة هي من أعلى إلى لأسفل . . وقرأت أن النوم على الجانب الأيمن هو الأصح ـ وكان الرسول عليه الصلاة والسلام ينام على جانبه الأيمن . . ولكني أعتدت أن أنام على الجانب الأيسر . . ولا أستريح إذا نمت على الجانب الآخر أو على الظهر أو على البطن . . ووضعت ذراعاً تحت رأسي ، وذراعي الآخر على جنبي وبلا حراك . واستقر كل شيىء في أمعائي على حالته :

نوعاً من الحصا يتحول إلى صخر أتوسل إليه كل صباح أن يكون أي شيىء آخر !

سابعاً : لا اللبن ولا الزبادي ولا الأيس كريم ولا الملوخية ولا البامية ولا القلقاس . . والأفضل الشوربة واللحم المسلوق ! مصيبة ! فهذه أحب الأطعمة . ثم إنني لا آكل اللحم بكل أشكاله وألوانه وأسمائه !

ثامناً : لا يبقى إلا ما كان يفعله أجدادنا من الفراعنة : شربة زيت كل شهر أو كل أسبوع . .

ولكن ما الحل إذا لم تفلح هذه الشربة في أن يكون لها أثر . . وما القول في أن الأطباء ينصحون بعدم الإسراف في تعاطي مثل هذه العقاقير . . وأن الفراعنة كانوا أصح وكانت حياتهم أبسط . ثم أنهم لم يعرفوا الصحف ولا الإذاعة ولا التليفزيون ولا كرة القدم !

فالإمساك هو مقبرة الغزاة من المثقفين ــ ولا حول ولا قوة إلا بالله !

كل واحد له طريقة

لا توجد قاعدة واحدة للتفكير أو لهيئة الإنسان عندما يفكر . . فأنت تفكر وأنت جالس وأنت في الطريق وأنت نائم . .

والذين يحترفون التفكير لهم طرق مختلفة . .

فسقراط الفيلسوف كان يمشي مع تلامذته في الشوارع ويجلسون على الأرض ثم ينهض ويدور حولهم . .

والفيلسوف أرسطو كانت له مدرسة . . وكانت في المدرسة طرقات وكان يتمشى وتلامذته وراءه ولذلك أطلقوا على أنفسهم إسم المشائين . .

والعالم الأغريقي أرشميدس كان مشغولاً بإكتشاف أحد قوانين الطبيعة . . وفجأة قفز من الحمام عارياً يمشي في الشوارع وهو يقول : وجدته . . وجدته . .

والأديب الإنجليزي والتراسكوت كان لا يفكر إلا نائماً تحت شجرة . .

ومؤلف قصص الأطفال الدانمركي أندرسن كان لا يفكر إلا

نائماً . وكان نحيفاً جداً . وكان يترك ورقة إلى جوار سريره مكتوباً عليها : لست ميتاً ولكن أبدو كذلك !

والذين يفكرون وهم نائمون يضعون ورقة وقلماً تحت المخدة . . كذلك كان يفعل الأديب الروسي تولستوي . .

والذين «يسرحون» وهم جالسون ـ أي الذين ليسوا مع الناس ، فلا هم جالسون ولا هم واقفون ولا هم نائمون . . وإنما في حالة تجمع كل هذه الحالات مثل أمير الشعراء أحمد شوقي . . وكان كثيراً ما يحرك شفتيه لأنه كان ينظم قصيدته سراً . . ثم يحفظها . . وقد يجد ورقاً ولا يجد . . فإذا لم يجد أخرج علبة السجائر وكتب عليها القصيدة . .

وكان الشاعر البحتري والشاعر إبراهيم ناجي يمشيان . ثم يتوقفان . ويسند الواحد منهما كتفه إلى حائط وينظر إلى فوق وإلى تحت . . ثم يمضي في نظم قصيدته . . وبسرعة يعود إلى البيت يسجل الذي نظمه في الطريق .

وكان البحتري كثيراً ما يقول لنفسه بعد الفراغ من نظم قصيدته : اللّه ! اللّه يا بحتري ؟ أو يقول لنفسه : اللّه يا أعظم الشعراء رغم أنف الجميع !

وكثير من الأدباء الكبار كانوا يفكرون وهم يمشون فإذا قرروا أن يكتبوا ، لم يجلسوا وإنما ظلوا واقفين . . مثل الشاعر الألماني جيته . . فقد كان يشكو من المصران الغليظ . وكذلك الأديب الأميركي همنجواي والأديب الروسي نابكوف والأديبة الفرنسية جورج صاند والأديب الإيطالي شيزاره بافيزه . . والأستاذ العقاد !

فكان للأستاذ العقاد مكتب صغير . وهذا المكتب لا يستطيع الأستاذ أن يدخل تحته ليستريح عند الكتابة . . ولذلك كان يجعل المكتب إلى جواره ويكتب . . وكان يتعب . . فلم يكن أمامه إلا أن يقف وينكفىء على المكتب . . ولم يفكر الأستاذ العقاد في أن الحل الوحيد هو أن يشتري مكتباً أكبر ومقعداً أعرض !

وعندما نبهت الأستاذ العقاد إلى ذلك ضحك قائلاً : تأخرت كثيراً يا مولانا . . كان يجب أن تظهر قبل أن تولد بعشرين عاماً !

لا يصنع المعجزات

الذي قال : أن الحب يصنع المعجزات ، لم يقل لنا ما معنى هذا الحب ؟ وما هي حدود المعجزة ؟

ولكني أعرف أن المرأة من أجل الرجل الذي تحبه تدوس على أي قانون وأي مبدأ ـ وهذه هي المعجزة !

والرجل من أجل القانون والمبدأ يدوس على أي إنسان ، ولو كان أحب الناس إليه ـ وهذه هي المعجزة !

معجزة من يضحي بالمبدأ مس أجل شخص ، ومعجزة من يضحي بأي شخص من أجل المبدأ!

فعندما أحب الشاعر الإيطالي دانتي فتاة صغيرة اسمها بياترتيشه حاول أن يقترب أكثر وأكثر . ولكن لم تحدث المعجزة !

قال لها : أحبك . .

قالت هي : وأنا أيضاً ولكن لا أعرف لماذا؟

قال : لماذا تحبينني ؟

قالت : لماذا أنت تحبني ؟!

ـ لا أعرف . ولكن سوف أعرف يوماً . إذا إتسع وقتي وإبتعدت عنك قليلاً .

ـ ثم ما النهاية ؟

ـ أن أتزوجك !

ـ ولكني متزوجة !

ـ طلقيه !

ـ لا أعرف

ـ اقتليه

ـ هل تعرف أنت ؟

ـ لا أعرف !

ـ إذن !

ـ نهرب معاً .

ـ وبعد ؟

ـ نتزوج ؟

ـ سراً . .

ـ واللّه ؟

ـ غفور رحيم !

ـ كيف تضمن أن يغفر لي ويغفر لك ؟

ـ أليس هو الذي وضعك في طريقي . . وضع وجهك الجميل أمام عيني . . ووضع صوتك الجميل قريباً من قلبي . . أنه إذن الذي شاء ذلك . .

ولم تتحق المعجزة ، ولكن الشاعر دانتي جعل محبوبته هذه ، بطلة ملحمته العظمى «الكوميديا الإلهية» وراح يتنقل بها

بين الجنة والنار يعرضها على كل عظماء الإنسانية الذين ماتوا في النعيم والجحيم . وكانت هذه الملحمة هي المعجزة الفنية !

* * *

وكان الشاعر وضاح جميل الصورة فأحبته إبنة الخليفة . وعلم الخليفة أنها تضع الشاعر وضاح في صندوق كلما جاءها أحد . فذهب إليها وطلب الصندوق . فأعطته الصندوق دون أن يبدو عليها التأثر . وألقى الخليفة بالصندوق في البئر وهال عليه التراب . ولم تذرف دمعة واحدة . وكأنها دفنت قلبها مع حبيبها ــ وهذه هي المعجزة !

وفي يوم جاءت جارية تغني للخليفة فقالت ؛

حي التي أقصى فؤادك حلت

علمت بأنك عاشق فأذلت

وإذا رأتك تقلقلت أحشاؤها

شوقاً إليك فأكثرت وأقلت

وإذا دخلت فاغلقت أبوابها

عزم الغيور حجابها فاعتلت

وإذا خرجت بكت عليك صبابة

حتى تبل دموعها ما ابتلت !

فسألها الخليفة عن صاحب هذه الأبيات قالت : وضاح اليمن !

فغضب الخليفة وقال لها : من قال لك أن تغني هذه

الأبيات ؟ قالت : سيدتي بنت الخليفة . .

قال : هل تعرفين جزاءك ؟

قالت : نعم .

قال : ادفنوها معه . .

قالت : بالضبط هذا ما تمنيت . . فلا حياة لي بعده !

أنها أيضاً معجزة أن تحب السيدة وخادمتها شخصاً واحداً . . والسيدة تدفع خدامتها لكي تموت معه . . فتبكيهما معاً ـ وهذه معجزة !

هذه الأسماء الكثيرة

أسماء كثيرة أطلقت على الناس في هذا الزمان . وهذه الأسماء أطلقت على الأغلبية لا على الأقلية . فقد أدت الإصلاحات والثورات إلى أن تحقق العدل بالذوق أو بالقوة للأغلبية المظلومة .

فالأغلبية المظلومة : هذا هو أحد الأسماء التي تطلقها على بقية الناس . .

ويقال : الكادحون ــ مع أن الكدح من ضرورة حياة كل الناس !

ويقال : المطحونون . . والمسحوقون . . أي الذين طحنتهم الحياة أو سحقهم الأقوياء الأغنياء . .

ويقال : إننا في عصر الإنسان الصغير . . أي عصر ملايين الناس . .

ويقال : نحن في عصر الإنسان العادي . . أي الذي ليس ملكاً ولا أميراً ولا نبيلاً ولا إقطاعياً ولا رأسمالياً . . وإنما هو كائن حي ليست له مزايا ولا مواهب . . كائن حي ناطق . .

ويقال : نحن في عصر الشيء الصغير : الذرة . . وعصر الإنسان الصغير : أي رجل الشارع . .

ورجل الشارع تسمية أيضاً للأغلبية . . فهو ليس رجل الحقل ولا رجل المصنع ولا رجل المكتب . ولا رجل الطائرة والسيارة والسفينة . . وإنما هو فقط واحد يمشي ويقعد ويأكل ويشرب في الشارع فليس له مكان آخر ـ مع أن هذا غير معقول . ولكن هذه هي التسمية التي إنتشرت والتصقت بملايين الناس . .

ويطلقون على الأغلبية أو على الملايين أو الجماهير : الواقفون وحدهم . . أي أنهم لا يستندون إلى أحد . . إلى أرض أو مصنع أو مال أو جاه أو أسرة أو تاريخ . . فهم كالأشجار تقف وحدها تعتمد على ساقيها وجذورها وتمسكها بالأرض . . بينما كل الناس يقفون معاً ويأكلون معاً ويعملون معاً ويواجهون الدنيا معاً . . عصبة . . قوة . . جمعية . . هيئة . . عائلة . . قبيلة . .

وفي سنة ١٩٣٢ طلع علينا الرئيس الأميركي روزفلت في حملاته الإنتخابية من أجل الرياسة بتعبير جديد : هؤلاء المنسيون عند سفح الهرم الإقتصادي . .

أي الذين ننساهم عادة مع أنهم ملح الأرض وعصب الحياة ، وبغيرهم لا أرض ولا حديقة ولا ملاحة ولا طيران . . ولا إنتاج . أنهم موجودون في كل مكان . ولكننا ننساهم . ويكون هذا النسيان نوعاً من العقوق . . ونوعاً من تأكيد ذواتنا على جثث هؤلاء الناس . .

وأحد التسميات هي : الأغلبيـة الصامتـة . . أي الناس الكثيرون بألوف الملايين . . يتحركون ولا يتكلمون . . يعملون ولا يتكلمون . يموتون ولا ينطقـون . بينما بقيـة الناس ــ أي الأقلية لا تكف عن الكلام والصياح . هذا هو المعنى !

ولكن عنـدما نتفـرج عـلى التلفـزيـون نجـد أن الأفـلام والمسلسلات قد إمتلأت بأناس يتكلمون ويصرخـون . . وهم أبناء الطبقة الدنيا أو الوسطى . . أما الذين لا يتكلمون فهم الناس اللي فوق . . أما الناس اللي تحت فهم الذين لا يكفون عن الكلام . .

انظر إلى الشوارع : ضوضاء وحـركة وزعيق وصراخ . . أنهم الناس العاديون . الجماهير . . والمناطق التي يحتشد فيها العمال والفلاحون هي أماكن الضوضاء والصخب وتلوث الماء والهـواء والميكـروفـونـات المفتوحة عـلى الآخـر من الإذاعـة والتلفزيون . . والجالسون على المقاهي يتابعون مبـاريات كـرة القـدم يصرخـون . . والـذين في مـلاعب الكـرة يصرخـون ويضحكون ويزمرون . . أنها الأغلبية ولكنها ليست صامتة . . ولا نريد ولا نستطيع . . ولا نستطيع نحن المثقفون أن نجعلها تبتلع ألسنتها وحناجرها أيضاً ولا أن تجلس في الملاعب كأنها في حفلة تأبين للاعبين ولكرة القدم وكل نشاط جماهيري . .

ومن المؤكد أن هناك أغلبية وهناك أقلية . ولكن ليس من العدل أن تعطي الأغلبية كل الصفات النبيلة ولا يتبقى للأقلية إلا أحط الصفات . . لا لسبب إلا أن هؤلاء كثيرون ، وهؤلاء قليلون . .

أن اللّه سبحـانه وتعـالى جعل المـواهب أقليـة . وجعـل العبقريات أقلية . .

ومن منافقة الأغلبية أن يقال لها : أنت الأعظم . . أنت الأحسن . . أنتم الأول ــ مهـما كـانت صفـاتهم العقليـة والـوجـدانيـة . . أمـا الأقليـة فهي الفـرع . . وهي النفـايـة والنوافل ــ منتهى الظلم ! !

ظلم للأغلبية وظلم فادح للأقلية . وكذب على الإثنين !

ليلى بعلبكي : لآخر مرّة !

يا خسارة سنوات أضعناها عليك يا كاتبة لبنان : ليلى بعلبكي . . عندما أصدرت روايتها الأولى «أنا أحيا» وضعت رأسي مكان قدمي . . وقلت : هنا ظهرت واحدة أقوى وأروع من فرنسواز ساجان الكاتبة المعجزة في فرنسا . .

فقد كانت الرواية الأولى لفرنسواز ساجان اسمها «مرحبا أيها الحزن» . . ثم روايتها الثانية : «ابتسامة ما» . وروايتها الثالثة «في يوم في شهر» . ثم كانت بعدها أغنية عبد الحليم حافظ : في يوم في شهر في سنة . . ثم روايتها الرابعة «هل تحبين الموسيقار برامز» . . وغيرها . . وارتفعت فرانسواز ساجان إلى السماء . . وبقيت أديبة لبنان ليلى بعلبكي تتعثر في دروب الجبال والأرز في لبنان . .

ورواية «أنا أحيا» استقبلناها بالطبل والزمر . . وقلنا : فما تزال الأمة العربية قادرة على أن تلد كل يوم جديداً من الرجال وثائرات من النساء . .

وعندما أصدرت غادة السمان أديبة سوريا كتابها «عيناك

قدري» أحسست أن غادة السمان هي راعية الغنم شولاميت الجديدة التي قالت للملك سليمان : لا . . وألف لا . . أن حريتي هي تاجي وعرشي ومملكتي وكرامتي التي لا تزول ولا تموت . .

وظهرت كوليت الأديبة السورية وغيرهن . .

وأحسست أنهن جميعاً حفيدات ميسون الشاعرة التي تزوجت معاوية ابن أبي سفيان . . وضاقت بالملك والحياة معه ، كما ضاقت شولاميت وليلى بعلبكي وغادة السمان وكوليت خوري . . فبعد أن تزوجها معاوية وجدها تندب حظها ، كما فعلت شولاميت في سفر «نشيد الأنشاد» بالتوارة . . تقول ميسون :

لبيت تخفق الأرياح فيه　　أحب إلي من قصر منيف
واكل كسيرة في كسر بيتي　　أحب إلي من أكل الرغيف
وبعل من بني عمي فقير　　أحب إلي من ملك عنيف . .
وكلب ينبح الأضياف دوني　　أحب إلي من هز الدفوف

فطلقها معاوية بن أبي سفيان . .

واختفت ليلى بعلبكي ، وظلت فرانسواز ساجان في السماء . .

وأخيراً جداً ظهرت ليلى بعلبكي لكي تختفي نهائياً ــ فقد ظهرت مطربة فهرب منها المستعمون في أول ليلة . لأنها نسيت كلمات الأغنية . . وانتهز الجمهور اللبناني فرصة أنهم أصدقاء

وأقارب لم يلتقوا من وقت طويل وانشغلوا عنها بالحديث . .

وقررت ليلى بعلبكي أن تكف عن الغناء !

وعندنا في مصر مثل يقول : للّه يا زمري !

وهي حكاية رجل شحاذ أعمى . . راح يتسول وهو ينفخ في المزمار . . ولكن أحداً لم يعطه حسنة . فسأل الناس الذين يسمعهم ويشعر بدخلوهم وخروجهم فقيل له ليس هذا بيتاً أنه مسجد !

فقال الشحاذ كلمته المشهورة : إذن للّه يا زمري!

فللّه ما قلنا وكتبنا عن أديبة لم تكد تظهر حتى إختفت . . وعن مطربة لم تكد تفتح فمها حتى خرج الناس !

يودعنا قطار ويستقبلنا مطـار!

بعد أن قتل الفرنسيون شاباً جزائرياً في حي «مونبارناس» بباريس انطلقت الحنجرة الجميلة الدافئة لمطرب المغرب عبد الوهاب الدوكالي تقول :

ـ في مونبرناس مات أخويا يا أبويا
برصاص قناص عنصري يا أبويا
في مونبرناس سال دم أحمر
وبكت الطيور الفجر وذنب خويا يا أبويا
أنه عربي ولونه أسمر

* * *

قطار يا أبويا يرمينا القطار
وفي كل محطة تأشيرة وشك وانتظار
قطار يودعنا ويستقبلنا مطار
عايشين دايماً في حالة فرار التيه يرافقنا والخوف يطاردنا

ماذا أقول لك عن صوت عبد الوهاب الدوكالي وهو يغني ويصرخ . . كيف أصف لك هذه الحنجرة الدافئة الذبيحة . .

كيف أصف لك صوته . . أنه خيوط من حرير ساخن له وبر ناعم . . أنه صوت يعلو ويتحول إلى سحب بيضاء . . ثم حمراء ثم زرقاء . . كل ألوان علم فرنسا الذي إرتفع منذ مائتي سنة تماماً منادياً بالحرية يهز الدنيا : الحرية والعدالة والمساواة والأخوة أنها أعظم ما إهتدى إليه الإنسان !

وفجأة تتحول الألوان إلى سحابة سوداء إلى ليل مظلم . . إلى سجن ينفتح ويغلق بابه على سجين واحد عربي بريء . . قتلوه . . وكانت دماؤه مثل دم أول أولاد أبينا آدم . . ونزلت قطرات دم أول قتيل في البشرية إلى الأنهار وانتقلت مياه الأنهار إلى دمائنا . . فنحن جميعاً أحفاد قابيل وهابيل . . نعم . . ولكن أين الحرية . . أين الكرامة . . أين التسامح . . أين الرحمة . أين مثل هذه العبارات الذهبية :

كل الناس تحت الجلد سواء . . لا فرق بين أبيض وأسود . . عربي وفرنسي . غني وفقير إلا بالتقوى . . أي إلا بالخوف من القانون وسلطان الضمير . كل ذلك مات . . وهذه موسيقى عبد الوهاب الدوكالي تزف الجميع في جنازة فخمة . . بين المطارات والقطارات . .

ومن يدري فإن رصاص القناص إذا كان قد توقف هذه الساعة . فمن يدري ربما إنطلق بعد ساعة أخرى وتكون الضحية عربية وقد لا تكون عربية . ولكن مات لنا عربي . . ودفن جثمانة . . وفاضت روحه . ولكن الفن أطول عمراً من الفنان ومن الضحية . . وسوف تبقى أغنية عبد الوهاب

الدوكالي وكلماتها وأنغامها روحاً هائمة رشيقة أنيقة باكية ما دام هناك فن وظلم ، وما دام هناك حجارة وقيثارة . .

شيء عجيب في بلاد المغرب : الصوت الرفيق ، واللحن الأنيق ، والشجن الرقيق : مفردات الفن الجميل والغضب النبيل !

قل لي : أي حيوان أنت ؟!

نصيحة من علماء الحيوان : إذا أردت أن تفهم أي إنسان فحاول أن تنظر إلى وجهه وفي نفس الوقت أن تختار له الحيوان القريب من ملامحه .. فكل إنسان يشبه حيواناً . ولذلك كانت الأبراج السماوية لها أسماء الحيوان : الأسد والحوت والثور والعقرب والجدي ..

وكذلك الأبراج الصينية : الفأر والأرنب والتنين والحصان والكلب والقرد ..

وكان الأستاذ عباس العقاد يسمى ندوته الأسوعية بأنها حديقة الحيوان .. وكانت لكل أعضاء الندوة صفات : هذا زرافة وهذا غزال وهذا كلب وهذا حصان .

وكان العقاد يتقن المقارنة والتحليل ..

وعند الهنود أن الأرواح بعد الوفاة تعود إلى الدنيا ، فكل روح تدخل الجسم المشابه للجسم الذي كانت تعيش فيه قبل ذلك .. روح الحمار تسكن جسم حمار وروح الكلب تسكن جسم كلب .. وهكذا .

ولكن يحدث في بعض الأحيان أن تسكن روح الثعلب جسم إنسان . . ولدلك تجد هذا الإنسان شبيهاً بالروح التي تسكنه . . وهكذا . .

يقول لنا الفيلسوف الأغريقي أفلاطون أن (عوليس) بطل ملحمة الألياذة عندما مات وقفت روحه أمام الآلهة لأنها لم تجد جسماً تسكنه . . فكل الأرواح الأخرى سارعت واتخذت لها سكناً مختاراً من أرواح الحيوانات والنباتات والملوك والأمراء والكهنة . وظل عوليس واقفاً يلعن الآلهة وظلمهم وإنكارهم لبطولته العظيمة في التغلب على العقبات التي وضعوها له في البر والبحر . . وكان صبوراً مثابراً . . فارتفع بالكرامة الإنسانية ، وحب الإنسان للسلام إلى أسمى الدرجات . .

وتهامس الآلهة . وتشاور كيف يعاقبونه ويعذبونه إلى الأبد . . واتخدوا قراراً . . وبعثوا رسولاً يفاوض عوليس . .

قال له : هل تحب أن تسكن الجبال ؟

أجاب عوليس . أن الجبال مقبرة . . فكأنني احترت أن أموت بعد أن مت !

قيل له : هل تحب أن تسكن بحر الظلمات ؟

أجاب عوليس · بل هذا موت جديد . . ومعنى ذلك أن أظل أتدفق وأضرب الشواطىء ويضربني الليل وتلعنني الأسماك والصيادون والملاحون !

قيل له : لم يبق إلا شيىء واحد !

فقال عوليس : أي شيىء . . أنني لا أحب أن أظل هكذا واقفاً . . دليلاً . . إني أقبل أي شيىء !

فقيـل لـه : إذن فلتسكن روحـك جسم «الإنسـان العادي» . . «الإنسان البسيط» . .

فصرخ عوليس : موافق فوراً !

لقد ظن عوليس أن الإنسان العادي هو الأسهل والأسلم والذي هو طـوع أصابعـه . . وفوجىء عـوليس بأن الإنسـان العـادي بمئات الملايـين . . وليس إثنـان يتشـابهـان في شيء واحد . . وكان ذلك أقسى وأقصى درجات العذاب !

سمّ: كلمة سعودية لها معنى!!

حاولت كثيراً أن أجد ترجمة لبعض الكلمات . مجرد محاولة . بعض هذه الكلمات انتشرت دون أن يعرف أحد مصدرها . .

مثلاً : أنا الذي إخترعت كلمة (الخنافس) في الستينات . وهي ترجمة خاطئة . والخنافس هم هؤلاء الشبان الإنجليز الذين أطالوا شعورهم وكانت موسيقاهم ثورة عالية . . فقد كسروا إحتكار الأميركان للأغنية وأصبحت إحتكاراً إنجليزياً .

والخنافس ليس لها شعر . .

ولكنها غلطتي في الترجمة . فالإنجليز كانوا يتلاعبون بكلمتين لهما نفس الوزن وليس لهما نفس الشكل !

وأنا ترجمت كلمة (الأدب الهادف) نقلاً عن مقال للأديب الروسي تولستوي في كتابه «معنى الفن» .

وترجمت كلمة «الكافتيريا» ــ وهي مركبة من كلمتين :

إحداهما معناها : القهوة والثانية معناها : الشاي . . وترجمتها هكذا : القهوشية .

وتبرأ منها المجمع اللغوي المصري . .

وترجمت كلمة «بيت الشاي» الإنجليزية إلى كلمة (المشهى) على وزن (المقهى) . .

وعندما ذهبت إلى أميركا لاحظت أن الأجزاخانة تباع فيها الأحذية فاقترحت على المجمع اللغوي أن يسميها الأحذاخانة ــ وغضب أعضاء المجمع اللغوي !

وعندما كنت طالباً في الجامعة كان منصور باشا فهمي يدرس لي . «علم الجمال» .

أو فلسفة الفن . . واختلفنا على ترجمة كلمات : فردى وفرداني وتفردي والفردية والفردانية والتفردية . . فطلب مني منصور باشا فهمي أن أبعث إليه خطاباً على عنوانه في المجمع اللغوي . وأنهم سوف يبحثونه وسوف أتلقى رداً على ذلك ــ وتخرجت من الجامعة واشتغلت ولم يصلني الرد !

ولعل هذا هو الذي دفعني طول عمري أن أجتهد وأن أكون أنا المجمع اللغوي . . واقترحت أيضاً ترجمة لكلمة (ثيوقراطية) أي حكم الله . . أو حكم رجال الدين . . واسميتها (دينوقراطية) ـ أي حكم الدين . .

ووجدت أن من حقي أن أترجم إلى اللغة العربية عدداً من المصطلحات الفلسفية ــ فقد قمت بتدريس الفلسفية في الجامعة خمسة عشر عاماً . ونقلت هذه المصطلحات من الفرنسية

والألمانية والإيطالية واليونانية واللاتينية أ . . ولم يرفع أحد من المشتغلين بالفلسفة الراية السوداء . . ولم يضع البراميل التي نضعها عند الشواطىء حتى لا يتجاوزها المستحمون . . فأبواب الإجتهاد في الفلسفة مفتوحة على آخرها . . حتى ليخيل لمن يدرس الفلسفة أنها بلا أسوار . .

وما دامت بلا أسوار فلا أبواب ولا نوافذ !

وآخر إجتهادي هي كلمة «سم» التي يرددها السعوديون ــ ولا أعرف إن كان أحد من أهل الخليج يقولها . . وهي كلمة يقولونها بمعنى : قل ما تشاء . . أو تحت أمرك . . أو اطلب . .

وقلت لنفسي لعلها فعل أمر معناه : سم . . أي اذكر اسم الشيء الذي تريد . . أي نحن تحت أمرك . . اطلب تجد . . وليس عليك ألا أن تسميه . . وفي اللغة الإنجليزية تعبير مشابه تماماً وهوName it أي اذكر اسم الشيء الذي تريد . . شبيك لبيك عبدك بين يديك . .

وكأني كفرت . فهاج وماج عدد من الباحثين السعوديين يسدون أبواب الإجتهاد . ويقولون : من قال لي ومن الذي أعطاني الحق . . وكيف اقتحم باباً بغير إذن . .

فعلاً لا يصح أن أقتحم الأبواب دون إذن ــ ولكن من هذا الذي آخذ منه الإذن . ولماذا ؟

وأخيراً صادفني كتاب بعنوان «ألفاظ دارجة ومدلولاتها في الجزيرة العربية» من إعداد عبد الكريم بن حمد بن إبراهيم

الحقيل . يقول في معنى كلمة «سم» : قل باسم اللّه . . تفضل خذ . . تفضل تناول الطعام . . تفضل وأعرض ثمن السلعة التي تريد سمعاً وطاعة . .

بذمتك ما هو الفرق بين الذي قلته وبين الذي قاله هذا الكتاب . .

سم : أي تفضل أنت فاحكم بيننا !

حتى لو ماتت ديانا
فسوف يعيش الحبّ !

نحن نشهد أكبر مؤامرة على الأميرة ديانا وزوجها الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا . فقبل أن يتزوج الأمير تساءل الناس : ولماذا لم يتزوج حتى الآن ؟

وكان الشعب الإنجليزي عنده تخوف شديد . . فالأسرة قد امتلأت بالشواذ جنسياً ـ مصيبة كبرى !

ولذلك أظهروه في التلفزيون يتحدث عن مغامراته العاطفية . . وأنه كثيراً ما عاد إلى القصر الملكي على أطراف أصابعه خوفاً من أمه ـ أي أنه رجل ذئب . المهم أنه رجل !

وظهرت ديانا ، وهي أيضاً من الأسرة المالكة ولكنها مدرسة أطفال بسيطة جداً . ترتدي الجينز وتشتري حاجياتها بنفسها من السوق . وهي لا تحب أن تكون ملكة . . وكان الأمير قد تقدم لأختها . فرفضته الأخت . فتقدم لها . ورضيت به رغم ١٥ عاماً هي فارق السن بينهما . وتحدثت الدنيا كلها عن قصة حبهما . . غرامهما . . عشقهما . . سعادتها هي . .

وعطفت الدنيا كلها على الفتاة الرقيقة الأنيقة التي تريد أن

تكـون سعيدة مـع هذا الأمـير . . وأحبها شبـاب بريـطانيا الخنـافس والبانـك . . والهيبز . . لأنها من الشعب مثلهم . وأحبوا تمردها على القفص الذهبي والقيود الملكية . ولكن حمات ملكة بريطانيا قالت : عندمـا تكبر ديـانا سـوف تعقل . . أي سوف يعقلونها ــ بكسر القاف وبتشديدها . أي سوف يربطون في سلاسل العرش . . ولكن البنت الحلوة لم تفعل . ولا تزال تتصرف على أنها فتاة ترتدي الفساتين العريانة من الظهر ومن الصدر . . وترقص مع الأمير ومع غيره . . أنها صغيرة تريد أن تعيش عمرها . . وأن تكون مثل ملايين الفتيات . .

وليس في الدنيا أسعد من أخبار الحب والمحبين . . والناس يحبون الذين يحبون . . فالشيء الذي ينقصنا في هـذه الدنيا هـو : الحب . . أما الكـراهية فلهـا مليون اسم : السيـاسة والإقتصاد والحروب والمنافسة والطلاق . . أما الحب فهـو هذا الطفل اليتيم الذي لا يكبر ولا يشيخ . . ولد صغيـراً وسوف يبقى كذلك . .

وكـأن البشريـة قـد نـدمت عـلى أنها أحبت العـاشقة الصغيرة ، فبدأت تتعجل نهايتها . ونهاية كل حب . . بسرعة قالوا أنها تتعاطى حبوب التخسيس . وهذه الحبوب سوف تسمم نفسها . . وسوف تكون خطراً على صحتها . . وأكـثر خطورة على أطفالها ملوك بريطانيا القادمين . .

ولم تصب الأميرة بضرر ، لا هي ولا ولداها . .

قالوا : أنها تحب شاباً آخر غير الأمير !

أي أن العاشقة تحولت إلى خائنة . . وأنها أفسدت الجمال بالسفالة !

ثم أحب الأمير أندرو فتاة تزوجها وقالوا : إن هذه الفتاة «الملظلظة» هي المنافسة الخطيرة للأميرة التي هي «جلد على عضم» . . وأن الأميرة ديانا إذا كانت طبيعية شعبية في سلوكها . . فإن زوجة الأمير شعبية أكثر لا تمنع نفسها من أكل أي شيء أو شرب أي شيء !

وقالوا : إن الأميرة بدأت تتدلل وتدلع وشايفة نفسها على الآخر . . فهي ملكة بريطانية القادمة . . وواحد من ولديها ولي العهد . ولذلك فهي تهجر الأمير وتسهر وحدها . . وقد ظهر في أحضانها شاب وشاب . . فهي لم تعد تحب الأمير وإنما هي تخونه بانتظام وبإخلاص !

وقيل أن الأمير أيضاً مثل والده تماماً ، يعرف الكثيرات . . الخ . .

والمعنى أن قصة الحب لم تعد قصة ولا فيها حب . . وإنما هي نهاية طبيعية لإثنين يتزوجان دون سابق معرفة . . ولأثنين بينهما فارق في السن . . وهذا يحدث في القصر الملكي وأمام باب القصر الملكي ــ أنها طبيعة الإنسان . .

ومعنى ذلك أننا نطارد المحبين في كل مكان وعلى كل مستوى حتى لا يكون حب . . وإنما يبقى لنا دائماً كل أشكال الكراهية التي هي أم الحقد ، والحقد هو أبو الحرب . . وأن الحب ولد عريباً وسوف يبقى غريباً وسوف يموت غريباً . . وأننا

سوف نعمل جاهدين على وأده . . فإذا وأدنا ديانا واخواتها من العاشقات استرحنا تماماً إلى سيادة الكراهيـة طريقـاً إلى الحقد سبيلاً إلى الحرب !

ولكن إذا ماتت ديانا فستولد مليون ليعيش الحب ــ يحيـا الحب !

يجب أن ننحني حتى تمر الموجة!

في إحدى جلسات «مجلس الشورى» سمعت الموسيقار محمد عبد الوهاب يقول لي : هات أذنك . .

قلت : سوف تغني ؟!

قال : أريد أن أقولك لك نكتة .

وقالها ؛ وضحكت . فقلت له : هات اذنك ! فسألني : نكتة ؟

قلت : لا بل قضية !

فطلب مني أن أجلس إلى جواره . وانشغلنا بهذه القضية عن كل المناقشات التي تدور حولنا في مجلس الشورى . القضية : إنني أشجع المطربين الشبان . وأفسح لهم مجال الكلام والتحدث عنهم في الإذاعة والتليفزيون . وعندي حجة قوية : انهم شبان يغنون . وشبان يلحنون . وشبان يؤلفون الأغنيات وشبان ينتجون ويوزعون . ثم أن ملايين الشباب في مصر قد اشترى ملايين الكاستات ـ منتهى الرواج والنجاح . فما هو المعنى ؟

المعنى : أن الناس قد ضاقت بالأغنيات القديمة . التي يقف فيها المطرب كأنه لوح خشبي . أو شاهد على قبر . وتكون الأغنية «رسمية» ــ أي في مناسبة وطنية أو في مناسبة قومية . فالمطرب اذن ــ هو يغني بصفة رسمية . . بمدح الحاكم أو الشعب أو الجيش أو بمدح الرسول عليه الصلاة والسلام .

وحتى عندما يغني هذا المطرب الرسمي ويتكلم عن الحب والعذاب والقلق والأرق وهجر المحبوبة . . فإن أسلوبه في الغناء يكون نوعاً من التهديد أو الإنذار . .

ولكن في عالم الموسيقى نلاحظ أن الإعلانات في التليفزيون المصري كلها راقصة . حتى أصبح من الصعب علينا أن نفرق بين الأغنيات الأوروبية والإعلانات المصرية . . وحتى أصبحت هذه الإعلانات هي «المثل» الذي يجب أن تقلده الأغنية المصرية : فتكون سريعة قصيرة راقصة . . وأن يكون لها مذاق النكتة . . فيضحك الناس وينسونها !

ونحن في زمن الساندوتش وكتاب «الجيب» والكافتيريا ــ أي تناول الطعام والشراب بسرعة .

وفي التقرير الذي ألفه مائة من علماء التربية والتعليم في أميركا ورفعوه للرئيس ريجان يطلبون فيه إصلاح المسار التربوي والأخلاقي في أميركا بعد هزيمة فيتنام . يقولون : أن الجيل الحديث هو جيل الكافتيريا وجيل السندويتش . . أي الجيل الذي «يخطف» الأكواب . . ويخطف الرغيف ويجري فلم يعد أحد عنده وقت ليأكل على مهله ويمضغ . . والذي يفعله

الشبـاب في الأكل هـو بالضبط مـا يفعله في القراءة والثقـافـة العامة . . أنه يخطف المعلومات . ولذلك ظهرت الكتب التي فيها كلمة Digest . . أي الكتب التي يسهل هضمها . . وهي الكتب الملخصة . . السريعة . . المهضومة قبل ذلك . .

وكـما اننا في عصر «المعلبـات» الغذائيـة ــ أي خـلاصـة الأطعمة والمشروبات . . فكذلك نحن في عصر المعلبات الغنائية والموسيقية !

قال لي محمد عبد الوهاب : صح . نحن في عصر اختفى فيـه الجمهـور . . فـالجمهـور هـو صـانـع الـذوق . . وصـانـع النجاح . . اختفى المطرب أيضاً . . فنحن لم نعد نقول : نريد أن نسمع أم كلثوم أو عبد الوهاب أو عبد الحليم . . وإنما نقول نريد أن نسمع أغنية كذا وكذا . . أي الأغنية وليس المطرب .

قلت : هذه هي لغة العصر . . ومزاج العصر . . ولا بد أن ننحني لهذه الموجة حتى تمر !

«أم علي» قتلت السلطانة أم خليل!

من أشهر الأطعمة في مصر «أم علي» وهي نوع من (الثريد) باللبن والسكر والزبيب والجوز واللوز والبندق . .

وأم علي هذه كانت زوجة السلطان أيبك التركماني . . حاكم مصر . وهو الذي تزوج شجر الدر التي كانت قبل ذلك زوجة الملك الصالح أيوب . وهي سيدة أرمنية جميلة حكمت مصر ٨٥ يوماً . وخطبوا باسمها في المساجد وجاء الأمراء قبلوا الأرض تحت قدميها ورجال الدين أيضاً . . وكانت تقف وراء ستارة وردية . . وكانت قد أغرقتهم بالفلوس . ولكن معظم رجال الدين قد حزنوا لأن امرأة هي التي تحكم مصر . . وقيل في ذلك شعر ركيك :

النساء ناقصات عقل ودين ما رأينا لهن رأياً سنيا
ولأجل الكمال لم يجعل الله تعالى ، من النساء نبيا

وطلبت شجر الدر من زوجها أن يطلق زوجته الأولى المسماة «أم علي» ـ أما شجرة الدر فأسمها أم خليل ، وكانت توقع المرسومات السلطانية بهذا الأسم . وفوجئت شجر الدر

بأن زوجها يريد أن يتزوج من العراق . . فـأمرت الخـدم بأن يقتلوه في الحمام بالقباقيب . وقتلوه . ونقلوه إلى فراشه وقالوا : سقط مغمى عليه .

ولما مات . أقامت له جنازة ضخمة فخمة . ويقال بكت عليه بكاء مراً . وأشاعت أنها قررت أن تعتزل الحياة . ولكن أحـداً لم يصـدقهـا . فجـاء الأمـير عـلي ابن السلطان وقبض عليها . . ثم أسلمها مربوطة بالحبال تزحف على الأرض إلى أمه السيدة أم علي . .

وقامت أم علي بخلع ملابسها وتسليمها للخدم . فأدخلوها الحمام والقوا بها في الماء المغلي وقتلوها بالقباقيب . . وألقوا بها عارية بالقرب من القلعة . . وظلت في الطريق ثـلاثة أيـام . وجاء اللصوص ونزعوا اللؤلؤ الذي كان في لباسها وسرقوا تكة اللباس الذهبية !

وابتهاجاً بهذا اليوم العظيم قامت السيدة أم علي باحتفال كبـير . . فجمعت اللبن الحليب من القـاهــرة . وضعتـه في الطشوت مع السكر والرقاق وقدمت ذلك مجاناً للناس . فكانت هذه هي أول «أم علي» في التاريخ . .

أما السيدة أم علي فقد صنعت لنفسها «أم علي» من نوع فريد : جاءت باللبن والسكر ووضعت فيه شفتي شجرة الدر وحلمتي ثدييها وأكلت ذلك جميعاً !

وأذكر أننا كنا نتناول العشـاء في بيت أحد الأصـدقاء . . وكان المدعوون هم الدكاترة عـلي لطفي رئيس وزراء مصر في ذلك الوقت وصفوت الشريف وزير الإعلام وماهر أباظة وزير

الكهرباء . . وقدموا لنـا «أم علي» وكـان البندق واللوز قليـلاً بها . . فأطلقت النكتة الشهيرة . وهي أنها ليست إلا «أم علي لطفي» ــ وكان رئيس وزراء شهيراً بالتقشف والضبط والربط !

وفي يوم كنا نتناول طعام العشاء في بيت إسماعيـل فهمي وزير خارجية مصر . وكنت أجلس بين سفيري روسيا وأميركا . وكان السفير الروسي يشكو من أنه مضطر أن يأكل كل ليلة . وأنه لا أمل في أن ينقص وزنه . . وفجأة ظهر الخادم ومعه طبق كبير من «أم علي» . فأشار السفير الروسي أنه لا يريده فقلت مداعباً · حتى لو كانت أم علي صبري !

فصرخ السفيران الأميركي والروسي ــ فقد كان علي صبري رئيساً لوزراء مصر شيوعياً !

وفي حفلة عشاء أقامها الشيخ زايد آل نهيان للرئيس حسني مبارك ، طلب مني الرئيس أن أحكي قصة أم علي !

والذين يأكلون «الكرواسان» ــ وهـو نوع من الخبـز على شكل هلال . . لا يعرفون أصله . . لقد ابتدعه النمسا وبون انتقاماً من الأتراك الذين احتلوا بلادهم . . فالهلال رمز للعلم العثماني . . فصنع منه النمساويون خبزاً وادخلوه النار . . إشارة إلى أنهم يريدون نفس المصير للأتراك !

وهي عجينة لذيذة ــ لم يعد أحـد يذكـر أصلها . . لقـد أنسانا طعمها اللذيذ أصلها التاريخي . كما فعلت أم علي أيضاً !

ونظرت إلى الرئيس فوجدته جاداً . فوقفت أحكي قصة أم علي وكيف أنها قتلت شجر الـدر وأكلت ثدييهـا . . واندهش الشيخ زايد وتضاحك الزملاء . . وجلست !

أولاد الأنابيب !!

في الخمسينات نشرت الصحف صورة لرئيس وزراء بريطانيا هارولد ويلسون يفتتح أحد النوادي الليلية بالرقص مع زوجته . وأندهشنا : كيف يرقص رئيس الوزراء مجاملة لعدد من المطربين «الخنافس» !

وكانت دهشتنا في غير محلها . . فهو رئيس وزراء أوروبي . وطبيعي أن يرقص أي مواطن مع زوجته أو مع غيرها . . فلا أحد يعترض على ذلك . . وأن يكون الرقص في أي مكان . . ثم أنه رئيس وزراء العمال وهؤلاء الخنافس بأغنياتهم الجميلة من أبناء العمال !

وكانت نظرتنا إلى ذلك سخيفة ومتخلفة حقاً وصدقاً !

وفي آخر زيارة للرئيس أنور السادات إلى مدينة الرياض وقف إلى جوار الملك والأمراء يحاول أن يجاملهم بإمساك السيف في رقصة «العرضة» . وكان السادات متردداً إذ كيف يرقص ؟ وماذا يقوله المصريون عنه ؟ . . بينما الملك يرقص الأمراء .

والـرقصة فيهـا الكبريـاء والرحـولة والنشـوة في حركـة بـالغـة الإحترام .

ويبدو أننا نحن المصريين احفاد الفراعنة ، مهما حاولنا أن ننسى دلـك . . فنحن نرى الفـرعـون نصف إلـه . . أو أنـه إله . . . فهو لا يأكل ولا يشرب ولا يمرض ولا يلعب ولا يرقص أمامنا . وقد يكون رأينا في الفرعون سيئاً ، ولكن يجب أن يبقى فرعوناً صنماً وثناً !

وقال الناس وقلنا : لماذا يذهب الرئيس السادات في مجاملته إلى النفاق ؟ .

وهو رأي يدل على الجهل بطبيعة الرقصة . . ويـدل على «التألية» للإنسان الذي تصادف وأصبح رئيساً لمصر . .

وقد رأيت خادم الحرمين الملك فهذ يمسك السيف ويرقص والناس يصفقون وسعداء بدلك . . ورأيت ولي العهد الأمـير عبـد اللّه . . ورأيت الأمير بـدر يرقص بـالسيف ويلف العلم السعودي حول ولي العهد . الذي يرقص في رشاقة وأبهة ويتقدم نحو الملك ويلفه بـالعلم . . ويتعالى التصفيق . . وكـأن هذه الحركة هي إعادة لتتويج الملك على قلوب الشعب السعودي . . وكأنه استفتاء شعبي حر وإجماع على حب الرجل الذي يرقص بـالسيف في إعـزاز بـلا مبـالغــة وفي حيـويــة وشبـاب بــلا استخفاف . .

ورأيت المهرجان الشعبي الذي يقيمه الحرس الوطني كل سنة إستعراضاً بديعاً لرقصة «العرضة» من أبناء كل الإمارات في المملكة السعوديـة . . كل إمـارة تعرض مـزاجها وأسلوبهـا في

الرقص . . وأسلوبها في الحياة والتفكير أيضاً . . وقد أقاموا في قرية «الجنادرية» التي خصصوها لبعض الموروثات الشعبية الفنية والصناعية والإجتماعية ومعارض للفن ومعارض للكتب . . ودكاكين لكل الحرف التي لم يعد المواطن السعودي المتطور جداً يعرفها أو يصادفها في حياته . . كيف يعرف صناعة «القربة» وهو يركب السيارة المكيفة وينام في الغرفة المكيفة ويأكل ويشرب المعلبات التي يجدها بالملايين في السوبر ماركت . . الدنيا تغيرت وتطورت . . بعيداً كثيراً عن ماضيه . . ولا بد أن يهزه أحد ليصحو فيعرف كيف كان وكيف أصبح وحتى لا يشعر الأطفال كأنهم أولاد الأنابيب وإنما هم أولاد أناس لهم ماض عريق طويل عريض. . . يجب ألا ينساه ويجب أن يربط ماضيه بحاضرة بمستقبله . . وكذلك تفعل الدول الصناعية التي تطير إلى المستقبل بقوة نووية الكترونية : اليابان وأميركا !

الخنازير تموت أيضاً

طبعاً أنت واحد من ألوف الملايين الذين يهدمون سقف الكرة الأرضية فوق دماغنا جميعاً . أنت لا تقصد كل يوم عندما تقف أو تقفين أمام المرآة . . فالكولونيا التي تستخدمها تضغط على الزجاجة فيخرج رشاش من العطر الجميل وتمتد يداك وتمسح الوجه من هنا ومن هنا . . وراء الأذن والصدر وحول الرقبة وعلى الكتفين . . وعندما تخرج من البيت تجيء الخادمة وترش البيت بالمبيدات الحشرية . . فإذا عدت إلى البيت كانت هذه المادة الكيماوية قد قضت على الذباب وغيره من الحشرات . . ولا بد أن تشرب شيئاً بارداً من الثلاجة . فالدنيا حر ؟!

أنت لا تعرف الآن أنك أطلقت ما لا نهاية له من المسامير والدبابيس مباشرة إلى السماء . . وقد فعل مثلك ألفا مليون نسمة في أوروبا وأميركا . . وتحولت هذه المسامير إلى مسمار غليظ يندفع بقوة هائلة إلى سقف الكرة الأرضية يحدث فيها ثقباً يتسع ويتسع . . ولن يمكن سد هذا الثقب إلا بعد مائة وعشرين عاماً . . هذا إذاً نحن توقفنا فوراً عن استخدام رشاشات

الكولونيا ورشاشات المبيدات الحشرية ومادة التبريد في الثلاجة ! ــ هذا هو رأي علماء الدنيا !

كيف ؟ أنا أقول لك كيف . هذه الرشاشة في يدك ما الذي يدفع الكولونيا إلى خارجها . . أنه غاز اسمه كلورو ــ فلورو ــ مايثين ــ هذا الإبداع الكيميائي الذي اعتبره العلماء من أعظم انتصاراتهم في هذا العصر هو الذي يتصاعد سريعاً إلى سقف الكرة اورضية . . وهذا السقف أو الحجاب الحاجز أو الدرع الواقي لنا من أشعة الموت التي تنهال علينا في فيضان لا ينتهي من الشمس ، اسمه : الأوزون . . هذا الأوزون يلف الكرة الأرضية بارتفاع عشرين كيلو متراً . وهذا الأوزون يصد أشعة الموت ــ الأشعة فوق النفسجية ــ فإذا أصبح هذا الدرع الواقي هشاً . . أو أقل سمكاً ، فإن هذه الأشعة تنفد إلى الأرض . . تهلك النبات والحيوان وتصيب الإنسان بالسرطان الجلدي . . ثم سرطان الدم . . وقد تزايدت الإصابات في أستراليا والجزر المحيطة بها . . والسبب هو هذه الكولونيا في يدك والبارفارم في يد زوجتك والرشاشة في يد الخادمة !

ويوم أطلق الأميركان قنابلهم الذرية على جزر «بيكيني» ــ بالباء الخفيفة ــ وضعوا عدداً من الحيوانات في هذه الجزيرة ليعرفوا أثر الإشعاع عليها . . وشعرنا بالهوان عندما أعلنوا أن الخنزير هو الحيوان الوحيد الذي لن يصاب . إذن فهذا الحيوان هو الذي سوف يرث الأرض وما عليها ومن عليها ــ الخنزير ؟ وليس حيواناً آخر كالحمار مثلاً ؟!

ولكن الروس أعلنوا أخيراً أن أثر الإشعاع النووي الذي

انطلق من المفاعل النووي في تشرنوبل ، قد أصاب الخنازير أيضاً . . فولدت الخنازير صغاراً لها رؤوس حمير ولها رؤوس الضفادع وبلا عيون . . فالحمد للّه . . سوف نموت جميعاً حميراً وخنازير وعلماء ذرة .

ولا فرق بيننا جميعاً . .

قال شوقي أمير الشعراء :

إذا ما نفقت ومات الحمار   أبينك فرق وبين الحمار ؟!

وقال شوقي أيضاً ـ

الموت بالزهر مثل الموت بالفحم .

أي إذا وضع الإنسان الزهور حوله ودفن نفسه فيها ، فامتصت الزهور الأوكسجين ومات الإنسان مختنقاً بثاني أوكسيد الكربون الذي هو الفحم . . فلا فرق طبعاً . .

فالحمدللّه مرة أخرى على هذه المساواة بين الإنسان والحيوان ـ على هذا العدل العنيف !

فوق أو تحت ميّتون

دعاني الأمير عبد المجيد أمير المدينة المنورة إلى العشاء .

لم أكد أرى الطعام حتى لصقت ذراعي على صدري . ولم أمد يدي إلى الطعام .

سألني : قلت يا طويل العمر ألا توجد عندكم قطعة من الجبن ؟

ولم يكن هذا الأمير الوسيم يعرف انني لا آكل اللحوم بكل أنواعها . فأشار إلى الطعام قلت : لا طعام لي طال عمرك !

ولم يكن من السهل أن يبحثوا لي عن سمكة ضالة في طريقها من شاطىء البحر أو شواطىء الخليج !

وهناك طريقتان لكي تكره اللحوم : أن تراها مكدسة على شكل فراخ وطيور وأن نجد رائحتها في الأرز والماء والخبز والملاعق والسكاكين .

وكان ذلك هو موضوع السهرة : هل اللحوم ضارة ؟ والجواب · يؤكد العلماء في كل الدنيا أنها ضارة . .

ــ كل اللحوم ؟

ــ نعم فـالأغنـام والأبقـار تشم هـواء ملوثـاً وأعشـابـاً مسمومة . . وهذه السموم تنتقل إلى ألبانها وإلى لحومها وتنقلها إلى جسم الإنسان الذي تلوث هو الآخر بروائح الهـواء الذي يحترق من ملايين السيارات . . والذي تشبع تمـاماً بكثـير من الأدويـة الكيـماويـة التي تهلك المعـدة والأمعـاء والتي تصلب الشرايين والتي هي ضباب على المخ . .

ــ يعني ماذا ؟

ــ يعني أنني قررت ألا آكل السمك أيضاً . . فقـد ثبت علمياً أنه أكثر حساسية للسموم الموجودة في البحار والأنهار . . الخ . .

والمشكلة الآن : أمـا أن آكل لحـماً مسمـومـاً ، أو اكتفي بالنباتات وهي أيضاً مسمومة . . وهناك خيار ثـالث : هو أن أعيش على الفيتامينات . . وهي مواد كيماوية سـامة . . يؤدي تناولها بصفة مستمرة إلى تعطيل نشاط المعدة والأمعاء وإلى إرهاق الكبد والكلى والبنكـرياس وإلى فقـر الدم . وهـذا هو الـذي أخافني على نفسي يوم قررت هيئة الفضاء الأميركية اختياري مع د . فاروق الباز عالم الفضاء المصري لنكون مسافرين في المكوك القادم في سنة ١٩٩١ . . فهم في هيئة الفضاء الأميركية يقومون بتحويل رائد الفضاء إلى آلـة ــ لا رأي لها ولا قـرار . . وإنما جهاز يحركونه من محطات المراقبة الأرضية : يأكل بالأمر وينام بالأمر . . حتى إذا عاد إلى الأرض ، فيمكنهم أن يميتوه بالأمر أيضاً . لأنه قد مات فعلاً . فلم تعد له رغبة في طعام أو شهية

إلى شراب ولم يعد يدري إن كان حياً أو ميتاً ، إنساناً أو حيواناً أو مسماراً في جهاز ضخم . .

إذن ما دمت لن أسافر إلى الفضاء الخارجي حيواناً تجرد من عقله وقلبه وكل مشاعره ، فلماذا لا أكمل المسيرة حيواناً على الأرض. . والأرض ليست إلا سفينة فضاء تدور حول نفسها وحول الشمس . . فما دامت حياتي بلا لحم من أي نوع وبلا نبات من أي لون ، وسوف نعتمد على الحبوب والأقراص . . فمعنى ذلك إنني قد أنتويت الموت أو الحياة التي هي كالموت . . خوفاً من المرض ، طريقاً إلى الموت ــ ولا حول ولا قوة إلا بالله !

لا معنى للتعالي

كان مجلس الشورى المصري يناقش تقريراً عن العلاقات المصرية العربية فوقفت اعترض على لهجة التعالي في بعض العبارات . . التعالي على الأشقاء العرب .

وقلت أن الدنيا أصبحت غير الدنيا . فالأشقاء ذهبوا إلى الجامعات الأميركية والأوروبية وتقدموا في الآداب والعلوم وصاروا أساتذة كباراً لهم تلاميذ في جامعاتهم الوطنية . . وعندهم مستشفيات من الدرجة الأولى . . من أعظم مستشفيات الدنيا كلها . . وتضم عدداً من كبار الأطباء العالميين . .

ولم أكن مجاملاً وإنما أقرر حقيقة باهرة . فأنا أعرف عدداً كبيراً من العلماء والأطباء والباحثين العرب . جلست إليهم طويلاً وتناقشنا واستمتعنا وشعرنا معاً بالإطمئنان على مستقبل بلادنا ــ ما دام فيها هذا العدد الكبير من أصحاب الموهبة العلمية والفنية والإقتصادية والمعمارية والسياسية . .

وفي السعودية كانت متعتي مؤكدة عندما استمعت وناقشت

واختلفت واتفقت مع عدد من الباحثين الدارسين على أعلى المستويات العلمية في أميركا وفي جامعات السعودية . . وكانت المناقشات قد دارت حول القضايا المعاصرة : ما الرأي في المستقبل ما الرأي في الماضي وهل العصر الذهبي لنا يجب أن يظل وراءنا ، ولا ذهب أمامنا . . هل من الضروري أن يعيش العرب وعندهم شعور عميق بالذنب ، فقد فاتتهم جنة الماضي ، فلا مستقبل لهم ؟ هل من الضروري أن ننظر وراءنا في غضب وأمامنا في يأس كما كان يقول توفيق الحكيم ؟ هل رؤية توفيق الحكيم رؤية خاصة ، أو يجب أن تكون رؤية كل الناس . . أن في العالم دولتين قد أدمنتا مخدراً قوياً جداً اسمه : المستقبل . . هاتان الدولتان هما : أميركا وروسيا . . فأميركا ترى أن المستقبل أحسن من الحاضر . . وأن غداً دائماً أفضل من اليوم واليوم أروع من الأمس . . ولذلك يجب أن يعمل الإنسان ويبدع ويبدع لتحقيق جنته في المستقبل وكذلك الروس يرون أن المستقبل هو جنة الطبقات العاملة التي سوف تتحرر من التناقصات . . ومن الصراعات الطبقية . . وأنه سوف يجيء يوم تتوقف فيه عجلات التاريخ . فلا داعي لحركة التاريخ لأن الإنسان يكون قد حقق أكبر متعة بأقل جهد . . وآن الأوان لكي يعيش أو يموت في سلام !

وعندنا مائتان من الملايين من الناس . . وعندنا كتاب اللّه . . وفينا الإيمان العميق والقدرة على الإبداع فكيف لا ننظر أمامنا في بهجة . . وكيف لا نرى أن عندنا ــ وليس عند شعب آخر ــ هذه القدرة الهائلة على تحقيق الأمان والعدل والراحة في المستقبل القريب . . فالطريق إلى السلام يبدأ بالشوارع المرصوفة والبيت

الأنيق والأسرة السعيدة وخيرات اللّه تتدفق من تحت الأقدام . .

وهـذا هو شعـور السعوديـين الذين أعـطاهم اللّه ــ ولنا أيضاً ــ الكعبة ولغة القرآن ومن بينهم الـرسول عليـه السلام والمثـل العيا . . ثم البـترول . . ولذلـك كانت نـظراتهم مثل خـطواتهم طويلة وثـابتة . . وسهلة ونـاعمة ومنـطلقـة ألـوف الكيلومترات شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوبـاً . . وكأن المـائة ألف كيلومتر من الشوارع المرصوفة «فركـة كعب» ــ سبحان اللّه . لقد كان فضل اللّه عليهم عظيماً !

القرد أنهى الخلاف بيننا

في كتاب اللغة الفرنسية ونحن أطفال قصة أن رجلاً جائعاً توقف أمام كبابجي وقد دوخته رائحة الشواء .. توقف يملأ أنفه من رائحة الكباب والكفتة . وتضايق صاحب المحل وطالبه بالثمن . فقال : ثمن ماذا ؟

ـ ثمن رائحة الكباب .. أن الكباب قد كلفني كثيراً . وكذلك الفحم المشتعل تحته .. وكذلك المروحة التي دفعت الدخان ناحيتك .. والمروحة غالية الثمن والكهرباء أيضاً . ولا بد أن تدفع .

فما كان من الرجل إلا أن أخرج من جيبه بعض النقود وجعل لها رنيناً وهي تسقط على الرخام .. ثم وضعها في جيبه ..

فسأله صاحب المطعم : ما هذا ؟

فقال الرجل : أنا شممت رائحة الكباب وأنت سمعت رنين الفلوس . خالصين !

وعلى الرغم من أنها نكتة قيلت . وانتهت وضحكنا عليها . فإن بعض الباحثين يرون أنها قضية ولذلك يستأنفون الحكم فيها . ويرون ــ لأسباب قانونية ــ أن الرجل يجب أن يدفع ولو قرشاً واحداً . وعندهم حجج وأسانيد !

ومثل هذه القضايا كثيرة في كتب الشريعة والفقه . . فمثلاً : واحد يسأل : نفرض . . نفرض أن واحداً كان يعيش في قرص الشمس فكيف يصلي . . لأنه لا غروب ولا شروق ؟!

فيقال له : ولكن الحياة في الشمس مستحيلة . . لأنها جهنم ودرجة حرارتها بعشرات الألوف !

فيرد عليك : نفرض !

ــ يا سيدي هدا فرض مستحيل !

ــ يا أخي أقول لك نفرض . .

ــ وأنا أقول لك هذا مستحيل !

يعود واحد آخر يسألك : لو أن الحوت ابتلع انساناً ، فكيف يصلي في بطنه ؟

وتقول له : يا أخي هذا مستحيل . إذا ابتلعه الحوت فإنه يموت . .

ويرد عليك : يا أخي نفرض ؟

ــ يا سيدي هذا مستحيل !

ويقال لك أننا في مصر عند آذان الإفطار نقول : وعلى المقيمين خارج القاهرة مراعاة فروق التوقيت . . أي هذا هو

توقيت القاهرة أما الذين يعيشون في الإسكندرية أو في الرياض أو الكويت فلهم مواقيت أخرى يجب مراعاتها . والسؤال نفرض أن واحداً سمع آذان الإفطار وكان بالضبط عند منتصف كوبري الجامعة ــ أي بين القاهرة والجيزة ، فهل يفطر ؟ . . أو هل يرجع خطوة نحو الجيزة لكي ينتظر . . وكيف يعرف أنه في منتصف الكوبري بالضبط ؟

وتقول له : يا أخي يفطر إذا سمع الآذان . . سواء كان في القاهرة أو في الجيزة . . فهذه هي القاهرة الكبرى . .

ويقول لك : يا سيدي نفرض أنه رجل دقيق وأنه يراعي الأصول . .

ــ يا سيدي يفطر !

ــ على أي أساس ؟

ــ على أساس العقل . . وأن الدين يسر يا أخي . . أنت لماذا تضايق الناس وتضيقها عليهم ؟!

سؤال : ما قولك في رجل يغش الخمر ؟ هل غش الخمر حرام أو حلال !

الجواب : الخمر حرام تقديمها . . بماء أو من غير ماء . .

سؤال : ولكن إذا أراد واحد أن يكسب أكثر فأضاف الماء إلى الخمر في الزجاجة قبل أن يبيعها للناس . . أليس هذا غشاً ؟ . . فهو كالذي يغش في وزن الفاكهة ويغش في اللبن . . أليس الغش عموماً حرام ؟!

الجواب : بلى . . الغش حرام !

ـ فهل غش الخمر التي هي حرام : حرام أيضاً ؟

ـ الغش حرام . . أي محاولة الإنسان أن يكسب أكثر مما يستحق مستغلاً تصديق الناس له . . هذا حرام !

ـ بلاش كدة . . افرض أن واحداً ذهب إلى الصيدلية يشتري سماً . . وقد عرف الصيدلي ذلك . . فراح يغش في السم ويضع مواد أخرى ليخفف من أثر السم على المشتري . . أي أنه لا يريد أن يؤذيه السم ، فهل هذا الغش حرام حتى لو كان الدافع إلى ذلك خيراً ؟

ـ الغش حرام . . وبيع السم حرام . . وإذا كان يريد خيراً فلماذا لا يتقاضى أقل من الثمن المكتوب على الزجاجة ما دام غشاشاً .

ـ يعني من رأيك أن غش السم مثل غش الخمر : حرام . . إذن غش الحرام ليس حراماً . هل هذا رأيك ؟!

وغيرها وغيرها . . فوازير قانونية لا أول لها ولا آخر وتملأ صفحات من كتب القانون والشريعة والمنطق . . وكثير من الناس يضيعون وقتهم في كل هذه الفوازير . . ويتوقف العقل عند هذه النكت السخيفة . وقد وقف الفكر القديم وتحجر عند هذه النكت البايخة !

* * *

ومن أروع النكت التاريخية والفوازير القانونية تلك التي رواها الخطيب الأغريقي ديمو ستين من ٢٤ قرناً . يقول أن رجلاً استأجر حماراً ليتنقل من بلد إلى بلد . وكان الجو حاراً .

ولم يجد الرجل مكاناً يستظل بـه . فما كـان منه إلا أن أوقف الحمار . ثم تمدد في ظله ونام . . وهنا ثار صاحب الحمار وقال له : نحن لم نتفق على ذلك .

سأله الرجل : على ماذا ؟

قال : أنت استأجرت الحمار . . ركـوب الحمار . . وليس ظل الحمار .

ـ بل استأحرت الحمار . . الإستفـادة من الحمار وكـل ما يتعلق به . .

ـ إلا ظل الحمار . . فهذا لم نتفق عليه . . أنا فقط الذي من حقي أن أنام في ظل الحمار . . أنه حماري . . وهذا ظـل حماري !

وتشاجر الرجلان . وهرب الحمار !

* * *

واذكر انني كنت في جزيرة «بالي» بأندونيسيا . . ولا أعرف كيف تصور الأخوة الحضارمة الموجودون هنـاك انني من علماء الأزهر الشريف . لا قلت ولا ادعيت ولا قال أحد . . ولا يبدو انني كـذلـك . فقـد كنت شـابـاً أرتـدي البنـطلون القصـير والقبعة . . وكل الذين معي من الإيطاليين والألمان . . ولكن يبـدو عندمـا ذهبت إلى الفنـدق وكتبت اسمي : أنيس محمـد منصـور . . مسلم ـ وعنـواني بشـارع الأزهـر . . ربمـا جـاء الإستنتاج من هذه الكلمات المتراصة بعضها إلى جوار بعض . . ولعل الذي نقل إليهم ذلك واحد من الحضارمة الذين يعملون بالفندق . . ربما . .

وفي الليل جاء من يقول لي : غداً إن شاء اللَّه . . نحن في انتظارك بمشيئة اللَّه !

لقد مضت سنوات طويلة لم أخطب في المساجد ولا أممت الناس . . لقد كنت أفعل ذلك عندما كنت طالباً وعضواً في جماعة «الأخوان المسلمين» . . وكنا نذهب بمنتهى الشجاعة إلى أي مكان ونستأذن أمام المسجد في الصلاة وفي الخطبة . . وكان ذلك أيام الشباب المبكر . . ولم أعرف ما الذي أقوله للأشقاء الحضارمة . . ولا كيف أعتذر . . فالرجل لم يعطني دقيقة واحدة لكي أفكر أو أنتحل عذراً . . انتهى . . ولا بد أن أذهب . وبقية الأحداث معروفة : الخطبة . . والصلاة . والمشكلة بدأت بعد الصلاة . جلست . والتف الناس حولي . . هم أكبر سناً وأكثر وقاراً . . ولكنهم يحترمون الأكثر علماً . . وأنا شاب من علماء الأزهر . . وفجأة وجدت واحداً يقول : يا حضرة الأستاذ . . الحمد للَّه الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللَّه . . وفوق كل ذي علم عليم . . وما أوتيم من العلم إلا قليلاً . . يا حضرة الأستاذ هل نسكت على هذا الكفر . . أن العلماء يحاولون الوصول إلى القمة . .. وهذا ما لم يجيء في كتاب اللَّه وسنة رسوله . . فهل نسكت على الروس الكفرة والأميركان النصارى إذا أسقطوا شيئاً فوق القمر الذي هو مرآة من البللور فكسروها فأظلمت الدنيا . . أن اللَّه سبحانه وتعالى جعل القمر منيراً فهل نسكت على الذين يحاولون أن يطفئوا نور اللَّه ؟!

باللَّه عليك ماذا أقول لمن يرون أن القمر مرآة من الزجاج . . وأن بلوغها حرام . . وإسقاط سفن فضاء سوف

تؤدي إلى تحطيم المرآة فتظلم الدنيا . . ما الذي أقوله لأناس طيبين في جانب قذر من مدينة دنباسر عاصمة جزيرة بالي — وهي الجزيرة الوحيدة البوذية في كل أندونيسيا . . وعلى الأشجار حولنا وقفت القرود . . وتشقلبت بين أشجار الموز وجوز الهند . . ودارت الأرض . . ووجدتني ساقطاً على الأرض . . والناس يرشون الماء على وجهي وإلى جواري الرجل الذي كان يسألني !

وعرفت الحقيقة لقد أسقط أحد القرود جوزة هند فأصابت الرجل في دماغه . . ثم قفزت إلى دماغي !

وهكذا انحسمت قضية الحرام والحلال فوق القمر !

إذا كانت عراقيّة فلا تكذب عليها!

ذهبت إلى بغداد سعيداً . فالمدينة جميلة . وكلها تاريخ قديم وحديث . . هنا كان الخلفاء . . وهنا كانت مجالس الشعراء . . وهنا وقف المتنبي . . وهنا غرق أبو نواس . . وكل ليالي ألف ليلة وليلة كانت تبدأ هنا أو تنتهي هنا . . أو تستمد روحها وعطرها . . ورحلات السندباد ولص بغداد . . وهنا جلسنا نأكل السمك «المسجوف» على شاطىء دجلة . . وهنا كان الشاعر الصديق حافظ جميل يقول ويقول . . وهنا كنت أتشاجر مع الشاعر الجواهري . . وهنا رأيت الشاعرة نازك الملائكة لأول مرة . . وسمعت منها . . وقالت وازددت إعجاباً بها . .

وهنا إرتكبت أول خطأ في العراق . . قلت لرجل لا أعرفه عن سيدة لا أعرفها : الحمد للّه لقد وضع اللّه كل فتنتها في صوتها . . لو ظهرت هذه السيدة على شاشة التلفزيون في مصر لتساقط الناس صرعى هذا الدفء وهذه الإثارة و . . وهذا الذي تقوله عيناها وتردده شفتاها . .

فقال الرجل : ماذا تقول ؟ هذه زوجتي !

فقلت مذعوراً : أنا يا سيدي شديد الأسف . . أرجو أن تقبل عذري .

فقال : ماكو شيء . . ماكو . . كانت زوجتي وطلقتها !

وعادت لي روحي التي فارقتني . وقررت أن أكون أكثر حرصاً وحذراً !

ومن هنا ذهبت إلى محاكمات المهداوي أيام عبد الكريم قاسم . . وكانت محاكمات هزلية . القضية جادة . ولكن القاضي أضحوكة . .

ولا أنسى يوم ذهبت إلى الموصل وحضرت إحدى المظاهرات السياسية . . والله لا أعرف عدد الذين ارتجلوا شعراً . . وكانت لهم أخطاء في النحو . . ولكنهم شعراء !

قلت : يا ناس يا هوه . . أشوف واحدة عراقية على بعضها . . واحدة فقط . . فالبيوت التي ذهبت إليها كانت السيدات نصف محجبات أو ربع محجبات . . أما العيون فسبحان الله . . والشعر الأسود أمنت بالله . . والوجوه لا إله إلا الله . . ولكني لم أر واحدة من أولها لآخرها . . واحدة فقط يا عباد الله !

أبداً . . ولكن أحد الأصدقاء الظرفاء قال لي : سوف أدعوك لرؤية أكثر من واحدة . ولكن سوف أنبهك إلى أنها

زوجتي وأختها وأختي . . وهن نماذج للجمال العراقي . ما رأيك !

طبعاً قلت : موافق !

وذهبنا إلى فيلا في أطراف المدينة . . الفيلا في حديقة . والحديقة بها مقاعد ومناضد وعلى المناضد بندق وفستق . وكما هي العادة في العراق يتحدث الناس في الأدب والشعر وبعد ذلك في السياسة . . وتوالت أبيات الشعر قديماً وحديثاً . .

وجاءت واحدة طويلة ممشوقة هيفاء جعداء . . سبحان اللّه . فقلت : الأخت عراقية ١٠٠٪ ؟

قالت : نعم .

قلت : أعيدي كلمة نعم من فضلك !

فأعادتها . فقلت : يا اللّه . ما هذا الصوت الجميل .

وبسرعة ظهرت واحدة ومعها عود . . وواحدة معها طبلة . . وواحدة معها رق . . وكانت ليلة من الموشحات العراقية القديمة . . ولم تكن لا زوجته ولا أخته ولا أختها ـ ولكن تجمعهن جميعاً أخوة في الفن !

وقالت لي واحدة : هه . . ما رأيك في المرأة العراقية !

قلت : يا سيدتي أريد واحدة تتكلم . تناقش . . تفكر . . تقول . . وأقول لها . . وحدنا !

قالت : آه . . هذا ما أردت !

قلت : هذا هو الطبيعي . . ولكن هذا الإرهاب الذي قام

به الأصدقاء يفسد على الأديب المصري أن يرى جميلة عراقية !

وفي إحدى الزيارات إلى بغداد . . قررت أن أرى بعض الصديقات . . اللاتي يتذوقن الأدب والشعر . . وكانت لنا جلسات طويلة على دجلة . . وفي بيوت الأدباء تحت الأشجار والليل صغير والقمر قريب . . والقلب موجوع والرأس مكسور نصفين . واحد على رأسي وواحد على حجرها . . سبحان اللّه . . ورغم هذا الإنقسام كنت أفكر بالإثنين معاً . . كيف يحدث ذلك في العراق ؟ لا أعرف !

وقلت لأحد الأصدقاء : هل من سبيل إلى الأديبة فلانة . . أنها من أرّق الناس .

قال : أين تسكن ؟

قلت : وهل أعرف . . أنها حكاية قديمة . ربما عشرون عاماً . . أعتقد أنها موظفة في أحد المجامع العلمية . . أرجوك !

وعند منتصف الليل رن التليفون : ألو . . قال : أنا عرفان .

قلت : يا هلا . . ما الأخبار ؟

قال : واللّه زين . . وجدتها . . وأسعدها حداً أنك لا تزال تذكرها . . وسوف تجيء إلى زيارتك غداً في الساعة السابعة مساء !

قلت : شكراً .

قال : طبعاً لا تريدني معك ؟

قلت : لا !

قال : سوف تندم !

قلت : أندم لو جئت أنت !

وجاء النوم ولم أفكر في لقاء الغد . . إنني أعرف ملامحها بوضوح . . أنها بيضاء ومشربة بـالحمرة . . عينـاها واسعتـان عسليتان . . حاجباها مرسومان بقلم حاد . . وشفتاها كشفتي طفلة . . ممتلئتين واحداهما في خصام مع الأخرى . . ولها حركة عصبية بشفتيها تؤكد هذه الطفولة . . ولكنها انثى ناضجة في كل ملامحها الأخرى . . أما صوتها فله رنين وجرس مع خروج هواء ساخن من حلقها يجعل صوتها أجش قليـلاً . . وإذا جلست فأنها تضع ساقاً على ساق . . ثم تتعمد أن تكشف عن ساقيها . . دون أن تقدم لذلك عذراً كحرارة الجو مثـلاً . . أو أن يكون الفستان طويلاً أكثر من اللازم . . وأنها قد أرتـدته بسرعـة ، وكـان في نيتهـا أن يكـون قصيـراً . . ثم أنها تنـظر دائـماً إلى خواتمها . . وهي لا تريد أن تريك الخاتم وإنما تلفت نظرك إلى أصابعها الملساء اللامعة . . ولست في حاجة إلى أن يلفتك أحد إلى ذراعيها وملامحها الجميلة الواثقة . . ويوم قرأت لي شعراً في زورق في دجلة ، لم يكن الجو شاعرياً . . الجو حار خانق ومن بعيـد تتراءى مـداخن آبار البـترول . . ولكن صوتهـا وأداءها والشعر وتذوقهـا لذلـك وعطرهـا كان أقـوى من الطبيعـة . . كيف ؟ أنها عراقية بغدادية !

وقبل الموعد المحدد نزلت وجلست أمام «الإستقبال» وعيني على الباب . . وفجأة اكتشفت أن الفتاة التي أنتظرها لم أرها من

عشرين عاماً يا نهار أسود . . يعني لقد تزوجت وعندها أولاد شبان . . خمسة . . ستة زوجها رجل له شوارب غليظة وله نظرة قاتلة . . لقد نسيت تماماً ما الذي جرى لها وجار عليها . . وكل ما تذكرته هو مشاعري نحوها . . وانني أيضاً كبرت واشتعل الرأس شيبا . . تذكرتها ونسيت أن أنظر إلى نفسي في المرآة . . ولا بد أنها أيضاً نظرت في المرآة ورأت خطوط الزمن . . ومصت شفتيها وقالت لنفسها : سوف تكون صدمته فظيعة . . يستاهل !

وبسرعة ذهبت إلى موظف الإستعلامات وقلت له : عندما تجيء السيدة فلانة تسأل عني . فأنا جالس في هذا الركن . أرجوك أن تشير بيدك ناحيتي دون أن تلتفت هي . .

وكان الهدف أن أتمكن من رؤيتها قبل أن تصدمني . .

وقررت أن أراها على أي حال . فهي تغيرت وأنا أيضاً . وليس من الذوق أن أقلقها وبعد ذلك أهرب منها . ثم أنني أريد أن أسمع منها ماذا حدث في دنياها وأن أقول لها ماذا حدث في دنياي أيضاً !

ونظرت إلى موظف الإستعلامات . . ووجدته يشير إلى سيدة ضخمة ومعها أولاد وزوجها . . والزوج يتقدمها . . طويل عريض بكرش وشارب غليظ نصفه أبيض . . والأولاد الثلاثة صورة من الأب ، والبنتان صورة من الأم . . ومن بعيد وجدتها مضطربة قلقة . . وفتحت حقيبتها لتخرج علبة السجائر . . أما هو فكان ينفخ في البايب وتقدمت إليها وصافحتها . . ثم صافحت زوجها الأولاد . . وقلت لها : أنا

سعيد جداً برؤية حضرتك . . فقد سمعت من أخي كثيراً عن ذوقك الأدبي . . وعن أديبات العراق . .

واندهشت تريد أن تستوضح هذا الذي أقول . .

فقلت : طبعاً حضرتك مندهشة . . نحن توأمان . . هو أكبر مني بساعة واحدة . . وهو قد سافر مع زوجته وأولاده إلى القاهرة اليوم . . فقد تلقى برقية بوفاة حماته . . وهو شديد الأسف لأنه لم يتمكن من رؤية حضرتك وزوجك وأولادك . . وقد طلب مني أن أسألك ألف سؤال . وأن اعتذر عنه فقد كان يريد أن تعرفي زوجته وأولاده وأحفاده . .

فأسعدها ذلك . . وقالت : كنت أريد زوجي أن يراه . . وأن يرى أولادي فهم يقرأون كتبه . . وكانوا يريدون أن يسألوه في أمور كثيرة . ولكن أملنا عظيم أن نراه في القاهرة إن شاء اللّه . .

وعرفت أنها تزوجت ثلاث مرات . . وأن هذا زوجها الأخير . . وأنها تزوجت قبل ذلك صديقاً لنا نحن الأثنين . . وإنني الذي اقترحت عليها الزواج منه ـ والحقيقة انني لا أذكر ذلك . وأنا عادة لا أنصح أحداً بالزواج من أحد . ولي تجارب مريرة . فكل واحد اشفقت عليه أن يتزوج مبكراً ويتزوج واحدة بالذات ، فإنه يذهب إليها ويقول لها كل الذي نصحته به ثم يتزوجها . . وهكذا فإنني أخسر الإثنين معاً ومن أول لحظة !

وعندما ودعتها سألتها : إن كانت تريد أن تقول شيئاً لتوأمي ؟

فقالت : نعم . .

ثم إقتربت مني وقبلتني . وكان زوجها ينظر مقتنعاً وليس مستنكراً .

وقلت لها : أنه أوصاني أيضاً

قالت : بماذا ؟

قلت : بأن أقبلك .

وقبلتها . . وعندما اقتربت منها وجدت الشعرات البيضاء في مفرقها . . ولكن ما زال وجهها مشرقاً . . وعيناها أكثر إشراقاً . .

وضحك الزوج بصوته الغليظ قائلاً : إذا ظللتما تتبادلان الوصايا ، فسوف أوصيك أنك أيضاً !

قلت : بماذا ؟

وأخرج مسدساً من جيبه . . وضحكنا . وشعرت بالخجل من نفسي . فهي كما كانت لطيفة . . رقيقة . . جميلة . . شاعرية الأداء والحركة هامسة الصوت . . كل كلمة كأنها ألف فراشة . . وكل التفاته كأنها ألف نجمة تبعث بنورها ن بعيد . . والله ما أسخفني . وفكرت في أن أطلبها في التلفون وأبلغها عن هذه اللعبة السخيفة . . أو أمضي في هذه الأكذوبة وأقول لها إنني حضرت . . بعد أن ودعت زوجتي في المطار ولم أسافر . . ووجدت الموقف كله سخيفاً .

وعندما وصلت إلى القاهرة تلقيت منها خطاباً تقول فيه : يا عزيزي أنت ممثل مبتدىء . . وأنت فاشل وليس لك مستقبل .

فقط زوجي هو الذي صدقك وأولادي يتحدثون عن هذه الحادثة الطريفة . . وأنت نسيت أنك حدثتني عن كل إخوتك وخالاتك وأصدقائك . . أما أنا فقد استمتعت بالحديث . . وأسعدني وجودك . . أما أنت فقد كنت مشغولاً بالكذب علينا نحن الإثنين ! شيء آخر أقوله لك ولا تغضب . . أنت تعرف السيدات اللاتي كن يجلسن إلى جوارنا . . وقد لاحظت أنك تنظر إليهن كثيراً . أنهن صديقاتي أتيت بهن ليرينك بعد أن قرأن لك كل كتبك . . كويسة دي !! واحدة منهن مجنونة بك . ولن أقول لها إلا ما أردت أنت . . أنك توأم للكاتب المصري أنيس منصور . . ما رأيك في هذا المقلب ؟! تعيش وتأخذ غيره . وأراك في خير في أي ثوب وفي أي إطار وتحت أي إسم !

وانكسفت جداً . وبعثت إليها بصورة لي وقد تكرر ظهوري بها . . أي أننا فعلاً توأمان . وأنني لم أكذب عليها . ولم أخدعها .

وأعادت لي الصورة وتحتها هذه العبارة : إلعب غيرها !

اللبن والبول والعسل
ومواد أخرى لجمالك !

كتب التاريخ تقول لنا أن إحدى ملكات التاريخ كانت تستحم في لبن الحمارة . ويكون اللبن دافئاً . ولأنها هي شخصياً لا تحب اللبن ولا لونه ولا طعمه مثل كثير من الأطفال ــ فأنها تغطي البانيو بأوراق الورد وكانت تضع في اللبن بعض العطور . . ثم تبقى في البانيو ساعة ومن حولها الفتيات الجميلات يدلكن جسمها الناعم ليزداد نعومة . وكذلك كانت كليوباترا ملكة مصر . . هي الأخرى تستحم في لبن الخيول ويقال لبن الماعز . . وكان الكهنة يضيفون إلى هذه الألبان بعض الأعشاب وكانوا يسرفون في وضع العطور والبخور . . وكانت لا تدخل الحمام إلا إذا كان الدخان يحجب الرؤية فلا يراها أحد داخله أو خارجه . ولما كثرت حولها المؤامرات كانت تطلب أعداد حمامين ، في وقت واحد . . فلا يدري أحد في أي الحمامين تستحم ملكة مصر !

ولم نعرف إلا أخيراً جداً أنه ليس صحيحاً أن الملكتين كانتا

تستحمان في لبن الحمير أو الماعز . . وإنما كانتا تستحما في «بول» الحمارة أو الحصان أو الماعز . . ولذلك كان الحرص على الدخان والبخور والعطور !

وفي مذكرات نجمة السينما العالمية (زازا جابور) اعترفت بأن نعومة وجهها وكل بشرتها سببه أنها تستخدم «غسيلاً» كيماوياً خاصاً . . أساسه : البول الحيواني أو الآدمي !!

وتقول هي : رائحته كريهة لا تطاق . ولكن أثره على البشرة لا نظير له . !

وفي الهند يستخدمون مخلفات الأبقار في تغذية الشعر .

والرحالة النرويجي تور هايردال له كتاب عنوانه «رع ٢» وهو الزورق المصنوع من أغصان البردى ، والذي قام ببنائه بالقرب من الهرم الأكبر . لكي يرحل به من ميناء صافي بالمغرب وعلى ظهره رجال من معظم دول العالم : مسلم من تشاد ومسيحي من مصر وكاثوليكي من إيطاليا وأسباني وياباني وروسي . . وهو بهذه الرحلة يريد أن يؤكد أن الفراعنة قد وصلوا إلى أميركا . . وبدأ الرحلة ولكن كان من الصعب انهاؤها .

يقول هايردال في كتابه هذا المنشور بعشرين لغة أنه بسبب حرارة الشمس وملوحة ماء المحيط التهبت أجساد الجميع وكانت حركتهم صعبة . . . وكان من المستحيل أن يرتدوا أية ملابس ومن المستحيل أيضاً أن يبقوا بلا ملابس فالتفت يسأل الطبيب الروسي : ما العمل ؟ ما العلاج ؟

ولكن الطبيب الروسي فتح بنطلونه وراح يتبول على الجميع . وهكذا سكتت نيران احتراق الجلد وأكملوا الساعات الباقية من الرحلة بلا شكوى . فإذا شكا أحد مرة أخرى قام واحد آخر من زملائه بعلاجه !!

وعندي أمثلة أخرى عن علاجات أساسها مخلفات الإنسان ــ ولكن اكتفى بهذا القدر حتى لا تقرف وتلعن آباء الذين قالوا والذين كتبوا والذين كتبوا والذين نشروا ـ ولكنها حقيقة تاريخية أصبحت حقيقة علمية .

* * *

أعود مرة أخرى إلى ما كانت تفعله ملكة مصر كليوباترا ــ أقصد اليزابيث تايلور عندما كانت تقوم بتصوير بعض مناظر فيلم (كليوباترا) بالقرب من الإسكندرية . سألتها سؤالاً مملاً سمعته هي ألف مرة . . ولكن الحياء وأنها في مصر هو الذي اضطرها إلى أن تجيب فقالت : طبعاً أنا أعيش على نظام خاص في الطعام . لا آكل إلا الفاكهة وكل يوم يضعون أمامي فنجاناً كبيراً من القهوة وأضعافه من اللبن . . أما القهوة فإنني أشمها ثم ألقيها في الحمام . فأنا قررت ألا أشرب القهوة لأنها تفسد بشرة الوجه . . بسبب أنها تصيبني بالإمساك . . والإمساك يؤدي إلى أن تبقى السموم في الدم . والدم المسموم يفسد البشرة . . أما اللبن فإنني لا أشربه . . وإنما أذهب به أيضاً إلى الحمام وأغسل به أصابع يدي . .

ثم سكتت . فقلت لها : ووجهك الجميل وبشرتك الحريرية ؟

فأجابت بسرعة : أنه عسل النحل يا سيدي . فأنا أضع عسل النحل على وجهي ساعات من كل يوم . . وليس أي عسل . . وإنما العسل الذي استخرجه النحل من زهور خاصة . . لن أقول أسمها لأحد !

وفي ذلك الوقت كان ريتشاردبيرتون البطل معها في الفيلم وحبيبها وزوجها بعد ذلك قد ظهرت الحبوب والنمش على وجهه بصورة صارخة فسألتها : ولماذا لا تتقاسمين العسل مع ريتشارد بيرتون ؟

قالت بسرعة : سيكون ذلك في شهر العسل !

فعدت أقول لها : أقصد العسل الذي تضعينه على وجهك . .

قالت : أنه لا يصبر على العسل ويفضل عليه السيجار والكأس وكلاهما يفسد البشرة !

ثم مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت علبة ذهبية مرصعة بالماس وقالت : ثم أنه لا يطيق طعم أو رائحة هذه الحبوب ! هل تعرف ما هي هذه الحبوب ! إنها حبوب من حامض اليوريك ــ أي من بول بعض الحيوانات . . أن اليزابيث تايلور لا تضع البول على الوجه أنها تبلعه على شكل حبوب أو أقراص ومعها حبوب من خلاصة الثوم ــ وهذه مادة جديدة أضافها أطباء التجميل ليكون وجه اليزابيث تايلور في روعة وجمال وجه ملكة مصر كليو باترا ــ أما كيف يفعل«البول» سائلاً وحبوباً في

بشرة الإنسان ، فهذا هو اللغز وهو السر . ولكنه حقيقة مؤكدة من ألوف السنين !

***

وكنت قد سمعت من الطبيب العالمي بول غليونجي صاحب الدراسات العميقة في الطب الفرعوني أن الفراعنة كانوا يستخدمون عسل النحل لعلاج كل الجروح والحروق وأوجاع الأسنان والصداع . وأن العروس قبل زفافها كانت تستخدم عسل النحل مع الطين المتعفن عند حافة المستنقعات وتضعه على الوجه . . أما هذه العفونة فهي التي عرفناها بعد ذلك بإسم المضادات الحيوية في تركيباتها الحديثة . . وسمعت منه أيضاً أن بعض الكهنة يعالجون الأمراض الجلدية بسائل خاص كانوا يقدمونه في المعابد . . ويؤكد د . غليونجي أن هذا السائل الخاص هو البول !

وجاءت دراسات الباحثة الأميركية العظيمة مرجريت ميد على شعوب جزر ساموا تقول أن الفتيات يستخدمن «لبن» الأشجار في علاج البشرة والأمراض الجلدية . . وأنهن كن يضعن العسل الذي يجدنه على الأشجار في علاج العيون ــ كما كان يفعل الفراعنة تماماً !

أما نعومة الصدر والساقين فقد كان شيوخ القبائل يستخدمون «بول» الأطفال مع اللبن ــ حدث قديماً ويحدث حديثاً ــ

حسب الله ذلك المجهول :
أشكرك من كل قلبي

لا أعرف أحداً اسمه «حسب اللّه» . . اللهم إلا صاحب فرقة حسب اللّه الموسيقية الشهيرة . وهي فرقة كانت في أوائل هذا القرن شهيرة جداً في القاهرة . مقرها شارع محمد علي . . وهي تظهر في كل الأفلام المصرية القديمة . . نفس الفرقة . أو أية فرقة أخرى يرتدي أفرادها الطربوش . . والملابس الصفراء . ومن أهم معالمها أن يكون أفرادها كباراً في السن ضعافاً كأنهم تعبوا من الإسم الذي يحملونه ولا يلقى احتراماً كافياً في مصر . .

وبسرعة تحولت «فرقة حسب اللّه» إلى نوع من الشتيمة أو الإهانة . . ونموذجاً للتخلف والفوضى إذا قورنت بالفرق الحديثة . ولكنها كانت وما تزال رمزاً باقياً لما كانت عليه الموسيقى في شارع محمد علي وهو مثل شارع برودواي في نيويورك : شارع الفن والهيصة والعنف والجنس وانحلال الأغنياء أمام شباب الراقصات والمطربات . . وأكثر هؤلاء المنحلين هم بكوات وباشوات مصر ــ أي أغنياؤها ! وكان

الإنحـراف هو العقـوبة التي يستحقهـا الغني . وهي عقـوبـة يفرضها الفقراء على الأثرياء !

وكنت أتـردد عـلى شـارع محمـد عـلي للفـرجـة . حب استـطلاع ، لا أكثر ولا أقـل . . بل هنـاك مـا هـو أقـل من الفرجة : أن يقف الإنسان وقد أسند ظهره إلى أحـد الأعمدة يسمع أسرة حسب اللّه ما الذي تقوله وكيف تقوله . . مع أن الذي يسمعه لا يفيده في شيء . . ولكنه مثل التلصص على الآخـرين . . بـالنـظر من ثقب البـاب أو وضـع الأذن عـلى النوافذ . . لعله يشارك بشكل ما في هذه الحياة الغريبة !

ولا أعرف لماذا استقر اسم «حسب اللّه» في أعماقي . . هل لأنني كنت أحب أن أكون مطرباً في أي مكان ولو في فرقة حسب اللّه . . هل لأنني تمنيت أن أكون أقرب لكي ألمس هذه الحياة الحرة الثورية ــ فقد كنت أرى في الذي ينام نهاراً ويسهر ليلاً نوعاً من الثورة وقلب الأوضاع . . ولم أكن أرى ما هي العلاقة الحقيقية بين كل هؤلاء الناس . . فلا تعرف الأب من الأم من الزوجة من الأخت من الصديقة ومن العشيقة . . قد انهارت الفواصل والحواجز بين الناس . . لقد استطاع الفن أن يذيبها تماماً !

وفجأة وجدت اسم حسب اللّه على لساني عندما دعانا د . هنري كسنجر مستشـار الأمن القومي الأمـيركي إلى غداء . . وكان الرئيس السـادات يقف إلى جواره في استقبـال الوفـدين المصري والأميركي ومئات من رجال الصحافة والتليفزيـون .

وكانت التقاليد بأن يجيء أحد رجال البروتوكول ويسألنا عن أسمائنا لكي يرددها د . كسنجر عند مصافحتنا . . وكان يسبقني المرحوم يوسف السباعي . . فكان حريصاً على أن يلقنه الإسم بوضوح . . ثم المرحوم علي حمدي الجمال الذي كاد أن ينطق اسمه حرفاًحرفاً حتى لا يخطىء كسنجر في نطقه . . فلما جاء دوري قلت : حسب اللّه . . فردد كسنجر : مستر حسب اللّه !

وسألني الرئيس السادات : ما هذا ؟

قلت : يا ريس أن اسمي لا يعني شيئاً لرجل يحكم نصف الكرة الأرضية !

وضحك السادات وتوقف الطابور حتي يحكي السادات حكاية حسب اللّه . . وضحك كسنجر وكلما رآني بعد ذلك يقول : أهلاً مستر حسب اللّه !

وصارت نكتة الخارجية الأميركية والمصرية ووسائل الإعلام !

* * *

وفي يوم رتب لي أحد الأصدقاء أن التقي بالسيد سامي شرف السكرتير الخاص للرئيس جمال عبد الناصر . وكان اللقاء لهدف صحفي . وذهبت في الموعد المحدد وسألت عن السيد سامي شرف فقيل أنه سوف يجيء متأخراً . وسألوني عن اسمي فقلت ؛ دكتور حسب اللّه !

ــ حسب اللّه ماذا ؟

ـ حسب اللّه أحمد حسب اللّه !

في ذلك اليوم قام الرئيس السادات بثورة التصحيح واعتقل كل مراكز القوى التي تعاظمت في السنوات الأخيرة للرئيس عبد الناصر الذي انهزم نفسياً بعد الإنفصال وبعد نكسة سنة ١٩٦٧ . . وكان هؤلاء الذين حوله يحكمون مصر . . أما الرئيس عبد الناصر فقد غاب تماماً عن مصر وعن العالم العربي . . وانكفأ على نفسه وانفرد به المرض حتى مات ـ يرحمه اللّه . .

وبعد سنوات من ثورة التصحيح جلست إلى الرئيس السادات أحكي له هذه القصة فإذا به يصرخ : هوه أنت ؟!

ولم أفهم . وإذا به يمد يده إلى التليفون ويطلب مدير المخابرات المصرية ويقول له : تعال اعتقل أنيس منصور فوراً . . هل تذكر الدكتور حسب اللّه الذي كنا نبحث عنه . . لم يكن أحداً غيره !

وحكي لي الرئيس السادات أن عدداً من الأسماء الغريبة ترددت على مكتب سامي شرف في ذلك اليوم من الرجال والنساء . ولم تهتد أجهزة الأمن والمخابرات إلى معرفة كل هذه الأسماء . . فقد داخت بحثاً عن واحد اسمه مسيو ميشيل تورجو . وواحدة اسمها مدام كاترينا . . وهذا الدكتور حسب اللّه . . وقيل أن دكتور حسب اللّه هذا كان يحمل منشورات وجهاز تسجيل ياباني يضيء ويطلق أصواتاً غريبة . . وقالوا أنه جهاز رصد وإرسال بالغ الدقة . . وأنه ألقى هذه الأجهزة أمام بيت شعراوي جمعة وزير الداخلية في ذلك الوقت . . وأنه كان

يركب سيارة مرسيدس لونها لبني وأنه ذهب إلى مطار القاهرة ثم اتجه بعد ذلك إلى فندق مينا هاوس . . وبعد ذلك لم يعرف له أثر . . ولما سئل سامي شرف عن الدكتور حسب الله أقسم أنه لم يعرف في حياته واحداً بهذا الإسم !

وحكايات غريبة عن سيارتي التي لم تكن مرسيدس . . وعن حقيبة يدي التي لم يكن بها أي جهاز تسجيل ، وعن رحلتي التي لم تحدث مطلقاً . .

أما مسيو تورجو هذا فأنا أعرفه . . وكذلك مدام كاترينا ـ فكلاهما صحفي مصري دفعهما الخوف إلى اختيار هذين الإسمين ـ ولا داعي لأن أذكر من هما ولا علاقة لهما بأي شيء حدث قبل أو بعد ذلك !

آه لو كنت جلست ولو دقيقة واحدة مع سامي شرف ـ هكذا قال الرئيس السادات ـ لكنت دخلت السجن ووقفت أمام المحكمة و . . و . . وضحك الرئيس السادات وهو يقول : الله ده حسب الله من زمان . . مش بس لما دعاك كسنجر للغداء . . هاها . . هاها . . يقطعك يا حسب الله !

وظننت أن الأمر قد انتهى . ولكن جلست مع رجال المخابرات المصرية أحكي بالضبط ماذا حدث . . أو ماذا لم يحدث . . وكانت تفسيراتهم لهذه الأسئلة واضحة . فأنا على صلة بالرئيس السادات وأدخل إليه في غرفة نومه صباحاً ومساءً وأتناول معه الطعام . . ولا بد من «تأمين» سلامة الرئيس من أقرب الناس إليه .

وفجأة وجدت من يقف أمامي في مكتبي ويقدم لي صورة واضحة جداً ويسألني : متى كان ذلك ؟ كانت صورتي فعلاً . ولم أعرف متي كانت هذه الزيارة لفيلا في الهرم . . لا أعرف . ولكن صاحب الفيلا لا علاقة له بالسياسة . . ولكن أحد أولاده له علاقة . وعرفت أنه في ذلك اليوم جاء شخص وترك بطاقة مكتوب عليها بالفرنسية : مع أطيب تحياتي كاترينا وحسب اللّه ! أما هذه القنلة فلا علم لي بها . ولا بد أن حسب اللّه آخر قد ظهر في مكان آخر وفي ظروف أخرى . . ثم أقفل التحقيق تماماً !

* * *

وقرأت في الصحف أن سيارة كاديلاك صدمت سيارة فيات . وأن الضحايا ثلاثة من الشباب . وأن شخصاً قد أعطى لرجال البوليس بطاقة صغيرة لاستدعائه عند الضرورة لأن عنده ما يقوله . هذا الشخص اسمه : حسب اللّه وعنوانه ٣٨ شارع الأمير حسين ــ الزمالك ــ تليفون رقم كذا . . أما الشخص الذي أعطى هذا الكارت فهو أنا فعلاً . فقد رأيت أن السيارة الكبيرة هي التي انحرفت فجأة وهي التي قتلت كل من في السيارة الصغيرة فقائدها مجرم مائة في المائة . . وتضايقت جداً ونزلت من سيارتي وأعطيت رجل البوليس بطاقة بيضاء وكتبت عليها اسم : حسب اللّه ؟! . . شيء عجيب . . ثم تركت له عنوان البيت الذي كنت أسكنه وأنا طالب في الجامعة . . أي قبل ثلاثين عاماً ؟ أما رقم التليفون فلا أعرف رقم من هذا . . ولا حتى ما هو هذا الرقم !

وقرأت أن والد الشباب الثلاثة الذين قتلوا أقسم بالله العظيم ثلاثاً أنه سوف يقتل هذا الشاهد الوحيد في هذه القضية . . لأن الساكت عن الحق : شيطان أخرس !

شكراً حسب الله ، فأنا أدين لك بحياتي !

من الذى يخجل أمام المرآة

سجلت مرحلة القلق في حياتي وحياة أبناء جيلي في معظم كتبي : وداعاً أيها الملل ـ ومن أول نظرة ـ وفي صالون العقاد ـ وإلا قليلاً ـ عاشوا في حياتي ـ ثم . . مذكرات شاب غاضب ـ مذكرات شابة غاضبة ـ البقية في حياتي ـ وقبل ذلك كانت رحلاتي حول العالم : حول العالم في ٢٠٠ يوم ـ وأعجب الرحلات في التاريخ ـ بلاد اللّه خلق اللّه ـ أطيب تحياتي من موسكو ـ وغريب في بلاد غريبة ـ أنت في اليابان وبلاد أخرى . .

وسجلت قلقي الفلسفي في كتاب : يسقط الحائط الرابع ـ وكتاب الوجودية ـ وأوراق على شجر ـ وشباب شباب ـ واثنين اثنين ـ وجسمك لا يكذب ـ وفي هذه الكتب ومائة غيرها تسلطت على نفسي أدرس وأتعمق وأحلل وأكتب . . بلا رحمة . . وأحياناً بلا تحفظ . . فأنا أتحدث إلى نفسي ، على مسمع من الناس وعلى مرأى أيضاً . . وحين أتحدث إلى نفسي أرفع الكلفة ، وأزيل الحواجز . . وأجدني عاري الجسم والنفس

أمام المرآة . وأنسى أن هذا يقال وهذا لا يقال . . ولكن عذري أنني أريد أن أعرف نفسي بما في نفسي ، وفي نفوس الناس . فنحن جميعاً تحت الجلد سواء . . الجلد يفصل بيننا من ناحية الشكل . . ولكن تحت الجلد دم من نوع واحد . . كرات بيضاء وحمراء وتدخل القلب ويضخها القلب إلى بقية الأعضاء والغدد وإلى المخ . .

وكثير من الناس يسألني : يا أخي لماذا تفضح نفسك هكذا ؟

وأندهش كيف انني فضحت نفسي . . انني لم أفضح نفسي ولا أحد ، إنما أردت أن أعرف . . أن أكشف . . أن أنكشف . . أن أكتشف . . أن أكاشف . . هذا كل ما هناك . . عملاً بنصيحة استاذنا العظيم سقراط : أعرف نفسك بنفسك !

بعض الناس عندما يقرأ ما كتبت عن نفسي وعن نفوس الآخرين يشعر بالخجل . لماذا ؟

لأنه كان يخفي شيئاً ، فكشفته أنا . .

الصورة النموذجية لذلك عندما تجلس مع أية سيدة لتتفرج على راقصة عريانة . . أن المرأة التي إلى جوارك يخجلها ذلك . . لأن المرأة التي ترقص تكشف كل ما تحرص المرأة العادية على إخفائه أو أظهاره بحساب . . وقد تكون الراقصة أجمل قواماً وأرشق حركة . . ولذلك يكون رد الفعل عند المرأة التي إلى جوارك : انظر إلى وجهها القبيح . . إلى نظراتها الوقحة . . ألا تخجل من نفسها .

وأنت طبعاً لا تجد شيئاً من كل ذلـك ، وإنما المـرأة التي جـوارك قد تضـايقت من هـذه الفضيحـة . . فضيحتهـا هي أمامك . . الفضيحة التي حققتها الراقصة حين قامت بتعرية كل النساء المتفرجات !

شيء من مثل ذلك يشعر به القارىء عندما يجد الكاتب قد نزع من فوقه الغطاء . . وأخيراً نزع جلده وذهب إلى أعماقه . وفتـح هذه الأعـماق فانـطلقت الوحـوش الكـاسرة من قفصـه الصدري !

أحياناً تستغرقني أحداث الشباب واندهش وأخجل منها . ولكن الخجل معناه : أنني كنت سخيفاً ولم أنتبه إلى ذلك .

مثلاً عندما كنت طالباً في الجامعة ، كنت عضواً في جماعة الإخوان المسلمين . . أميناً لإحدى مكتباتها . . نسهر كل ليلة ونذاكر في هذه المكتبة دون أن نشارك كثيراً في نشاط الإخوان . . ولكن كان من واجباتي أن أخطب يوم الجمعة وأن أؤم المصلين بعد ذلك . . وكنت ــ وهـذا يدهشي الآن جـداً ــ أذهب إلى المسجد الذي تحدده الجماعة . . وأدخل مباشرة وأتوجه إلى إمام المسجد . وهو رجل كبير في السن أكبر مني بعشرات السنين . وأسلم عليه وأقول له هكذا : أنا أنيس محمد منصور طالب في الجامعة وعضو الإخوان المسلـمين أريد أنْ أخـطب وأن أصلي بـالنـاس . . ولا ألتفت ــ عـادة ــ إلى رد الفعـل عنـد إمـام المسجد . .
أو لا أتوقع أن يكون له أي رد فعل . وإنما سوف يقبل . وأنا أندهش لهذا الأسلوب في الحوار ، أو لإنعدام الذوق والأدب .

فلم أكن في ذلك الوقت أعرف آداب الحوار . . فمثلاً كان الأليق أن أقول له : سلام عليكم . . أقدم لكم نفسي . . أنا فلان . . وقد كلفني زملائي أن أستأذن في الخطبة . . وأكون شاكراً لو وافقت . . والأمر لك على كل حال . .

فإذا وافق ، لابد أن أشكره وأن أرجو أن يعفو عن أخطائي على المنبر فأنا ما أزال صغيراً ومهمتي صعبة ـ مثلاً !

وعندما أتذكر تلك الأيام أندهش كيف كنت هكذا «مدفوعاً» كأنني قذيفة انطلقت من مدفع نحو هدف . . والهدف هو المنبر . . وكالقذيفة لا تتوقف ، ولا يوقفها أحد ، ولا ينبغي ولا يستطيع !

واتذكر يوم ذهبت إلى الجامعة لأول مرة مدرساً للفلسفة . لا أدعي الآن انني أعرف بالضبط ما الذي رأيت أو ما الذي قلت . . فكل شيء حولي ضباب وأمواج تتعالى وتتلاطم ولها دوي في أذني . . وكانت الحيلة الوحيدة التي اهتديت إليها هي أن أقف عند السبورة . . وأدق عليها بقطعة من الطباشير ، ولفت نظر الطلبة الذين في مثل سني بأنني أنا المدرس ولست الطالب . . وفي ذلك الوقت ، وحتى اليوم ، كنت لا أرتدي الكرافتة . . ثم انني ذهبت بالقميص والبنطلون ـ وبلا جاكتة . تصور !!

ولكن حملت عدداً من الكتب . . انتقيت اضخمها . ومن اضطرابي ظللت أحمل الكتب في يدي اليسرى وأنا واقف إلى جوار السبورة . وحرصت على أن تكون الكتب من لغات مختلفة : الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية واليونانية

واللاتينية والعبرية ـ وليس بينها كتاب عربي واحد !

ونسيت المنديل لكي أمسح به العرق على وجهي . . وكنت أمسح عرقي بيدي . . ولكي أتفادى عيون الطلبة وماذا يقولون ، أو سوف يقولون عني . . قلت ، ولم يسمعني أحد طبعاً ، فأنا صوتي منخفض : البرنامج هذا العام طويل جداً وصعب جداً ويجب أن نبدأ من أول يوم . . وسوف أكتب لكم الآن الكتب التي يمكن الرجوع إليها في دراسة الميتافزيقا ـ أي علوم ما بعد الطبيعة ـ ورحت أكتب على السبورة أسماء المراجع بكل اللغات التي أعرفها . . وكنت أنطق عناوين الكتب عند كتابتها ـ أقول للطلبة : كل واحد يختار من هذه المراجع ما يستطيع قراءته باللغة التي يعرفها ؟!

وأنا أعرف مقدماً أن أكثرهم لا يجيد أية لغة أجنبية . . وبعضهم لا يجيد العربية ولكن الإضطراب والقلق والحيرة هي التي جعلتني أبدأ محاضراتي بتهديد الطلبة وتخويفهم وجعل المسافة بيني وبينهم واسعة . . حتى أراهم أصغر ، ويروني أكبر وأرفع وأعلى . . ويروني الأستاذ من أول لحظة . .

أما كيف انتهت هذه المحاضرة فلا أذكرها مطلقاً . .

وفي اليوم التالي جاءني الطلبة ومعهم جميع الكتب التي كانت معي فقد نسيتها . وظنوا انني تركتها لهم ، لكي يطلعوا عليها ! وتقدمت طالبة واعطتني المنديل . . مغسولاً مكوياً ، ومعه ابتسامة عريضة ـ حتى المنديل نسيته !

عندما أتذكر مئات الأمثلة من شبابي وطفولتي . . فانني لا

أندهش لها . . وانما أذهب إلى أبعد وأعمق وأقرب لعلي أعرف ماذا حدث وكيف حدث ، وهل كان من الممكن أن يحدث غير ذلك . طبعاً مستحيل أن يحدث غير ذلك .

ولو عدت إلى تلك الأيام ما فعلت غير الذي فعلت !

وفي بيروت قررنا الانتحار!

نحن ثلاثة قررنا الأنتحار معا :
يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس وأنا . .

كنا في بيروت . وكنا نجلس حول الحمام في فندق «فينقيا» الفخم الضخم وكان ذلك في الخمسينات . .

أما الأسباب فمختلفة . .

أسبابي أنا : انني درست الفلسفة . . أكثر المذاهب . . وكنت مدرساً لها في الجامعة . . ومدرساً لكل الأديان ومذاهبها . . أكثر من عشرين ديناً . وانني لم أفهم أي شيء حولي . . لا حياتي ولا الكون . ولا أعرف الحكمة من وجودي . . وأن اللّه قد أعطاني عقلاً صغيراً وجعلني أواجه ما لا نهاية له من المعضلات . . فازددت عجزاً عن فهم أي شيء . . طفل صغير حافي القدمين مطلوب منه أن يعبر المحيط بلا سفينة . . وأن يطير إلى الكواكب بلا أجنحة . . وأن يكون سعيداً يدعو إلى الحياة . كيف ؟ لا بد أن أنهي حياتي التي لا معنى لها ولا حكمة !

أما إحسان عبد القدوس فهو يرى أنه لن يتحقق العدل

السياسي أو الاجتماعي في هذه الدنيا . فالقوي هو الذي يضع القانون وهو الذي يفرضه والقانون صناعة الأغنياء والمحاكم صناعة الأقوياء . . والفقير مظلوم.ولا أمل في تحقيق أي نوع من العدل له . . ومهما حاول المفكرون والأدباء والفنانون فلا معنى لكل الذي يبذلون أنفسهم من أجله . فكل الفنون والآداب لها مهمة واحدة هي تسلية المظلوم قبل صدور الحكم . . أي أثناء محاكمته . . أو تسلية أهل المظلوم واقناعهم بأن الدنيا حلوة . . وإذا كان واحد قد مات ظلماً فليس معنى ذلك أن كل الناس سوف يموتون . . وهذا كذب . . فالفنان كاذب لأنه يريد أن يأكل عيشاً . . والناس كاذبون على أنفسهم ان صدقوه . . لأنهم على يقين من أنه «مأجور» الأقوياء الأغنياء . . وبناء على كل ذلك فالحياة لا معنى لها . والموت هو الراحة الكبرى !

أما يوسف السباعي الذي اغتيل في قبرص ، فكان يرى أن السعادة المطلقة مستحيلة . وانما قدر قليل من السعادة والراحة والمال والعدل . صحيح أن الملح ضروري للطعام . . ولكن الملح نفسه ليس طعاماً . . والسكر ضروري للطعام ولكن السكر وحده ليس طعاماً . وكذلك المرض والظلم من أعراض الحياة . . ولكن هناك أناساً أصحاء . . ثم أن الصحة بعد المرض تجعل الإنسان أكثر تقديراً للصحة وأكثر حرصاً على تفادي المرض . . أو أكثر حرصاً على أن يجد دواء لعلاج الأمراض . ولكن المشكلة التي تواجه الإنسان انه متطرف بطبعه . . فهو يأكل حتى يموت . . ويشرب حتى يموت . . ويحب حتى يموت . . كأن الهدف من الحياة هو أن يموت . . وأن

نسرع في ذلك . . فالحياة قنطرة يجب أن نعبرها بسرعة . . على أقدامنا أو على قدم وعصا . . أو على أكتاف الغير . . أو بسكاكين الغير . . يقطعوننا ثم يقذفون بنا قطعة قطعة إلى الشاطىء الآخر . . وان الاعتدال هو أصعب ما يواجه الإنسان . والناس يسمون الاعتدال جبناً . . ويسمون التهور شجاعة . . ولا أحد يعرف بالضبط كيف يسلك الإنسان في حياته . . فلا توجد قاعدة . . فاختلفت القواعد والموازين والمكاييل . فالراحة هي أن تختفي الموازين والمكاييل والحسابات والقواعد . . بالموت ! ولكن ما الذي سوف يقوله الناس عنا . . الزملاء الصحفيون والنقاد . أما أنا فلم أكن قد أصدرت سوى كتابين عنوانهما : وحدي . . ومع الآخرين . . وألوان من الحب .

ويوسف السباعي صدر له عدد من الروايات والقصص القصيرة . . وإحسان عبد القدوس هو الكاتب السياسي والمحلل الممتاز . . وصاحب الروايات العاطفية التي توجع قلوب البنات وتجعلهن يعترضن طريقه وحياته . . ومعظم قصصه تحولت إلى أفلام على الشاشة بعد ذلك . .

يوسف السباعي سوف يقول : انهم سوف يرون انني يجب أن أدخل جهنم فقد عرفت عدداً كبيراً من الفتيات . وانني أخذت نصيبي في الدنيا . فليس معقولاً أن أدخل الجنة في الدنيا والآخرة !

وإحسان عبد القدوس كان يقول : لأنهم حاقدون علي لأن أمي هي صاحبة المجلةف التي أكتب فيها . ولأنني ابنها الوحيد فقد جعلتني رئيساً للتحرير . . ولن يلتفت أحد إلى معاركي السياسية والمشاكل الاجتماعية والعاطفية التي عالجتها في قصصي . . ولولا أمي ، ما كنت ولا نشرت منتهى الظلم !

وقلت أنا : انهم سوف يقولون انني اشتغلت بالفلسفة وعباراتي جميلة وانني أتلاعب بالالفاظ . . وقد دوخت الشباب ورائي حين أدخلتهم الفلسفة وأخرجتهم من الدين وأحرقتهم بالعواطف . . ثم تركتهم أبحث عن غيرهم . . وانني يجب أن ألقي نفس العقاب الذي يلقاه شمشون الجبار الذي أطلق القطط المحترقة في حقول القمح في غزة . . ولذلك ما دمت قد أحرقت الدنيا ، فلا بد أن أحترق في الآخرة !

أي اننا نحن الثلاثة نستاهل الحرق بالنار . . نار جهنم !

* * *

وفي الآداب العالمية حاول كثير من الروائيين أن يصوروا قلق الفنان ورغبته في أن يعرف ما الذي سوف يقوله الناس عنه بعد موته . . فوجدنا روايات كثيرة يختفي فيها الفنان عمداً . . ليقرأ ما تنشره الصحف عنه . لقد فزع الفنانون فوجدوا الناس يكذبون . . ويخترعون عنهم قصصاً لم تحدث . . وإنهم قالوا وقالوا . . ولكن هؤلاء الفنانين فضلوا أن يظلوا بعيداً عن العيون . فقد أيقنوا أنهم لو عادوا إلى الأضواء لخسروا كل الناس الذين مدحوهم كذباً ، والذين هاجموهم كذباً أيضاً !

والأديب السويسري ديرنمات له مسرحية اسمها «الشهاب» قد ترجمتها أنا من الالمانية وظهرت على المسرح والتلفزيون في مصر ، في هذه المسرحية يموت البطل . . والحقيقة أن الاطباء أخطأوا في تشخيصه وقالوا : انه ميت لا محالة . .

ودفنوه . وخرج هو من القبر . . وقرأ في الصحف عن أخلاقه وعن عظمته وعن سفالته . . وقرأ أيضاً عن الغانيات اللاتي كانت تربطه بهن علاقات . . وقصص الحب والغرام . . وكلها ليست صحيحة !

وعندما اتصل بالطبيب الذي أخطأ في تشخيصه قال له الطبيب : ان عودتك إلى الحياة فضيحة لي . فإذا ظهرت فسوف أقتلك . .

والقس الذي قرأ آيات من الكتاب المقدس عند رأسه هدده أيضاً بأنه إذا ظهر فسوف يقتله . . لأن عودته إلى الحياة فضيحة له . . ثم أنه واحد فقط في التاريخ قد عاد إلى الحياة . . وقد أعاده السيد المسيح باذن اللّه أنه : لعازر !

ولذلك فضل الأديب أن يظل مختفياً حتى لا ينقض عليه الجميع ويقتلوه !!

* * *

والفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل قد قرأ نعياً له في الصحف البريطانية . . وكان وقتها في الصين . وكان مريضاً . واختلطت على الصحفيين وفاته مع وفاة واحد من موظفي السفارة البريطانية . . وكان النعي تافهاً حقيراً .

ولذلك كتب هو نفسه نعيه لينشر بعد وفاته !

أما الفريد نوبل ـ صاحب جائزة نوبل الشهيرة ـ فقد قرأ نعيه هكذا : أنه مخترع كيماوي وأحد تجار السلاح والدمار في العالم !

ولم يكن هو الذي مات وإنما أخوه . وتضايق نوبل من أن يوصف بهذه الصفات الفظيعة . . فاتخذ قرارين . . الأول أن ينشىء معهداً يعطي جوائز للسلام العالمي وجوائز أدبية وعلمية كل عام . . والقرار الثاني : أنه إذا مات يجب أن يظل ممدداً على سريره ثلاثة أيام . . ليتأكد الأطباء والقساوسة من أنه مات فعلاً !

***

قلت : ما رأيك يا يوسف ؟

قال يوسف السباعي : نعيش والسلام !

وقلت : وأنت يا إحسان ؟

قال إحسان عبد القدوس : نعيش ونكتب هذه القصة لكي يضحك الناس على خيبتنا !

ونسينا جميعاً أن نكتبها . . ولم اتذكرها إلا أمس وبعد ثلاثين عاماً !

أمسكوا المجرم إنه جميل جدًا

رأيت فيلماً إيطالياً عنوانه «إما قلبي وإما قلبها» أحداث الفيلم وقعت في العصور الوسطى في مدينة البندقية . انها أسرة غنية . وفيها عدد من الفتيات الجميلات . وعلى أبواب الجميلات وقف شباب المدينة من أبناء الأغنياء والأقوياء . . وكانت الفتيات صغيرات . والأب قرر ألا تتزوج بناته إلا إذا بلغن العشرين من العمر . . وطلب الى الشباب أن ينتظروا . ثم أنه لن يزوج واحدة من بناته إلا للشاب الذي يختبره في الثقافة العامة وفي أعمال الفروسية . . وفي الاجابة عن عدد من الاسئلة عن معنى الزواج وأسباب الزواج من إحدى بناته بالذات . .

وأهم من كل ذلك أن كل شاب رأى واحدة من بناته ، أو رأته واحدة فلن يسمح بزواجهما !

ولذلك كانت الفتيات حريصات على ألا يراهن أحد . . والفتيان حريصين على ألا يروا واحدة من البنات !

وفي يوم من الأيام ذهب الأب يتفقد بناته فوجد واحدة منهن ترسم لوحة لشاب جميل . وفزع الرجل وسألها : من يكون

هذا ؟ قالت : شاب أتخيله ! ولم يصدقها . . وضغط عليها وهددها . فاعترفت بأنها رأته من ثقب الباب . وأعاد الأب النظر إلى الصورة فوجدها جميلة . وبحث عن الشاب فوجده يعمل في اصطبل الخيول الذي يملكه . بل وجده أجمل من الصورة . وكان شاباً طيباً مخلصاً في عمله . فاضلاً يصلي بانتظام . فقام الرجل إلى الشاب وحلق لحيته . وشاربه أيضاً . . . فكان الشاب أجمل وأروع . . ثم قام الأب إلى شعره الذهبي وحلقه . فصار الشاب أجمل . .

ولما عرفت الفتاة أزالت شعر اللحية والشارب والرأس من الصورة فزادت جمالاً !

وتضايق الأب فطرد الولد وأعطاه مبلغاً من المال ليذهب إلى أبعد مكان . . وظل يطارد الولد حتى ترك إيطاليا ويقال هاجر إلى فرنسا ويقال أسبانيا ! وإذا دخلنا في تفاصيل هذا الفيلم فاننا نجد الأب قد أحزنه كثيراً أن ترسم الأبنة هذا الخادم الجميل . . وأحزنه أكثر أن تتعاطف الأخوات معها . . ومزق قلبه أن رأى ابنته الصغرى تذبل . ولكن الأب وقع في حيرة شديدة . . فالخادم الجميل قد هاجر إلى بلاد بعيدة . وأنه من المستحيل أن يعود . وصارح الأب بناته بأنه ساعد على هجرته إلى ايطاليا ولكن البنات سألن الأب : هل لو كان موجوداً تغير موقفك منه ؟ فأجاب الأب : نعم وأزوجه لابنتي الصغيرة . . وفوجىء الأب بأن الخادم ما يزال في المدينة يعمل عند أسرة أخرى غنية . وحتى لا يغضب الأب أتت البنات بكبير قساوسة المدينة ليقول رأيه في هذا الانسان الطيب الذي لم يشأ أن يطيل شاربه أو لحيته

أو حتى شعره . . حباً للفتاة الصغيرة وطاعة لوالدها وايماناً بقضاء اللّه وقدره . .

جاء كبير القساوسة يقول للرجل الغني : لقد أتيت بالخادم . وهو مصر أن يقتل نفسه عند قدميك ، ليؤكد لك أنه انسان شريف . . وانه محب لابنتك وخادم لها . . وانه يكفيه شرفاً أنها نظرت إليه ورسمته . . ولكنه يرى أنه لا يستحق الشرف العظيم في أن يكون زوجاً لها !

وبارك الأب هذا الزواج . .

ويكشف كبير القساوسة أن هذا الخادم له أربعة من الأخوة يشبهونه تماماً وفي جماله وبهائه . . وأنهم جميعاً تقدموا لخطبة بقية البنات . .

وينتهي الفيلم ونحن لا نعرف إن كان الأب قد مات سعيداً بزواج بناته . . أو مات من الصدمة . . ولكن شموع الفرح قد أضاءت كل الوجوه وملأت الشاشة لينتصر الحب والصدق والشرف !

وفي الفيلم الايطالي حوار بين الأب وبناته على هذا النحو البديع :

ــ يا ابنتي أنت عصيتني .

ــ يا أبي لم أفعل . ولكنه قلبي الذي لا سلطان لي عليه . . . حاولت يا أبي أن أمد يدي إلى أحشائي وأقتل قلبي فلم استطع ! ولولا أنه حرام يا أبي لقتلت نفسي حتى لا أعصاك . . واستطيع الآن وأكون سعيدة يا أبي .

ـ يا ابنتي ما قصدت ذلك ولكن أب أخاف عليك .

ـ وأنا ما قصدت أن أؤلمك يا أبي . . فانني ابنة مطيعة لك وأخاف عليك . . وأفضل أن أموت طائعة لك ، على أن أعيش عاصية لأمرك !

ـ عشت يا ابنتي !

ـ وعندما اكتشف الأب ان ابنته الصغرى قد عرفت الحب فقال لها : من أين دخل الحب . الأبواب من حديد . والنوافذ . . ولا أحد يقترب من أسوار الحديقة . من أين جاءك ؟

قالت : أنه شعاع يا أبي دخل من ثقب الباب .

قال : أي باب يا ابنتي ؟

قالت : لا أعرف أي باب . . من واحد من الأبواب . . هل استطاع أحد أن يقتل شعاعاً !

قال : لم يقتل شعاعاً أي أحد وانما قتلني الشعاع الذي أصابك . .

قالت : اقتلني يا أبي أمام هذا الباب . . وبعد أن تقتلني . . احشرني في ثقب الباب . . حتى لا يدخل شعاع آخر على شقيقاتي !

قال : أنا أقتلك يا ابنتي ؟! أنا أقتلك لأعيش بعدك نادماً على كل لحظة بعدك وقبلك . . بل أنت اقتليني فقد شبعت من الدنيا . فالدنيا اليوم غير دنيانا . . لقد عشت أكثر مما يجب يا ابنتي . .

وعنـدما التقى الأب بـالخادم الجميـل لأول مرة سـألـه : وأنت ؟ قال : خادمك . . تحت قدميك . . يا سيدي . . ان شئت لي الحياة ، وان أردت موتي ، فانني خادمـك في الدنيـا والآخرة .

قال الأب : وكيف حدث ذلك يا ولدي ؟

قال : أنا لا أعرف . . أمي كانت جميلة وأبي أيضاً . . وأنا صورة الاثنين . . لا ذنب لي يا سيدي . . أنا ضحية روعة أمي وفتنة أبي . .

قال : بل أنا ضحيتكم الثلاثة . .

قال الخادم . . أريحك من كل هـذا العناء يـا سيدي . . فنحن خلقنا الله لكي نطيل أعمارکم يـا سيدي . . حيـاتي في خدمة حياتك . . حياتي لحظة تضاف إلى عمرك . . وقد عشتها يا سيدي والآن جاء دوري لكي أموت كأبي وأمي ارضاء لك يا سيدي !

وعاشوا جميعاً ليموت الأب في غاية السعادة ، أو من شدة السعادة !

المكان الذي يبكي عنده اليهود!

أول مرة رأيت «حائط المبكى» كان سنة ١٩٥٥ فقد انعقد «مؤتمر الخريجين» في القدس وكنت ضمن الوفد المصري . المؤتمر انعقد في سينما اسمها «سينما الحمراء» . وذهبت أتفرج على «حائط المبكى» وكان الوصول إلى الحائط في حارة ضيقة جداً . . حائط مثل أي حائط . وكان من عادة اليهود أن يضعوا بين أحجاره ورقة . في هذه الورقة دعاء إلى اللّه . .

هذا الحائط يقال انه ما تبقى من الهيكل الثاني اليهودي الذي انهدم سنة ٧٠ قبل الميلاد . وهذا الحائط لأنه قريب من «قدس الأقداس» فهو مقدس . . ولذلك كانت الصلاة بالقرب منه كأنها صلاة داخل الهيكل تماماً . .

والمسلمون يسمونه «حائط البراق» . . لأن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في القدس ربط «البراق» عند هذا الحائط . . والبراق هو حيوان صغير وسط بين الحصان والحمار . .

وكان هذا الحائط مطموراً في الأرض إلى أن جاء السلطان

سليم فاتح القدس ورفع التراب والانقاض عن هذا الحائط . .

واليهـود يتجهـون في صـلاتهم إلى حيث يـوجـد هـذا الحائط . . أو بقايا الهيكل . . أو الجبل الذي كان عليه هـذا الهيكل . . وقد حاول كثير من اليهـود شراء الحائط . . ولكن العـرب قاومـوا ذلك تمـاماً . فكـان اليهود يجيئـون إلى الحائط ويقيمون المقاعد والخيام ويصلون . . وكان العرب يـطردونهم بالقوة . فالمكان أثـر اسلامي . وحـاول المليونـير روتشيلد أن يشتري الحائط . وكانت المقاومـة من العرب فـظيعة . ودارت المعارك بين العرب واليهود حول الحائط . وسـالت الدمـاء في القـدس وفي غيرهـا وأخيراً قـررت عصبة الأمم تشكيـل لجنة للبحث في أحقية العرب واليهود لهذا الحائط . وقررت اللجنة المكـونة من سـويسري وسويـدي واندونيسي وبعـد ٣٣ جلسة واستـدعاء ٥٢ شخصيـة ودراسة ٦٣ وثيقـة ، أن الحائط أثـر اسلامي . وأنه ملك للمسلمين وحدهم وأنه جزء لا يتجزأ من الحرم الشريف وكذلك الرصيف أمـام الحائط . . أمـا أدوات العبادة التي يستخدمها اليهود عند الصلاة ، ووجودها بالقرب من الحـائط فـلا يعـطيهم الحق في ادعـاء ملكيـة الحـائط . . ومسموح لليهود أن يصلوا بالقرب من الحائط . . وممنوع عليهم منعاً باتاً أن ينفخوا في البوق كما هي عادتهم عند الغروب أو في نهاية أعياد الغفران . . وكثيراً ما وقعت المشاكـل بين العـرب واليهود بسبب النفخ في البوق . .

وفي سنـة ١٩٤٨ استولت القـوات الأردنيـة عـلى حـائط المبكى . ولم يعـد مسموحـاً لليهود أن يقـتربوا من الحـائط أو

يروه . . حتى كانت حرب سنة ١٩٦٧ فاستولت قوات المظلات الاسرائيلية على الحائط في اليوم الثالث للحرب . .

وبسرعة هدموا كل المباني القريبة من الحائط ووسعوا الأرض أمامه . . وأقيمت الصلوات وأقيم الساتر بين النساء والرجال . . وبدأت أعمال الحفر تحت الحائط من جديد . .

والحائط يرتفع عن الأرض ١٨ متراً . . (٤١ صفاً من الحجارة . . وتحت الأرض ١٩ صفاً من الحجارة . .) .

ورأيت حائط المبكى سنة ١٩٧٧ بعد أن تغيرت معالم المنطقة التي أمامه وحوله تماماً . . فهناك ساحة مرصوفة بالحجارة البيضاء . . وهناك سور حديدي يفصل بين الزوار والمصلين . . وهناك فاصل حديدي يفصل بين الرجال والنساء . . وعند المدخل يوجد مكان به الطواقي السوداء الصغيرة المصنوعة من الورق ويجب أن يضعها على رأسه كل من يصلي أو يزور الحفريات تحت الجدار . .

والمصلون يجلسون أمام الحائط . . أو يضعون أيديهم عليه ثم يهتزون ــ كما يفعل المسلمون في حلقات الذكر . . وبعضهم يبكي والبكاء على هدم الهيكل وعلى تشريد اليهود في الأرض . . ويبكون ويتضرعون ان يعود إليهم مجدهم القديم . . ولا أحد يعرف لماذا سمي هذا الحائط باسم حائط المبكى . . أو المبكى . . ويقال أن السبب هو بكاء اليهود عنده وبكاؤهم عليه . . .

ويقال أنه في الصباح المبكر تقف قطرات الندى على

الأعشاب بين أحجاره ، وهذه القطرات تتساقط كأنها الدموع !!

وعلى الرغم من أن اليهود قد حققوا الكثير جداً من أحلامهم بالقوة والحديد والنار ، فانهم لا يزالون يبكون . وبعض اليهود الملحدين يرون أنه لا داعي لأن يزور الأطفال هذا الحائط ولا أن يبكوا . . فقد انتهى زمن عبادة الأوثان . . ولكن رجال الدين الذين لهم قوة هائلة في إسرائيل يرون أن البكاء ضروري . . حتى لا ينسى اليهود عذابهم في كل العصور وفي كل مكان . .

ويوم دخلت قوات اسرائيل مدينة القدس ، وقف رئيس الدولة يقبل حائط المبكى . . ووقف إلى جوار موشي ديان يقول : انني أقبل الحائط وان كنت لا أؤمن لا بالحائط ولا برب هذا الحائط !

ورغم أنه ملحد ، فانه لم يستطع إلا أن يقبله ويرمي بصدره عليه ويهتز كأكثر الناس تعصباً للديانة اليهودية !

ولما أشار بعض الأخوة الفلسطينيين على الرئيس السادات أن يزور «حائط المبكى» قال : جئنا نحل مشكلة أكبر من كل ذلك !

ولم يشأ أن يذهب إلى حائط المبكي . .

ومن الحبّ ما قتل!

المثل يقول : ان القطة تأكل أولادها !

والقطة تفعل ذلك خوفاً على صغارها . فهي تريد حماية الصغار في بطنها ، ولكنها لا تعرف أن هذه الحماية هي قتل ودفن للصغار !

وهناك حقيقة أخرى : وهي أن ذكور القطط هي التي تأكل الصغار : الأسد والنمر والضبع . . ولذلك تسارع الأم بعد ولادة صغارها إلى اخفائها بعيداً عن أنياب ومخالب الآباء الذكور . .

وهذا المعنى موجود عند الانسان أيضاً . فالأب يغار من اهتمام الأم بأطفالها . . لأنها وجدت من يشغلها أكثر من الأب . ولذلك يكره الآباء الأطفال ويكرهون الزوجة أيضاً . ولا تزال المرأة زوجة حتى يولد لها طفل . فإذا ولد طفل تحولت إلى أم أولاً وثانياً وثالثاً وزوجة رابعاً أو خامساً . . وفي كل مرة يولد طفل تزداد الزوجة أمومة ، وتزداد بعداً عن الزوج وانشغالاً بغيره من الأطفال . . والمرأة تدرك بغريزتها هذا الشعور العدائي

من الآباء في أول الأمر . ولذلك تحاول بسرعة أن تربط بين الأب والطفل فتؤكد للأب أن أظافر الطفل هي أظافر والده . . وشعره وأنفه وخصوصاً شفتاه . أي أن الطفل ابنه مائة في المائة وامتداد له . . وصورة منه . . وينظر الأب إلى الطفل فلا يجد شيئاً من الذي تقوله الأم . . أنه لا يرى إلا كومة من اللحم لها صوت يصرخ بالبكاء من حين إلى آخر . . ولكن الأم تؤكد للأب كل يوم ظهور صفة جديدة للطفل تقطع بأنه ابن حلال . . ابن أبيه تماماً ! والرجل ينظر فلا يجد شيئاً من كل ذلك . . وتقوم الأم بخلق رأي عام بين النساء يؤكد التطابق بين الأبن والأب . . ولو كانت إناث القطط تتكلم لقن نفس الكلام . والمعنى واحد : وهو خلق صداقة ومودة بين الطفل وبين الأب الذي يكره هذا الكائن الذي أبعده عن الزوجة واستولى عليها تماماً !

ولو رأيت أنثى التمساح وهي تلتقط صغارها بعد أن خرجت من البيض لوجدت انثى التمساح تقفل فمها وأسنانها برفق على صغارها . . وتنقل الصغار من الشاطىء إلى الماء ومن الماء إلى الشاطىء . . فاذا ذكر التمساح فتحت فمها وأدخلت صغارها بين أسنانها . . وأدارت ظهرها لمواجة الذكور بضربة من ذيلها العنيف !

وليس صحيحاً أن العناكب والعقارب تلتهم صغارها . . الصحيح ان الإناث تلتهم الذكور . . فبعد عملية اللقاح تنقض الأنثى على الذكر فتأكله . . فهي في حاجة إلى طعام لتكون قادرة على تربية صغارها . وليس أمامها إلا الذكر الذي انتهى دوره

تماماً وبعملية حسابية تكون الحياة قد اختصرت واحداً ولكنها أعطت الأنثى عشرة آخرين . .

وفي بعض القبائل البدائية في جزر المحيط الهادي نجد الأم تأكل صغارها إذا كانوا ضعافاً أو مرضى . . كأنها تريد أن توفر عليهم العذاب في الدنيا ـ فأكثر الناس عذاباً هم الضعاف . فالذي ليس قوياً أكله الأقوياء . والعرب قديماً تقول : من لم يكن ذئباً أكلته الذئاب . . وقالوا :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له !

وقالوا : أن الحب أعمى . .

أي ان الحب الشديد يجعل صاحبه أعمى لا يرى . . واطرش لا يسمع . . فهو يرى الدميمة جميلة ، ما دام يحبها . . ويرى الخرساء فصيحة ما دام يحبها . . والمثل يقول : القرد في عين أمه : غزال . . والغزال في عين من يكرهه : قرد !

وأمين الشعراء شوقي يقول ؛

ومن الحب ما قتل !

فالأم التي ينصحها الطبيب ألا تقدم لطفلها المريض لحماً ، فيدفعها العطف عليه أن تقدم له اللحم فيموت . . انها أم قد أعماها الحب . . فقتلت ابنها كأنها أشد الناس عداوة له .

وفي مصر انتشرت جرائم قتل الزوجات لأزواجهن ـ فكان من بين القاتلات واحدة اعترفت بمنتهى السذاجة فقالت : لانني أحببت زوجي ، ولا أريد أن يكون من نصيب واحدة أخرى . . فقتلته حتى لا يكون لواحدة غيري . . أو إذا كانت في

حياته امرأة أخرى : فقد قضيت عليه لنبكيه نحن الأثنين !

ولما سئلت : كيف تحبينه وتقتليه ؟

قالت : لانني أحبه . . أريده لي وحدي . فإذا فكر في واحدة أخرى كان معنى ذلك أنه يريد أن يسلبني أعز ما أملك . . وما الذي يفعله أي انسان إذا ضبط لصاً بالقرب من باب البيت ومعه كل المجوهرات والفلوس التي عنده في البيت ولذلك قتلته . ولو كنت أكره زوجي لتركته لأية واحدة أخرى عقاباً لها !

وفي سنة ١٩٦١ ذهبت القوات المصرية إلى الكونغو لحماية الرئيس لومومبا ضد المتمردين عليه . وتمركزت القوات المصرية في غابات كثيفة . وكانت هذه الغابات هي التي يعيش فيها الأقزام آكلة لحوم البشر . وذهبت أنا مع القوات المصرية التي كان يقودها الفريق الشاذلي . . وبعد أيام بدأت الأخبار المزعجة تصل إلى القاهرة عن اختفاء بعض الجنود المصريين في ظروف غامضة . وعرفنا بعد ذلك ان الأقزام كانوا يصيدون القوات المصرية بسهام سامة . . ثم يأكلونهم !

وكانت صدمة فظيعة للذين عرفوا هذه الحقيقة المؤلمة . ولم نشأ أن نعلن عن ذلك حتى لا يكون رأي عام ضد لومومبا . . أو حتى لا يعتدي أحد على أولاد لومومبا في القاهرة .

ولما استوضحنا قالوا : أن هؤلاء الأقزام من أتباع لومومبا . . وانهم من أشد الناس إعجاباً بمصر والمصريين !

اي أنهم أكلونا حباً فينا !

* * *

ويقال أن الرئيس لومومبا كان يداعب سكرتير عام الأمم المتحدة في ذلك الوقت ويقول له : نحن أقارب !

ولما استوضحه سكرتير الأمم المتحدة قال : في دمائي تجري دماءٌ سويدية كالتي تجري في دمائك . . فإن جدي رحمة اللّٰه عليه قد أكل اثنين من موظفي السفارة السويدية !

وانزعج همر شيلد سكرتير الأمم المتحدة . . ولكن لولومبا قال : ان الحب أقل تكلفة من الحرب . . فلو حاربناكم لقتلنا موظفي السفارة . . ولكن الحب لم يقض الا على اثنين فقط !

* * *

ومن أروع الأفلام التلفزيـونية التي قـدمتها هيئـة الإذاعة البريطانية فيلم عن حياة انثى فهد مع ثلاث من صغارها . هي التي كفلت الصغار وقامت على تربيتها واطعامها والتنقل بها من مكان إلى مكان في غابات كينيا . أما الذكر أبـو الصغار فقـد اختفى . والسبب هو انثى الفهد قد لاحظت أن زوجها يهتم بأنثى غيرهـا . . وكان قـد أصيب في إحدى سيقـانه فهجمت عليه . . وقتلته . . ثم نامت إلى جواره حزينة وقد امتنعت عن الطعام نهائياً . . انها لم تفعل أكثر مما تفعله بعض الاناث : انهن يقتلن المحبوب ، عشقاً له ، وضناً به على غيرهن من الاناث !

وعندما تقدم الاطباء من هذه الانثى لم تحاول أن تقاوم . . أو تعتدي عليهم . . استسلمت . . كأنها قررت أن تموت جوعاً

وحزناً . . ولما أقبل الصغار على الأم رفعت يديها كأنها تقول : امشوا بعيداً فأنتم السبب !

وعــلى الــرغم من ان الاطبــاء أسعـفــوهــا بــالحقــن والفيتامينات . . فإن إرادة الموت عندها كانت أقوى من إرادتهم لحياتها . . فماتت !

مصــريون رغم المكان والزمان!

الذي أراه في مرآتي لا أخجل منه . . فهذا أنا ، أياً كانت صفاتي الجسمية والنفسية والاجتماعية . . وكل انسان له أكثر من صورة : صورته التي يراها أمامه . .

وصورته التي يحب أن يراها أمامه . .

وصورته كما يراها الناس . .

وكذلك بلدنا : كما نراها . . وكما نحب أن نراها . . وكما لا نحب أن نراها . . وكما يراها الآخرون . .

وكلها صورة واحدة متعددة الجوانب . .

ونحن ــ المصريين ـ لنا صفات . . أو هي عيوب . ولكن لم نفلح في تغييرها . فنحن نرتبط بالأسرة ارتباطاً شديداً . ويجب أن نكون معاً ــ ولذلك نجد الأم مهما كبر أولادها ترعاهم وتعطف عليهم كأنهم أطفال . . اذكر أن والدتي كانت تدخل على أطراف أصابعها وتلملم البطانية واللحاف وتضعها بإحكام حول جسمي . .

وكان ذلك يوقظني . . وفي كل مرة كنت أسافر الى الخارج أقسم لأمي ألف مرة انني سوف أحكم الغطاء حول جسمي . .

وكان الاستاذ عباس العقاد يقول أن أكبر دليل على أن المصري يتمسك بالأسرة أنك تجد البائع المتجول يحمل طفله على كتفه أو يمسكه في يده . . ومن ورائه زوجته تحمل طفلاً آخر . . أو إذا كان يعرض سلعة على عربة فانه يضع كل أطفاله فوق العربة . . وكأن العربة بيت متجول . .

ذهبت إلى استراليا في العام الماضي . وجلست إلى المصريين . وكنت أول مصري ذهب إلى استراليا سنة ١٩٥٩ وتمنيت أن يكون بها مئات . . فوجدت مئات الألوف . أعطيت اذني لهم . . وسمعت وتضايقت . فمشاكلهم تماماً كمشاكلهم في مصر . . كأنهم لم يعبروا المحيطات . . كأنهم ليسوا في بلاد الغربة . . وأكثر من ذلك وجدت أنهم مشغولون بأخبار مصر . . لا أخبارها السياسية والاقتصادية والعسكرية . . ولكن أخبارها الصغيرة جداً . . وهذه الصغيرة جداً كبيرة جداً جداً عندهم . مثلاً اقترب مني أحد المصريين وقال لي : يا سعاد البيه . . أنا عاوز منك توصية . .

ــ تحت امرك . .

ــ الواد أخويا له مشكلة مع المحافظ . . فهو يملك مقهى عند مدخل مدينة طنطا . وقد حرروا له محضراً لأنه سرق الكهرباء من الحكومة . . الخ .

فقلت : يا راجل عيب . . تريد مني ان أحمي لصاً مثل أخيك . . ولماذا لا يعاقبه القانون . هل هذه السرقة ممكنة في استراليا ؟ . . هل يسكت عنك القانون لو فعلت شيئاً مثل ذلك ؟!

ولكن عشرات ألوف الأميال بين استراليا ومصر ، لم تغير منه شيئاً . . كأنه ما يزال في مصر !

ونحن ـ المصريين ـ فينا عيب آخر هو اننا نحب أن نكون متقاربين . . حتى ولو لم نكن أحباباً أو أصدقاء . فالمدن الجديدة التي أقمناها في الصحراء شوارعها ضيقة ـ كأنها أقيمت في جزيرة مانهاتن الأميركية التي اخترع لها الاميركان ناطحات السحاب لأنهم لا يعرفون كيف يبنون بيوتاً كثيرة متجاورة . فالأرض ضيقة . . فأقاموا البيوت فوق بعضها البعض مئات الأدوار . فهم ينطحون السحاب ، لأنهم لا يستطيعون أن ينتشروا في الأرض . . بينما نلاحظ أن البلجيكيين الذين انشأوا «مصر الجديدة» كانت شوارعهم واسعة . . وكانت البيوت من طابقين لا أكثر . . انه لا داعي لأن نقيم عمارات عالية في الصحراء . . بل يجب أن تنتشر البيوت في كل مكان . . فالأرض واسعة . . ولكن عندما جئنا وانشأنا مدينة مصر ووسعنا مصر الجديدة ، كانت الشوارع ضيقة . . وكانت العمارات شاهقة . . الشوارع ضيقة لنكون متجاورين ، والعمارات عالية لنكون محشورين في البيت الواحد . . رغم أن الناس في كل هذه البيوت العالية لا يعرفون بعضهم البعض . . اذن لم يكن السبب في أن نكون كثيرين في هذه العمارات ، هو الحرص على حسن الجوار والصداقة والمحبة . ابداً ـ فقط أن نكون معاً ولو لم يعرف واحد منا الآخر !

وعندما نظر أمير الشعراء شوقي إلى قصر «أنس الوجود» قال : ممسكات بعضها من الخوف بعضاً !

وأجـدادنـا الفـراعنـة كـانـوا يضعـون طعـامهم وشرابهم ومقتنياتهم في قبورهم ، حتى إذا بعثوا يوم القيامة وجدوا نفس البيت ونفس الطعام . . كأنهم لا يريدون أن يبرحوا بيوتهم . . فإذا برحوها فإلى بيوت مشابهة تماماً !

ومما ينـدهش لـه الأجنبي ــ ونحن أيضـاً ــ ان البيـوت الجديدة التي أقمناها في الصحراء ليست واسعة . . ولا أبوابها ولا سلالمها . . وهذا دليل على اننا جميعاً لا نشعر بهذا الاتساع ولا ندخله في بيوتنا . . رغم اتساع الصحراء حولنا !

حتى عندما وزعنـا الأرض الصحراويـة على الشبـاب . . ومسـاحتها مليـون كيلو متر مـربع . أعـطينا الشبـاب خمسة أفدنة . فقـط . . بدلاً من عشرة وعشرين . ولكنه هذا الشعور العميق الـذي نسميه البعـد والابتعاد . . فنحن نستريـح إلى التقارب والتجاور . . ونفزع من الاتساع والتبـاعد . . ونـحن نشكو من ضيق الشوارع والبيوت ولكن إذا ما وسعناها فبضعة سنتيميترات !!

وكـان أجدادنـا الفراعنـة يبنون بيـوتهم من طـابق واحـد يصعدون إلى سطحه بالسلالم . . وهـم الذين أقاموا الاهرامات المعجزة . . ولكن البيوت من طابق واحد . . فـالفراعنـة هـم «أمـيركان» العصـور القديمـة . . يحبون «الضخـامة والفخـامة والابهـة» . . وكان في استـطاعتهـم أن يجعلوا بيوتهم أكـثر من طابق ــ فهم قادرون على ذلك . ولكنهم جعلوا بيوتهم من طابق واحـد في الصحـاري الـواسعـة وهـو مـا لم يفعله الاحفـاد المعاصرون !

* * *

ونحن المصريين عاطفيون . . أي نحب ونكره جداً . نفرح جداً ونحزن جداً . . الزواج أيام والحزن أسابيع . . وكل العادات الفرعونية القديمة والقبطية أيضاً ما زالت حية في الريف المصري . .

اذكر أنه عندما مات خالي وكان شاباً وسيماً ذا قوام جميل وصوت بديع . . رأيت شيئاً أخاني طوال فترة طفولتي . . عرفت فيما بعد أن الذي رأيته كان صورة طبق الأصل للجنازات والبكاء الفرعوني القديم . . أمام البيت حلبة من السيدات يرتدين السواد . . ويضعن «النيلة» — وهي لون أزرق أسود — على الوجوه . . ثم ينحنين على الأرض ويضعن التراب على الرأس وعلى الوجه . . ومن بين اللاتي يفعلن ذلك جدتي وهي سيدة جميلة طويلة قوية الشخصية مخيفة لنا جميعاً : رجالاً وأطفالاً . . وهي من أصل ألماني فرنسي . وكانت تمسك العصا وتركب الخيل وتضرب أي رجل . . أي شنب . . وأمي هذه التي أراها أعظم وأقوى سيدة في الدنيا . . والتي ضربتني كثيراً جداً لأنني كنت أضع التراب في عيون الأطفال لأنني ألعب لعبة طبيب العيون . . ولانني حاولت أن أقلد الثعلب الذي يصعد النخلة بظهره من شدة الحرص . . أمي هذه ارتدت السواد . . والطين والهبات على وجهها وتلطم وتصرخ وتولول . . ثم تتسع دائرة الباكيات عندما تحضر النادبات اللاتي يقلن : شبابك . . وجمالك يا سيد الرجال . . فين ؟ وسريرك وضحكتك عروستك يا سيد الشباب ؟ . . يا عيني عليك يا حبيبي . . الخ . .

وعندما كنت أقرب من أمي تمتد الأيدي وتدفعني بعنف

بعيداً . . وعندما حاولت لا شعورياً ان أقلد والدتي وجدتي ضربوني . . لأن هذا شأن الكبار وليس من شأن الصغار . . شأن النساء وليس شأن الرجال !

لقد تلاشت هذه العادات في المدن وفي معظم الريف المصري . . كما تلاشى «بيت العائلة» الذي يجمع بين كل الأولاد وأزواجهم وأولادهم في أسرة واحدة . . يرأسها الأكبر سناً : صاحب الأمر والنهي والطاعة الواجبة له من الجميع . . انتهى . . اختفى ذلك البيت ، وذلك الذي يأمر فيطاع !

اختفى إلا قليلاً !

اذكر انني كنت في المانيا أزور زميلاً في الدراسة يعمل استاذاً في الجامعة . . وهو رجل عالم واسع الأفق ومفخرة لمصر وللعرب . سألته لم تتزوج بعد ؟

قال : من أجل هذا دعوتك

قلت : خيراً .

قال : هوَ خير فعلاً . . فعندما تعود إلى مصر سالماً أرجوك أن تذهب إلى أخي . . أنت تعرفه . . أخي الأكبر . . وتصف له حالتي هنا وتستأذن نيابة عني في الزواج من زميلة المانية تعمل استاذة للفزياء هنا . .

قلت : لا أفهم . وما دخل أخيك ؟

قال : انه أخي الأكبر . . وربما يكون في حسابه أن يزوجني احدى قريباتي .

ــ قريباتك من بنات الريف ؟

ـ يجوز .

ـ وأي حق له في أن يختار لك أنت العالم الكبير شريكة حياتك في ألمانيا التي قررت البقاء فيها . .

ـ أنه أخي الأكبر . .

وكلما سألته أو استوضحته أو أبديت دهشتي قال أنه أخوه الأكبر . . الأكبر سناً . وما دام كذلك فهو صاحب الأمر والنهي . . أو من الواجب أن يكون له الاحترام . .

سألته : نفرض انه اعترض على زواجك من ألمانية ؟

قال : هذه همتك ومهمتك أن تقنعه .

ـ نفرض انني لم أفلح .

ـ اعتقد أنه سيوافق وسوف يعرف انني استأذنه أدباً فقط .

ـ نفرض انه رفض . .

ـ سأسافر إلى مصر واستأذنه فهو أخي الأكبر . وقد ساعدني كثيراً في حياتي الدراسية . . وضحى من أجلي بالكثير حتى أصل إلى ما وصلت إليه . . وربما أخذت خطيبتي وعرضتها عليه . .

ولم أجد ما أقوله . فهو يحترم أخاه الأكبر . والأخ الأكبر كالوالد تماماً عند أبناء الريف ، أحفاد الفراعنة كل ذلك تغير تماماً . .

ولم يعد الصغير يستأذن الكبير ، ولا يهمه ذلك . وهذا سبب من أسباب تعاسة آباء وأمهات هذا الزمان . . وهذه

التعاسة معناها اننا نحن المصريين نحب أن تكون هناك عائلة . . وان يكون للعائلة كبير . وان يكون الكبير هو صاحب الرأي . وأن يكون لنا جميعاً بيت . . قبيلة . . متماسكة . . ولا يهم أن ضاقت بنا البيوت . فالمهم أن نكون معاً . . أن الكثير من الأثرياء في مصر قد عادوا إلى البيت الكبير . . يبنون البيت ويطلبون إلى جميع الابناء أن يقيموا معاً . . لعل وعسى . . ولكن هذه المحاولة ليست إلا حلماً ذهبياً لن يتحقق . . فالدنيا تباعدت . . كبرت . . اتسعت ولم يعد أحد في حاجة إلى أن يزورك أنه يكلمك في التليفون . . ويراك في المواسم والاعياد — ان كان عنده وقت .

حتى هذه الدنيا التي تتسع قد ضاقت بالانسان وضاقت عنه أيضاً . ولذلك كانت الهجرة إلى الكواكب الأخرى . . ولن تكون الحياة على الكواكب الأخرى مختلفة عن الحياة على هذا الكوكب . . سوف تكون تكراراً لها ، ولكن على مستوى أعلى . . تماماً كالمصريين الذين رأيتهم في استراليا ، قد نقلوا مصر إلى هناك . . لأنهم لا يريدون أن يبعدوا عن مصر . . ويريدون أن يظلوا مصريين في استراليا وفي الكويت وفي كل دول الخليج وفي بقية القارات !

متهم كثيراً ولكن بلا محاكمة!

- ١ -

لم أذهب إلى أية محكمة . أما القضايا التي يرفعها القراء أو كبار المسؤولين بسبب الهجوم عليهم أو تجريحهم ، فكان محامي المؤسسة الصحفية هو الذي يذهب نيابة عني .. ومعظم الأحكام كانت لصالحي . لأن أساس القضية هو خلاف في الرأي . وحرية الرأي مكفولة للقارىء والكاتب .. ما دام الذي كتبته ليس فيه مساس بشخص أحد أو شرفه .

ولكن في يوم اتصل بي وزير الداخلية النبوي اسماعيل وطلب مني ضرورة أن أذهب إلى المحكمة . فالقاضي مصر ان يراني وهو رجل مهذب جداً وقد أجل النظر في القضايا المرفوعة ضدي مرات عديدة ولم أكن أعرف ذلك .. فالمحامي يذهب إلى المحكمة يقول عبارة واحدة : ان الاستاذ لم يتمكن من الحضور لأنه في لقاء مع السيد رئيس الجمهورية .

وكان القاضي يؤجل نظر القضية إلى حين أتمكن من الحضور !

وذهبت مع المحامي ودخلنا في غرفة صغيرة قذرة ووراء مكتب قديم قذر جلس شاب وسلمت عليه وجلست . . ووضعت ساقاً على ساق وانتظرت أن يأمر لي بفنجان قهوة سادة ولكنه لم يفعل ووقف المحامي يتحدث إلى هذا الشاب . . ولم يستغرق الحوار بينهما وقتاً طويلاً . . وكنت أنا مشغولاً أفكر في أشياء كثيرة ونبهني المحامي إلى أن المناقشة انتهت ونهضت وسلمت على الشاب وخرجت وعندما خرجت وجدت المحامي قد امتقع لونه وهو يقول : يا أفندم سيادتك غلطت جداً .

وعرفت أن الغرفة الحقيرة هذه ، هي المحكمة وأن هذا هو القاضي وانني جلست دون اذن وانني وضعت ساقاً على ساق وانني سلمت عليه وأنا خارج . .

ولم أتصور لحظة واحدة أن هذه الغرفة هي المحكمة فقد كنت أتصور المحكمة كالتي نراها في الأفلام : منصة عالية يجلس وراءها القاضي وأمامه مقاعد كثيرة يجلس عليها الشهود وفي جانب من القاعة سور من الحديد يقف وراء المتهمون . . وواحد يزعق ويقول : محكمة . .

فيقف كل الناس !

ووجدت أن هذا القاضي انسان مهذب واسع الصدر . فقد كان في استطاعته أن يطردني وأن يأمرني بالوقوف . . فالذي فعلته كان إهانة للقاضي وللمحكمة !

فجعلت مقالي اليومي «مواقف» في الاهرام اعتذاراً للقاضي واسعِ الصدر الذي لم يعاقبني بالطرد أو بالوقوف . . وأقسمت

صادقا أن هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها أية محكمة . وعلمت أن القاضي قد صدقني وانه قد قبل الاعتذار !

- ٢ -

وفي المرة الثانية كان المحامي هو الوزير د . جمال العطيفي وكانت محكمة الجنايات ونحن واقفون أمام المستشارين ، ضربني بيده في بطني وصرخت : آه . . ولم أفهم السبب وبعد أن ترافع وأخذ المستشارون بوجهة نظره خرجنا من المحكمة وسألته : لماذا ضربتني هكذا ؟ فقال : لقد ظننت انك قد وضعت يدك في جيبك !

وروى لي أنه حدث ان العضو المنتدب في مؤسسة «الاهرام» قد وضع يده في جيبه فأمر القاضي بحبسه وانه خرج من المحكمة واتصل بمكتب الرئيس جمال عبد الناصر الذي اتصل بوزير العدل يرجو القاضي أن يفرج عن العضو المنتدب . . وأفرج عنه بعد ساعات .

وقد خشي د . العطيفي ان أفعل مثله عن غير قصد ، فيؤدي ذلك إلى أن نخسر القضية !

- ٣ -

أما أكبر غلطة ارتكبتها فهي عندما ذهبت أشهد الحكم النهائي على الذين قتلوا الرئيس السادات . . وكان محامي المتهمين يستشهد بما اكتبه عادة ، هجوماً على أجهزة الأمن ، لصالح المتهمين فقد كنت ، ولا أزال ، أقف إلى جوار الشباب

ولا أزال أرى ضرورة مناقشة الشبان . . والحوار معهم لنعرف متاعبهم . . وعن طريق الحوار نخفف شعورهم بالعزلة وشعورهم بالاهمال واللامبالاة ـ إهمال الدولة والهيئات لهم ، وعدم مبالاتنا جميعاً بما طرأ على أفكارهم وحياتهم من تغيرات . .

ولكن عندما أرسلت مقالاً من أميركا أقول فيه : سوف يحدث في عهد الرئيس مبارك أن تنسحب اسرائيل من الأرض المصرية المحتلة ، وان يتم إعدام قتلة الرئيس السادات !

فأعلن المحامون عن القتلة ان هذا تدخل في حكم القضاء وضغط عليه ـ مع ان القتلة قد اعترفوا بأنهم دبروا وخططوا لاغتيال السادات فأنا لا تدخلت ولا ضغطت !

ذهبت إلى المحكمة لأرى أملاً في ان أكتب بعد ذلك . . وكنت أول من دخل المحكمة وجلست في الصفوف الأخيرة . . وكان المتهمون موجودين جميعاً وراء القبضان وسألني واحد منهم ان كنت أنا أنيس منصور قلت : نعم .

وهنا تعالت الهتافات العدائية لمصر وللحكومة وللسادات ولمبارك وهتافات ضدي . . ونزعوا ملابسهم . . ودخلت كاميرا التلفزيون العالمي تلتقط العبارات التي كتبوها على صدورهم وعلى بطونهم . . ولم يستطع أحد أن يسكتهم ولا حاول . وفجأة انقطع التيار الكهربي وطلبوا منا أن نخرج وتليت الأحكام خارج القاعة . .

وفي الليل اتصل بي الرئيس حسني مبارك يسألني وما الذي جعلك تذهب إلى المحكمة ؟

فقلت : والله يا ريس هذه غلطتي الثانية فلم أتصور أن أحداً منهم سوف يعرفني . .

ورويت للرئيس حسني مبارك كيف ذهبت إلى المحكمة لأول مرة في حياتي !

- ٤ -

ثم أصبحت عضواً في البرلمان ـ في مجلس الشورى ـ فعندي حصانة . . أي انني لا اذهب إلى المحكمة ولكي اذهب إلى المحكمة يجب أن ترفع عني الحصانة ولكي ترفع الحصانة لا بد من عرض القضية على المجلس وفي المجلس يجب إجراء تصويت . . بعد التصويت : قرار برفع الحصانة وبعدها أقف أمام القاضي . .

وكل القضايا المرفوعة : قضايا رأي . . أي خلاف في الرأي . . وهي قضايا يحكم فيها القضاء عادة بالتعويض الرمزي : قرش صاغ . . أو يحكم بالبراءة . . وهناك قضايا كثيرة مرفوعة من مواطنين غاضبين . .

واحد طبيب اسنان قلت عنه أنه طبيب بيطري ووجد في ذلك إهانة مع ان الطبيب البيطري رجل محترم وان البيطرة علوم جادة .

وواحد قلت عنه من هذا « الشيء » . . ورأى في ذلك إهانة بالغة فهو ليس شيئاً وانما هو انسان محترم . . ولكن القانون

يقول ان كل ما في الدنيا : اشياء جامدة أو أشيـاء ناطقـة . . وكلها اشياء !

وليست كل القضايا موجهة لي شخصياً ، ولكن باعتباري رئيساً للتحرير مسؤولاً عن كل ما ينشر في الصحيفة سواء بقلمي أو بأقلام غيري . .

وإحـدى عارضـات الأزياء ذهبت إلى القضـاء تقول انني وصفتها بأنها لا ترتدي فستاناً وانما هي واحدة قد خرجت من هدومها . . وان هذا المعنى فيه اهانة لهـا وإساءة إلى سمعتهـا وقطع لرزقها . . وعندها محام طويل اللسان جداً !

وواحدة ممثلة رفعت تسع قضايا وهي تعتـبر ما نشر عنهـا قـذفاً وإسـاءة لشكلها وسمعتهـا وإهـداراً لتـاريخهـا الفني وخـرابـاً لبيتها . . لأننا قلنا عنها : انها يجب أن تنقض وزنها طفلاً ــ أي ما يعادل وزن طفل . . ولأننا قلنا عنها : يجب أن تقف أمـام الكاميرا بعد أن تكون قد صامت ستة شهور على الأقل . . ولأننا قلنا أنها خافت أن تترك مجوهراتها في البيت ، فحملتها في رقبتها وحول ذراعيها . . وفي فمها أيضاً ــ إشارة إلى أن عندها سنتين ذهبيتين !

أمـا آخر القضـايا فهي التي رفعهـا استاذ جـامعي ومحام أيضاً . وهو يطالبني شخصياً بمبلغ قـدره اثنا عشر مليـوناً من الجنيهات والسبب هو انني رويت عن أحد المدرسين انه وصف ابنه الصغير بأنه نحيف كالابرة ــ إهانة للابن . .

ولم اذكر اسم الطفل ولا اسم الوالد ولكن لأن هذا الوالد استاذ في القانون فقد وجد جميع مواد قانون القذف والجنايات قد

انطبقت فوق دماغي . . وبدلاً من أن يطالب بشنقي فانه اكتفي بطلب تعويض مؤقت قدره اثنا عشرة مليوناً ! لماذا ؟ لأنني أهنت أجداد الطفل الذين كانوا أبطالاً في ثورة ١٩١٩ في مصر . . ولأنني أهنت والده الذي هو استاذ تخرجت على يديه أجيال من المحامين والمحاسبين . . وهذه خسارة فادحة . . وأكثر من ذلك انني جعلت ابنه اضحوكة بين الاطفال مما يؤثر على حاضره ومستقبله ــ فأنا قد حطمت ماضي الأسرة وحاضرها ومستقبلها !!

وقد اعتاد القضاة على مثل هذه النكت !!

وآخر النكت أن مواطناً من الاسكندرية يتهمني بسرقة أفكاره واستعارة اسمه وأنه يطالبني بنصف كل الذي تقاضيت من تدريسي في الجامعة واشتغالي في الصحافة وفي التأليف المسرحي والسينمائي . . أما اسم هذا الرجل فهو : أحمد أنيس عبد السلام متولي منصور حماد الشهير بأنيس منصور .

وقررت أن أذهب إليه وأن أكتب عنه . . فلا بد أن له قصصاً ونوادر تدعو إلى الضحك وعرفت العنوان ودققت الباب لتخرج سيدة عجوز وتقول لنا : حياتك الباقية يا ابني !

لقد مات من سنتين !

الفهـرس

كتب للمؤلف

(أ) ترجمة ذاتية :

١ ـ فى صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ ـ عاشوا فى حياتى
٢ ـ إلا قليلا
٤ ـ طلع البدر علينا
٥ ـ البقية فى حياتى
٦ ـ نحن أولاد الغجر
٧ ـ من نفسى
٨ ـ حتى أنت يا أنا
٩ ـ أضواء وضوضاء
١٠ ـ كل شىء نسبى

(ب) دراسات سياسية :

١ ـ الحائط والدموع
٢ ـ وجع فى قلب اسرائيل
٣ ـ الصابرا (الجيل الجديد فى اسرائيل)
٤ ـ عبد الناصر ـ المفترى عليه والمفترى علينا
٥ ـ فى السياسة (٣ أجزاء)
٦ ـ الدين والديناميت
٧ ـ لا حرب فى أكتوبر ولا سلام
٨ ـ السيدة الأولى
٩ ـ التاريخ أنياب وأظافر
١ ـ الخالدون مائة ـ اعظمهم محمد (صلى الله عليه وسلم)
١١ ـ لعنة الفراعنة
١٢ ـ على رقاب العباد
١٣ ـ ديانات أخرى
١٤ ـ وكانت الصحة هى الثمن
١٥ ـ الغرباء
١٦ ـ الخبز والقبلات

(جـ) قصص :

١ ـ عزيزى فلان
٢ ـ هى وغيرها
٣ ـ بقايا كل شىء
٤ ـ يا من كنت حبيبى
٥ ـ قلوب صغيرة
٦ ـ شارع التنهدات
٧ ـ فوق الركبة
٨ ـ هذه الصغيرة (وقصص أخر
٩ ـ عريس فاطمة
١٠ ـ يوم بيوم
١١ ـ إنها الاشياء الصغيرة

(د) نقد أدبى :

١ ـ يسقط الحائط الرابع

٢ ـ وداعا أيها الملل

٣ ـ كرسى على الشمال

٤ ـ ساعات بلا عقارب

٥ ـ مع الآخرين

٦ ـ شىء من الفكر

٧ ـ لو كنت أيوب

٨ ـ يعيش .. يعيش ..

٩ ـ الوجودية

١٠ ـ عذاب كل يوم

١١ ـ طريق العذاب

١٢ ـ وحدى .. ومع الآخرين

١٣ ـ مالا تعلمون

١٤ ـ لحظات مسروقة

١٥ ـ كتاب عن كتب

١٦ ـ أنتم الناس ايها الشعراء

١٧ ـ أيها الموت . لحظة من فضلك

١٨ ـ أوراق على شجر

١٩ ـ فى تلك السنة

٢٠ ـ دراسات فى الأدب الامريكى

٢١ ـ دراسات فى الأدب الالمانى

٢٢ ـ دراسات فى الأدب الايطالى

٢٣ ـ فلاسفة وجوديون

٢٤ ـ فلاسفة العدم

(هـ) رحلات :

١ ـ حول العالم فى ٢٠٠ يوم

٢ ـ بلاد الله خلق الله

٣ ـ غريب فى بلاد غريبة

٤ ـ اليمن ذلك المجهول

٥ ـ أنت فى اليابان وبلاد أخرى

٦ ـ اطيب تحياتى من موسكو

٧ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات كوميدية :

١ ـ مدرسة الحب

٢ ـ حلمك يا شيخ علام

٣ ـ مين قتل مين

٤ ـ جمعية كل واشكر

٥ ـ الأحياء المجاورة

٦ ـ سلطان زمانه

٧ ـ حقنة بنج

٨ ـ العبقرى

٩ ـ الكلام لك يا جارة

(ز) مسرحيات مترجمة :

* للأديب السويسرى فريد ريش ديرنمات .

١ ـ رومولوس العظيم

٢ ـ زيارة السيدة العجوز

٣ ـ زواج السيد مسيسى

٤ ـ الشهاب

٥ ـ هى وعشاقها

٦ ـ أمير الأراضى البور

٧ ـ مشعلو النيران

* للأديب الفرنسى جان جيرودو

٨ ـ من أجل سواد عينيها

* للأديب الامريكى آرثر ميللر :

٩ ـ بعد السقوط

* للأديب الامريكى تنسى وليامز :

١٠ ـ فوق الكهف

* للأديب الامريكى يوجين أونيل :

١١ ـ الامبراطور جونس

* للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو.

١٢ ـ تعب كلها الحياة

* للأديب الفرنسى اداموف .

١٣ ـ الباب والشباك

* للأديب الاسبانى أرابال

١٤ ـ ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية :

١ ـ الحنان أقوى

٢ ـ من أول نظرة

٣ ـ طريق العذاب

٤ ـ الوان من الحب

٥ ـ شباب .. شباب

٦ ـ مذكرات شاب غاضب

٧ ـ مذكرات شابة غاضبة

٨ ـ جسمك لا يكذب

٩ ـ اثنين .. اثنين

١٠ ـ الذين هاجروا

١١ ـ غرباء فى كل عصر

١٢ ـ أظافرها الطويلة

١٣ ـ هموم هذا الزمان

١٤ ـ الحب الذى بيننا

١٥ ـ عذاب كل يوم

١٦ ـ قل لى يا أستاذ

(ط) دراسات علمية :

١ ـ الذين هبطوا من السماء

٢ ـ الذين عادوا إلى السماء

٣ ـ القوى الخفية

٤ ـ أرواح وأشباح

٥ ـ لعنة الفراعنة

رقم الايداع : ١٨٨٦ / ١٩٩٢
الترقيم الدولى : ٧ ـ ٠٠٨٧ ـ ٠٩ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة .٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

هـذا الكتاب

كل الموضوعات التى تتعلق بالإنسان ومشاعر الإنسان ليست دقيقة ولا واضحة تماماً . فلا توجد حقيقة إنسانية سهلة وبسيطة مثل ٢+ ٢ = ٤ . . وإنما نحن نعبر عن كل المعاني الإنسانية بالتقريب . . لأنه من الصعب أن نلقي القبض على المعاني وأن نسجنها فى الكلمات . . وإذا فعلنا فكثيراً ما هربت . . فنعود إليها نتحايل عليها وندور حولها لعلنا نرى جديداً . . وهكذا إلى الأبد !

والفيلسوف الألماني العظيم هيدجر يقول : ركعت وسجدت عند قدمي معشوقتي . . ورفعت رأسي انتظر أن تجود عليّ بكلمة . . وانتظرت طويلاً . . ولكن معشوقتي لم تقل إلا قليلاً !

أما هذه المعشوقة فهي : الحقيقة !

القليل همست به ، والباقي يجب أن نجتهد نحن في معرفته !

الحب مثلاً : يملأ نصف كتب الأدب فى كل العصور . . مئات ألوف من الأبيات في كل اللغات . فما هو ؟ كيف هو ؟ لماذا هو ؟ اية فائدة منه ؟

وتاريخ الفكر الإنساني ، هو تاريخ المحاولة والخطأ واللف والدوران والنفاذ إلى أعماق المعاني . . ثم معاودة كل ذلك من جديد . . كأن أحداً لم يحاول من قبل !

وغير ذلك من ألوف المعاني والنوادر والقصص فى التاريخ والأدب والفلسفة . .

ولكن الكاتب يحاول ويحاول . . ويكفيه شرفاً أن يفعل ذلك . .

وهناك نوعان من الأدباء أو الشعراء أو المفكرين :

واحد يمشي أمامك ويتكلم . . وواحد يمشي وراءك ويتكلم . . ولا أعرف أين سأكون .

وإنما سأحاول أن أكون أقرب إلى أذنيك إلى عينيك إلى عقلك . . وأن اقطع هذه المسافة التى بيننا فى أسرع وقت وبأقل جهد . . ولن أمل أبداً أن أكون واضحاً !

أنيس منصور